مكتبة ياسمين

رواية

سيمونتا انيللو هورنوبي

منولارا قاطفة اللوز

ترجمتها عن الإيطالية: نجلاء والي

العالم الجديد

مكتبة ياسمين

بدأت هورنوبي الكتابة في سن السابعة والخمسين، وهذه أول رواياتها، وقد حققت نجاحاً كبيراً وتُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة خلال فترة قصيرة من نشرها (منها العربية). وعلى الرغم من هذا النجاح، إلا أن الكاتبة سحبت روايتها من التداول وأعادت كتابتها من جديد، مضيفة أحداثاً جديدة، وأفكاراً أخرى، وصياغات مختلفة أيضاً، الأمر الذي جعل من الرواية في نسختها الجديدة مختلفة، بعمق، عن نسختها الأولى، إن بالتعديلات أو بحجم الرواية الذي ازداد بشكل بيّن. وكما ترجمت الرواية في نسختها الأولى «نجلاء والي»، تترجم هي نفسها أيضاً هذه النسخة الجديدة، الأمر الذي يعطي للترجمة الجديدة معان أخرى وإضافات لامعة، ومختلفة عن الأولى. وبهذا تُعتبر هذه الترجمة ترجمةً جديدة لرواية جديدة.

أما الرواية فتبدأ بموت "منولار". خادمة لدى عائلة ثرية، إلا أنها المتحكمة ليس بسلوك العائلة اليومي فحسب، بل بمصائرها. خادمة ومسيطرة وثرية! هذا كله جعل منها موضوعاً لكلام الناس ونمائم ألسنتهم، ومن خلال هذا الكلام وهذه النمائم التي لا تنتهي وفي مدينة صقلية صغيرة، حيث حققت تلك الخادمة شهرتها الواسعة فيها واكتنف الغموض حياتها، تنكتب هذه الرواية؛ وعبر البحث عن سرّ هذه الخادمة، ومحاولة التعرف إلى شخصيتها أكثر فأكثر، والتفاصيل الكثيرة المعتنى بها، والأجواء المافيوية التي تنتشر في الكتاب، تنبني هنا رواية تشويقية ومسلّية إلى أقصى حد، بحيث يخشى القارئ إن فاتته جملة، أن جزءاً من السرّ، ومن الطريق إلى معرفته والكشف عنه يفوته أيضاً، لذلك فهي رواية تُقرأ باللهاث.

ISBN 979-12-5591-046-6

منولارا
قاطفة اللوز

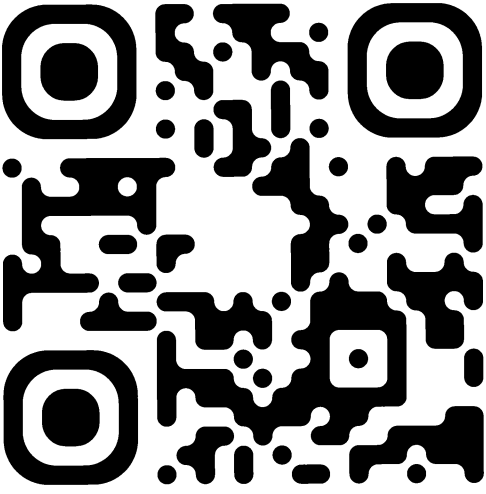

telegram @
yasmeenbook

telegram @
yasmeenbook

2024 منشورات المتوسط - إيطاليا.

La Mennulara *by* "Simonetta Agnello Hornby"
© Giangiacomo Feltrinelli Editore Milano
Prima edizione rivista e accresciuta ne "I Narratori" febbraio 2019
Arabic translation copyright © 2024 by **Almutawassit Books**

المؤلف: سيمونتا انيللو هورنوبي / المترجمة: نجلاء والي
عنوان الكتاب: منولارا، قاطفة اللوز / الطبعة الأولى: 2024
صورة الكاتبة للمصور ليوناردو تشيندامو (Getty Images)
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-046-6

بتمويل مشترك من
الاتحاد الأوروبي

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

سيمونتا انيللو هورنوبي

منولارا قاطفة اللوز

ترجمتها عن الإيطالية: نجلاء والي

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

المتوسط

الاثنَيْن 23 سبتمبر 1963

telegram @
yasmeenbook

1. دكتور ميندكو يحضر وفاة إحدى مريضاته

شعر الدكتور ميندكو فجأة بالإرهاق، ألم بساقَيْه، وتنميل بذراعَيْه؛ فقد ظلَّ جالساً أكثر من ساعة في الوضع نفسه، ممسِكاً بيدَي منولارا، يدلِّك أناملها بحركة دائرية رقيقة مستمرَّة .

رفع يدها اليمنى، تاركاً الكفَّ اليسرى مفتوحة فوق الفراش الذي سكنت فوقه يدا الراحلة اللتان لا تزالان دافئتَيْن.

كانت لحظة جليلة، يعرفها جيّداً، ولطالما شعر فيها بالتأثّر الشديد. الدَّور الأخير للطبيب عندما يهزمه الموت؛ أغلق جفنَيْها برقّة، أعاد وضع اليدَيْن، شبك أصابعهما، ووضعهما بعناية فوق صدرها، سوَّى غطاء السرير، وشدّه إلى أن غطّى به كتفَيْها، وأخيراً قام ليُخبرَ عائلة الفاليبي بوفاة منولارا.

بقي معهم الوقت اللازم، أعطى لجاني الفاليبي المظروف المغلق الذي يحوي آخر وصايا الميتة، ونزل بسرعة درجات سُلَّم البيت ملتقياً بالجارات اللواتي حضرنَ للتعزية. أحسّ بالاختناق في ذلك المنزل، وما إن خرج من البَوّابة الخارجية، حتّى خطا خطوات بطيئة قصيرة، وتنفّس بملء رئتَيْه هواء الصباح النقي. كان الطريق لا يزيد عن عشرات الأمتار إلّا أنه بدا أطول، نظراً لضيقه وازدحامه بالانعطافات التي صنعتها الأبنية المكوّنة من طابقَيْن أو ثلاثة، والتي تضاعفت أعدادها على مرّ السنين بشكل عشوائي، وتكدّست

الواحدة فوق الأخرى، والتحمت بالمباني الأصلية، فشكّلت معها ما يشبه سُورَيْن ضخمَيْن متجاورَيْن وغير منتظمَيْن، يقطعهما قوسان، يخترقهما نفق يمرُّ من خلاله، ويتلوّى سُلُّم يؤدّي إلى السهل، وهو أحد هذه السلالم المكوِّنة للشبكة الرئيسة للطُّرُق في روكاكولومبو، إحدى المُدُن الداخلية الملاصقة لسفح الجبل.

تذكّر الدكتور ميندكو أنه لم يلفّ مسبحة حول أصابع المتوفّاة كما جرت العادة. استرجع في ذاكرته حجرة منولارا، ليدرك سبب تقاعسه. كانت حجرة فارغة بطريقة خاصّة. لا يوجد بها إلّا الضروري: سرير ومَقعَد ودولاب وأباجور وراديو فوق الكومودينو ومنضدة ضيّقة تُستخدَم كمكتب، فوقها صينية صغيرة مَعدِنية، تراصّت فوقها، بنظام شديد، أقلام حبر وأقلام رصاص وممحاة كبيرة لمحو الكتابة، وفوق الرفّ صورتان: إحداهما لأولاد أختها والأخرى باهتة لوالدَيْها، بعض الدفاتر وعدد قليل من الكُتُب. كانت الجدران عارية إلّا من نسخة لأيقونة "العذراء والطفل يسوع" لفيرتي عند رأس السرير.

كانت الغرفة تفتقر إلى اللمسة النسائية والحسّ الديني؛ ذلك المزج بين صور دينية وتماثيل للعذراء وقدّيسي البلدة، وقِنّينات مملوءة بمياة مقدّسة من بلاد بعيدة، تلك الأشياء كلّها التي يزدحم بها كومودينو السيّدات، وإن خلت من المسبحة. ورغم ذلك

كانت غرفة نوم منولارا مفعمة بإحساس عميق بالتديّن، يكاد يصل إلى درجة الرهبنة. كان الجزء المرئي من السماء من بين الأسطح المدبّبة غير المنتظمة ساطع الضياء باهت الزرقة.

توقّف الدكتور ميندكو لحظة، تنفّس بعمق، رفع عينَيْه، وحملق بشدّة في السماء، قال بصوت منخفض: "مَن يدري أين تحلّق روحها الآن؟ فليرحمها الله". وهبط السُّلَّم الذي يؤدّي إلى بيته. دقّت أجراس

الدَّيْر معلنة الحادية عشرة. اعتقد ميندكو أنه، قبل موعد الغداء، سيكون لديه الوقت الكافي لإجراء بعض التليفونات وتناوُل القهوة والتمشية. كان يحتاج إلى البقاء وحيداً، "حتّى طبيب عجوز مثلي لا يعتاد على فكرة الموت" همس لنفسه وهو يدقّ جرس بيته.

عاد جاني إلى رَدْهَة البيت بعد اصطحاب الدكتور ميندكو إلى الباب. كانت الأمّ والأختان ينتظرنَ بصمت. لم تجرؤ سانتا على الدخول احتراماً لعائلة الفاليبي وتطبيقاً لأوامر منولارا. لم تستطع، على أيّ حال، كتم الفضول، وبقيت في الرَّدْهَة مستندة إلى باب المطبخ، كان وجهها لم يزل متقلّصاً مبلّلاً بالدموع وذراعاها مسترخيتَيْن إلى جانبَيْها، تسترق السمع لفَهْم ما تناثر من حديث السادة أصحاب المنزل.

ارتمت السيّدة الفاليبي فوق "الفوتيه"، وألقت برأسها فوق مسنده، امتلأت عيناها بالدموع، وشردت نظراتها، كانت ليللا مستندة إلى ذراع المَقعَد تمسح على جبهتها، بينما تقف كارميلا في الترّاس منتظرة عودة الزوج.

سألت ليللا جاني: "ماذا أعطاكَ الطبيب؟". أظهر جاني المظروف وقد كُتب اسمه فوقه بأحرف كبيرة وخطٌ غير منتظم: كان خطّ منولارا. التفتت كارميلا عند سماع كلمات أختها. كانت تتأمّلهما، وعند رؤية المظروف، لحقت بهما بسرعة صارخة: "لعلّه الوصية، لا تفتحه، ينبغي علينا انتظار ماسيمو"، وردّدت بصوت تتصاعد حدّته: "ينبغي انتظار ماسيمو". أجهشت السيّدة الفاليبي بالبكاء مرّة أخرى، وردّدت بصوت خافت كما لو كانت تبتهل: "كنتُ أعلم أن منو كانت ستفكّر فيّ، فقد كانت تحبّني". جاني وليللا أرادا فتح المظروف فوراً، إلّا أنهما لم يجرؤا، ولم يتّسع الوقت لمجادلة أختهما، لأن سانتا والجارات اقتحمنَ الحجرة بأصواتهنّ وإشاراتهنّ في وقت واحد، لتقديم العزاء، وعند رؤيتهنّ انخرطت السيّدة الفاليبي في نحيب

مستعر، هرعت إليها النساء على الفور لمواساتها. كانت تردّد:" ماذا سيحدُث لي؟ كانت منو تعتني بي، الآن ماذا سأفعل وأنا مريضة ...؟"

احتضنت كلٌّ منهنّ الأخرى في عناق طويل، وقد اختلطت روائح عرق آباطهنّ بروائح الطعام الذي كنّ يقمنَ بطهوه، خليط من الثوم والزيت والطماطم والبقدونس ولبابة الخبز. رائحة قديمة طالما صاحبت احتقار عائلة الفاليبي للطبقات الدنيا في المجتمع.

اقشعرّت ليللا من فكرة أن أمّها عاشت منذ وفاة أبيها في منزل يشاطرها فيه بائع السمك، وكهربائي عائلة الفاليبي، وموظّف صغير. شكرت الأقدار التي جعلتها تعيش في روما بعيداً عن تلك البلدة القذرة، وأخفت استياءها بعد آخر حضن كريه الرائحة. أوضحت ليللا للنساء أن الأمّ مجهدة، وأنها على وشك الإغماء، ولحسن الحظّ كان الطبيب ميندكو قد أعطاها دواء، وأمرها بالراحة في الفراش. أمّا هي وكارميلا، فلن تتركاها وحدها منهارة، بل ستبقيان معها، والجارات الفضوليات يمكنهنّ البقاء في البيت أو الذهاب إلى الحجرة التي ترقد بها منولارا، ويمكنهنّ، إن أردنَ، مساعدة سانتا في تجهيز الجثمان، أمّا الأختان، فستتولّيان العناية بالأمّ المحتاجة إلى مساعدتهما في هذه اللحظة الصعبة.

السيّدة الفاليبي تأكيداً لما ذكرتْهُ الابنة، والتي كانت تتحدّث بثقة، يسمح بها وضعها كزوجة لطبيب، غاصت في المَقعَد الوثير، ومدّت ساعدَيْها فوق ذراعَي المَقعَد، وتركت يدَيْها تتدلّيان، وألقت برأسها فوق مسند المَقعَد. بدأت تُهمهم: "لا أشعر بأنني على ما يرام، ربمّا سأفقد الوعي". عند نطق هذه الكلمات، هرع إليها أبناؤها الثلاثة وسانتا، بيد أنهم لم ينجحوا في تجنّب التدخّل الحتمي المُلِحّ للنساء اللاتي لم يكنّ قد غادرنَ الحجرة بعد، وكلٌّ منهنّ تتبارى في النصح والمبالغة في تقديم المساعدة.

حملنَ معاً السيّدة الفاليبي إلى حجرتها، وأرقدوها في فراشها، فكانت هناك مَن تقدّم لها كأساً من الماء أو مَن تضع فوطة مبلّلة بالمياة فوق جبهتها أو تضبط وضع الوسادة خلف ظَهْرها، أو تمسك بمعصمها. والسيّدة الفاليبي مسرورة، راضية برعايتهنّ لها، لدرجة تخشى معها أن تفقد تلك الرعاية إن شعرت بالتحسّن، فزادت من الشكوى والنحيب. وعندئذ وصل الصهر.

لم يجرؤ ماسيمو ليوني على مرافقة كارميلا في ذلك الصباح، عندما اتّصلت سانتا لتوقظَهم وتخبرهم بأن منولارا تحتضر. فضّل البقاء في بيت الفاليبي، الذي يبعد مسافة دقائق، في انتظار الأخبار. فقط عندما اتّصلت به كارميلا، لتخبره أن المرأة دخلت في غيبوبة، شعر بأنه يمكنه اللحاق بها، وكان في اللاوعي لم يزل يحترم أمر مونلارا: "أُقسم برأس أمّي أنه لن يضع قدمه في بيتي الذي أعيش فيه". كان حرماناً وطرداً حقيقياً. كان ماسيمو قد تزوّج من كارميلا منذ سبع سنوات، وطوال تلك السنوات لم يكن من المسموح له بالدخول من البوّابة أو الاتّصال تليفونياً بزوجته في أثناء إقامتها في ذلك البيت. كرهها دائماً ولم يزل يكرهها، الملعونة مونلارا. ماتت الآن أخيراً.

كان يرتقي السُّلَّم وقد تملّكه شعور بالإثارة ممتزجٌ بالضغينة. سينظر إليها جسداً ميتاً، لكنه أدرك أنه ليس بإمكانه البصق على جثّتها؛ فالأصوات التي كانت تتصاعد من الداخل تشي بأن زيارات التعزية قد بدأت لتوّها.

عاملتْه الجارات كأحد أفراد عائلة الراحلة، كنّ يحطنَ به بعطف في محاولة للتغاضي عمّا قد يسبّبه الموقف من حرج؛ فقد كنّ يعلمنَ جيّداً بإقصاء منولارا له. كانت لكلمات التعزية مغزى محدّد:

"كانت تحبّ زوجة سيادتكَ كابنتها"، "كانت تفعل كلّ ما تستطيع من أجلكم". "كانت طيِّبة، صدِّقنا".

وبمجرّد أن تمكّن ماسيمو من التملّص منهنّ، هرع إلى حجرة نوم الحماة، حيث كان صهراه ينتظرانه بقلق.

حيّا كلٌّ منهما الآخر بسرعة دون القبلات والعناق المعتاد.

حرصت ليللا على غلق الباب جيّداً بعد أن طلبت من سانتا أن تتركهم وحدهم، وألّا تسمح بدخول أحد. ثمَّ نظرت إلى أخيها نظرة بليغة.

فتح جاني فوراً المظروف، وأخرج ورقة، وبدأ في قراءتها بوجه عابس. الأختان وصهره لم ينبسوا ببنت شفة، وتسمّروا حوله. استمرّ جاني في قراءة الخطاب بصمت. لم تستطع ليللا السيطرة على نفسها: "اقرأه للجميع، ما رأيكَ؟"

أعطاها الأخ الخطاب قائلاً: "لا أفهم شيئاً، انظري أنتِ". بدا أن الأمّ قد عادت فجأة إلى وعيها، وكانت تتابع حديثهم. وعند سماع كلمات جاني، سقطت مرّة أخرى فوق الوسائد تئنّ وتتألّم.

في هذه المرّة لم يعرها أحد اهتماماً، حيث إن جاني بدأ بالقراءة بصوت عالٍ:

"ليس هذه بمثابة وصية حقيقية، إنني قد أعطيتُكم كلّ ما يحقّ لكم، وليس لديكم أيّ حقوق أخرى عندي، ولكني أطلب منكم أن تنفّذوا ما أقول للمرّة الأخيرة، وسيجلب ذلك لكم نفعاً كثيراً. أريد جنازة في روكاكولمبا بدون مسيرة فتيات يتامى وراهبات، تحضرها عائلة الفاليبي كلّها، لأنني أستحقّ ذلك، وسيتمّ دفني في المقبرة التي اشتريتُها أمام مقابر عائلتكم، كما يقضي العُرف بالنسبة إلى "خادمة" في بيت الفاليبي. يجب وضع صورتي مع الكلمات الآتية: "هنا ترقد ماريا روزاليا أينتسريللو المعروفة باسم منولارا،

والتي التحقت بخدمة عائلة الفاليبي عندما كانت في سنّ الثالثة عشرة، وخدمت العائلة بكلّ إخلاص وأمانة إلى أن وافتها المنية".

ليس لديّ شيء لأتركه لكم في روكاكولومبا، البيت الذي قضيتُ به نحبي قد كتبتُهُ باسم السيّدة أدريانا، إن رغبتْ في الحياة فيه، وعليكم أن تبحثوا لها عن خادمة ماهرة، وتدفعوا لها أجراً جيّداً، كي تجد مَن يخدمها حتّى وفاتها. أعطوا الأشياء التي تركتُها في غرفتي للأب أرينا، كي يعطيَها للفقراء والكنيسة. كلّ ما تبقّى من الأثاث أتركه للسيّدة أدريانا. أريد أن تقوموا فوراً بنشر النعي في جريدة "جورنال دي سيشيليا" كما أمليه عليكم كلمة تلو الأخرى:

اليوم توفّيتْ

ماريا روزاليا أينتسريللو

المعروفة باسم

منولارا

عن عمر 55 عاماً

مديرة أملاك وخادمة لدى عائلة الفاليبي

تعلن عائلة الفاليبي هذا الخبر المؤلم

وتعبّر عن حزنها العميق لمصابها الفادح

يعلن النبأ الحزين السيّدة أدريانا مانجرشينا، أرملة المحامي أوراتسيو الفاليبي، الابن جاني وزوجته أنا كيوفاروا، الابنة الابنة ليللا وزوجها الطبيب جان ماريا بولا والابنة

كارميلا وزوجها ماسيمو ليونى. عاشت في بيت الفاليبي منذ كانت في الثالثة عشرة، وخدمت بإخلاص العائلة التي ترثيها بالدمع الوفير. وستقام الجنازة في تمام الساعة الثالثة في كنيسة "لادولوراتا" يوم 24 سبتمبر 1963 وسوف تشيّع الجنازة إلى مقبرة روكاكولومبا للدفن في مقابر العائلة.

لا تبلغوا أبناء أختي بخبر وفاتي، فأنا لا أريد حضورهم الجنازة، الروح تعود إلى الربّ والإرث لمَن يستحقّه."

بادرت الأمّ بالحديث: "ألم أقل لكم بأن منولارا فكّرت في كلّ شيء، تترك لي بيتها .. ومَن منكم سيعتني بي، بعد أن أصبحتُ وحيدة؟" رفعتْ رأسها من فوق الوسائد، ونظرتْ حولها، ثمَّ تكوّمتْ في سريرها بصمت. تجاهلها تماماً الأبناء وزوج الابنة الذين أصابهم الوجوم.

وفي تلك الأثناء، انتزع ماسيمو الورقة من يد جاني، وحدّق بها طويلاً، وبدأ صوته يعلو تدريجياً:

"أيّ ورقة هذه؟! أين الأموال؟! ولمَن تتركها؟! لقد تحمّلتُ إهانات تلك العاهرة لأنكِ، لأنكِ ....." كان يصرخ مشيراً بإصبعه نحو الزوجة، "كنتِ تقولين إنها كانت ستحترمنا عند موتها! غبية، لستِ إلّا غبية!"

أجهشت كارميلا بالبكاء، واتّجهت إلى سرير الأمّ تحتمي به، بينما كان جاني يحاول تهدئة صهره مذكّراً إيّاه بأنهما ليسا في بيتهما، وأن في الحجرة المجاورة مجموعة من الأشخاص في زيارة تعزية، كلّهم آذان صاغية لإشاعة ما يسمعونه منهم في البلدة كلّها.

جلست ليللا في أحد أركان الغرفة وحيدة، مستغرقة في قراءة الخطاب مرّة أخرى. ثمَّ تحدّثت بصوت منخفض محاوِلةً السيطرة على الغضب الذي

كان يجيش في صدرها، وكانت تشعر به يصعد إلى حَنْجَرَتها ويمتزج بكلماتها: "لقد نظّمتْ كلّ شيء، حدّدتْ أيضاً ساعة الجنازة، وطلبتْ من الطبيب ميندكو كتابة الخطاب لها. يبدو بوضوح أنه خطّ شخص آخر. خطاب خبيث، لا ترغب في حضور أيّ فرد من عائلتها للجنازة، ربّما قد قطعوا علاقتهم بها، ولن يدهش أيٌّ منّا لذلك، بينما على العكس، تريد، بل تأمر مرّة أخرى أن نتحمّل نحن نفقات الجنازة ونشر هذا النعي العبثي المخجل ركيك اللغة المليء بالأخطاء النَّحْوية وغير المعتاد بالنسبة إلى الخادمة، بل "شعّالة مطبخ" كما كانت تسمّي نفسها، وأين ننشره؟! على صفحات "جورنال دي سيشيليا"!، وهي التي لم تخرج من هذه البلدة، ولا يعرفها أحد خارج حدودها. لم تفكّر في نشره فقط في "سيشيليا" جريدة المقاطعة، تريد إعلان خبر موتها على صفحات الجريدة التي تُقرأ في الجزيرة كلّها.

مصابة بجنون العَظَمَة، نصّ إعلان الوفاة ليس إلّا تمجيداً لها، كلمات مديح عنها. لم أكن أتخيّلها مَهوُوسة بنفسها وعديمة الإحساس بالمسؤولية لهذه الدرجة. الإذلال الأخير الذي يجب أن نتحمّله. بل تسخر منّا؛ فعلى الرغم من إقرارها بأنه ليس هناك ما تتركه لنا، تخبرنا أن الاستمرار في إطاعة أوامرها، سيعود علينا بالنفع. يا لها من مهانة".

كان غضب ليللا قد بلغ مداه، لدرجة أنها لم تستطع أن تُنهيَ حديثها، وكان الباقون ينظرون إليها في ذهول.

وفي أثناء ذلك، وصل أشخاص آخرون لتقديم التعزية. كانت أصداء عبارات الرثاء المبالغ بها تتردّد في أرجاء الحجرة. وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت حادّ لامرأة كانت تبدو وكأنها تنادي على بضاعة في السوق:

"يا لها من قدّيسة! قضت حياتها في العمل والتضحية! خسارة في الموت!" وغشي صوتها كورال من عبارات غامضة، كانوا جميعاً يتحدّثون

عن مآثر المتوفّاة. عادت ليللا للحديث بكراهية: "تستحقّ أن نفتح الباب، لنُخبر الناس بكلّ صراحة ألّا يبكون تلك الخادمة التي تسخر منّا دون رحمة".

كان ماسيمو واقفاً ويداه تُطبقان على مسند المَقعَد وكأنه يسحقه بيده، وقال بصوت عالٍ كما لو كان يريد أن يُسمع كلّ مَن في البيت: "كانت تحاول فقط ودائماً إحراجنا، هذه الورقة تنضح بالبغض".

ثمَّ أضاف جاني بِحَنَق ملتفتاً إلى ليللا: "أنتِ تعيشين في روما، أمّا أنا، فأدرس في الجامعة، وأحمل لقب عائلة الفاليبي. نَشْرُ هذا النعي بالجريدة سيُسبّب لي ولآنّا حرجاً بالغاً، سيعتبرنا الناس أحمقَيْن وغير قادرَيْن على تصريف أمورنا، بل سيسخر منّا الجميع".

أخذت كارميلا تصرخ: على الأقلّ، أنتَ رحلتَ من هنا، أمّا أنا، فمَن سيعتني بي؟ أنا أعيش هنا في روكاكولومبا، ما الذي سيقوله الناس عنّي؟

كانوا يتحدّثون جميعاً بصوت واحد وهم يسيرون في الحجرة غاضبين متوتّرين مثل حيوانات مفترسة حُبسَت في أقفاص.

كانت السيّدة الفاليبي تتابعهم واهنة، وخائرة القوى كأنها طفلة، تتقلّب بين الوسائد فوق السرير الكبير، وقد امتلأت عيناها بالدموع، مندهشة وخائفة. كان يجب أن تتدخّل لمنع حدوث فضائح، وأدهشت نفسها والآخرين بالنبرة الحاسمة التي تحدّثت بها، فلم يكن يهمّها ترتيبات الجنازة ولم تكن لتهتمّ بها. كلّ ما كان يعنيها هو الأبناء ونصيبهم، وهم أنفسهم كان يجب أن يهتمّوا أكثر منها؛ فهي قد كبرت في السِّنِّ، واقترب وقت رحيلها عن الحياة، كانت تشعر بذلك في عظامها:

"شخصية صعبة وماكرة، نعم، ولكنها أمينة أيضاً وقد خدمتنا جميعاً. تستحقّ أن نقيم لها جنازة. صدّقوني ستمنحكم كلّ ما يخصّكم. ربمّا كان ذلك الخطاب يتعلّق فقط بترتيبات الجنازة. بالتأكيد ستكون هناك وصية.

ربمّا رتّبتِ الأمر، كي تتجنّب دفع ضرائب التركات، فلم تكن منو تحبّ دفع الضرائب. أرجوكم اهدؤوا، فهناك أشخاص في الخارج".

وانهمرت دموعها، وشعرت بالوهن بعد الحوار الطويل.

كارميلا أيضاً كانت قلقة بشأن الميراث، وكانت تتعلّق بأهداب الأمل: "ولكنْ، يجب أن نتذكّر أن منو كانت تحافظ دائماً على وعدها، وقد أخبرتني بذلك حتّى الليلة الماضية. يجب أن نفعل ما تقول، وسنحصل على الميراث. من الجائز أن هناك وصية لدى موثّق العقود أو لدى شخص آخر أو أنها قامت بإجراءات هبة أو فتحت بأسمائنا حسابات في البنك دون علمنا .. يجب البحث في أُدْرَاجِها، لم تكن لتثق بالطبيب ميندكو التائه. ما رأيكَ، يا ماسيمو؟؟"، كانت تبحث عن مؤازرة الزوج الذي أدار ظَهْره للجميع ووقف أمام الشرفة. لم يحرّك ماسيمو ساكناً. شحب وجه كارميلا، وارتمت من جديد تنتحب فوق سرير الأمّ. في تلك الأثناء، كانت سانتا تدقّ الباب بفضول وقلق. وكانت النسوة الأخريات قد سمعنَ الجلبة، وكنّ يتحرّقنَ شوقاً لمعرفة ما حَدَثَ.

سألت سانتا بحذر إذا كان من الممكن السماح بدخول بعض الأشخاص لتقديم واجب العزاء للسيّدة أدريانا. امتلأت الحجرة من جديد بالأشخاص، وانحلّ الاجتماع الأُسريّ. كان ماسيمو قد انسلّ دون أن يراه أحد، ولم يظهر حتّى بعد الظهيرة. لم يمتلئ بيت منولارا المتواضع من قبل بهذا الجمع الغفير كلّه، وقد استمرّت الزيارات حتّى ساعة الغداء. فضلاً عن أفراد طبقتها، حضر أيضاً أقارب وأصدقاء مقرّبون للسيّدة أدريانا، وكذلك عمّال قدامى في منزل الفاليبي. لم يظهر أحد من أفراد عائلة مينولارا، فقط زيارة خاطفة قام بها ديكو الإسكافي، أرمل إحدى بنات عمّ أينتسريللو، وكان نادراً ما يترك دكّانه.

2.ظهيرة يوم الوفاة، تتّخذ عائلة الفاليبي بعض القرارات الحاسمة، ويقضي الأخوة الفاليبي الليلة كلٌّ في شأنه، بدلاً من السهر في بيت المتوفّاة.

في بداية ما بعد الظهيرة، وخلال فترة توقّف قصير لزيارات التعزية غير المحتملة، اقترحت ليللا خطّة عمل:

"أوّلاً ينبغي الإعداد للجنازة، فالجثمان لا يمكن أن يظلّ لوقت طويل هنا، والجوّ لا يزال حارّاً. لنفعل ما قالتْهُ، أعتقد أنه مناسب، ثمَّ ندخل غرفتها ونبحث عن وصية أو أيّ وصايا أخرى مكتوبة. وسنتّصل في أسرع وقت بموثّق العقود فاتسانو، لنعثرَ على المحاسب أو المحاسب القانوني الذي كان يقوم بإقرار الذمّة المالية. يجب أن نفهم مَن لديه الوصية. أمّا بالنسبة إلى نشر النعي، فأنا غير موافقة على نشره بأيّ جريدة. في نهاية الأمر، لم تكن إلّا خادمة".

اعترضت السيّدة الفاليبي على حديث ليللا بشكل أدهش الأبناء، مستقوية بذِكْر المعزّين لمحاسن الراحلة. كانت تريد أن ينشر النعي على الأقلّ في البلدة، مكتوباً كما طلبت منو. تحدّثتْ طويلاً بصوت قوي: "بعد موت والدكم، كانت حياتي محتملة فقط بفضل منولارا؛ لكلٍّ منكم عائلته ويعيش في بيته، ولم يعرض أيٌّ منكم استضافتي أو الإقامة معي في منزل الفاليبي". توقّفت برهة ونظرت إلى جاني، الابن الذَّكَر، ابنها المفضّل، ثمَّ استطردتْ: "ومع ذلك وافقتُم جميعاً على أن أعيش بمفردي. في الليل تصكّ الرياح النوافذ، ويرتجف زجاجها، وأسمع آلاف الأصوات الأخرى. أحسّ بالخوف. وفي النهار، تصيبني الحجرات الخاوية والرَّدْهَات المهجورة لذلك المنزل بالكآبة، فضلاً عن برد الشتاء ونفقات الصيانة. لم تفكّروا فيَّ، فكّرتُم فقط فيما سيقوله الناس، بينما أحتاج إلى صحبة. اقتراح منو أن أبيت وأتناول الطعام لديها كان الاقتراح الأفضل. كنتُ في النهار حُرَّة في

الذهاب إلى بيتي وقتما أشاء، أستقبل الناس في البيت في الغرف التي حافظتْ منو دائماً على نظافتها وترتيبها. لم تتركني أبداً سواء هنا أو في منزل الفاليبي. كانت تعلم أنني كنتُ سأموت رعباً. لقد اعتنتْ بي منو كثيراً، لذا فهي تستحقّ بالفعل الجنازة والنعي".

اضطرّ الأبناء إلى الإذعان لطلب الأمّ، وقد فوجِئوا بالنبرة الحاسمة في حديثها وباللوم الخفي تجاههم.

في النهاية، توصّلوا إلى حلٍّ يرضي الجميع: أن يتمّ نشر النعي، ولكنْ، فقط في شوارع البلدة، وأن تُعاد كتابة النصّ. وقد أُصيبوا بالدهشة، لأن ماسيمو، الذي أخبرتْهُ كارميلا بذلك بالتليفون، عرض أن يتولّى ذلك الأمر، فشكره الجميع.

مرّت بقية اليوم بسرعة. وجدت السيّدة الفاليبي الأسية والسلوان في الزيارات والمكالمات الهاتفية الودودة للصديقات. كانت لا تملّ من تكرار سرد تفاصيل مرض منو؛ آلام الاحتضار والجزع الذي سبّبه رحيلها المفاجئ، بل كان ذلك يُشعرِها بالراحة من الأسى على نفسها، والذي كان له ما يبرّره هذه المرّة.

أرادت أن يبقى جاني بجانبها، وبذلك يترك للبنتَيْن الوقت لإنجاز العديد من الأشياء، ومن بينها التجهيز لعودة الأمّ إلى بيت الفاليبي، والذي كان من الأمور التي لا مناص منها، على الأقلّ لفترة مؤقّتة.

انشغل جاني وكارميلا، اللذان يعرفان الناس في تلك البلدة أفضل من البقية، بالمكالمات وزيارات العزاء العديدة والمتلاحقة في منزل منو الصغير. كانت ليللا قد تركت روكاكولومبا عند زواجها، واحتفظت بعلاقات محدودة بالبلدة، لذا تولّت الإشراف على سانتا وتوجيهها فيما يتعلّق بتنظيف بيت الفاليبي وإعداده، والبحث عن الوصية. وكان موثّق العقود

فاتسانو، الذي اتّصلت به بالفعل لتسأله، أقرّ ببعض الحرج، بعدم وجود أيّ وصية، واقترح عليها أن تبحث جيّداً في أُدرَاج منو.

كانت ليللا قد بحثت في الأُدرَاج وفي الدولاب عندما كانت وحدَها، بعد انفضاض الزائرين من حولها، إلّا أنها لم تجد أشياء ذات أهمّيّة. وجدت بعض صور أولاد شقيقتها، فواتيرَ وإيصالات، دفتراً صغيراً مملوءاً بالأرقام وعمليات الجمع، قائمة مشتريات، ملاحظات، وحتّى مسوّدات نعي. قرّرت ليللا أن تقوم ببحث منظّم أكثر في بيت الفاليبي.

وفي بعد الظهيرة، رجعت ليللا إلى قصر العائلة، وقد شعرت بالتأثّر وهي تفتح البوّابة الكبيرة بالمفتاح الحديدي الغليظ، وتدخل وحيدة إلى البيت الذي عاشت فيه وهي لا تزال فتاة صغيرة، مع والدَيْها وجَدَّتها. تحرّكت نحو غرف الخَدَم عابرة أماكن لم ترها منذ أعوام طويلة: الحجرة التي كانت الخادمات يقمنَ فيها بكيِّ الملابس، الغرفة الملحقة بالمطبخ، والمطبخ الكبير الذي لم يتمّ تحديثه أبداً. ثمَّ ارتقت السُّلَّم الخشبي الضيّق المؤدّي إلى حجرات الخَدَم في الطابق الأوسط، الذي لطالما سكنه العديد من الخَدَم، والذي كانت منو تنام فيه لسنوات عديدة. على الرغم من وجود الغبار والأتربة في كلّ مكان، فقد كان من الواضح أن الغرف كانت تُنظَّف وتُرتَّب بشكل منتظم، فبدا البيت وكأنه كان مغلقاً فقط لفترة الإجازة الصيفية. كانت الأسِرَّة مغطّاة بأغطية رقيقة قديمة، ولكنها نظيفة، وكانت أغراض الغرفة وبقية المفروشات محفوظة داخل الدواليب، كي لا تتّسخ بالغبار. أمّا الحمّامات والأحواض، فكانت نظيفة لم تُستخدَم. لم تجد شيئاً ممّا كانت تبحث عنه، فقط قوائم لمحتويات الخزانات، كُتبت بأحرف كبيرة بخطّ منو المرتعش.

عندما حلّ المساء، تنبّهت ليللا للأصوات في البيت؛ صرير واصطدام الأبواب، حفيف الأشجار التي تصفعها الرياح في الحديقة الداخلية، رفرفة أجنحة الطيور التي بنت أعشاشها تحت إفريز المبنى، وللمرّة الأولى شاركت

الأمّ مخاوفها، بل وشعرت بالارتياح لفكرة قضاء الليل في بيت الخادمة.

كان جاني الفاليبي رجلاً هادئ الطباع وقد هزّتْهُ أحداث الأيّام السابقة. كان يعيش حياة هادئة ومنتظمة في كاتنيا مع زوجته الشابّة التي يحبّها جدّاً، والتي تُدرِّس أيضاً في الجامعة، وقد أخبرتْهُ منو بحقيقة مرضها في بداية الشهر معطية انطباعاً بأنها لن تموت بهذه السرعة: "لا تظنّوا أني سأكفّ عن إزعاجكم حيّة أو ميتة". وبمحض المصادفة كانت ليللا قد حضرت إلى كاتنيا يوم السبت الماضي لإنجاز بعض الأعمال، وإلّا لكانت ستأتي لزيارة الأمّ المعتادة في نهاية الشهر مستقلّة طائرة الصباح الباكر من روما، لتعود بآخر رحلة عودة في اليوم نفسه. وكانت كارميلا قد أخبرتْهما في الليلة الماضية عن تدهور صحّة منو، وطلبت منهما الحضور فوراً.

قرّرت الأختان، بناءً على اقتراح كارميلا، ألّا يسهرا بجانب المتوفّاة كما جرت العادة، وأن يقتصر الأمر على قضاء ليللا وحدها ليلة أخيرة في ذلك المنزل مع الأمّ التي رفضت أن تترك الجثمان وحيداً. أمّا جاني، فكان سيعود في اليوم التالي مع زوجته في موعد الجنازة، ثمَّ يعيدون فتح بيت الفاليبي، لتعيش فيه الأمّ بكلّ ارتياح من جانبهم، وقلق كبير من جانب صاحبة الشأن. وهكذا ينتهي بالنسبة إليهم ذلك الوضع الشائن لإقامة الأمّ مع الخادمة.

عندما رحل جاني عن روكاكولومبا وتركها خلف ظَهْره، استطاع إعادة تقييم الوضع. كانت منو جزءاً من حياته حتّى فترة المراهقة، خادمة ومربّية مخلصة وحنونة، ثمَّ مديرة منزل وأملاك العائلة. مع الوقت قست مشاعرها، إلّا أنها ظلّت شخصاً لا غنى عنه لعائلة الفاليبي، كانت تشجّعه على الدراسة، وتحذّره بكلام غير مفهوم من مغريات العالم الحديث، وتذكّره بأهمّيّة وضعهم الاجتماعي، مشدّدة على أنه يجب أن يُعليَ من اسم عائلته. وفي النهاية كان سعيداً بالتخلّص من هذا الضغط العائلي

والذهاب إلى المدرسة الثانوية الداخلية بكاتنيا. ومنذ تلك اللحظة انفصل جاني عاطفياً عن العائلة كلّها بمَن فيها والداه: كان يحتقر رثاء أمّه الدائم لحالها وثقافتها المحدودة، وقد قهرتْه دائماً بالتصاقها الأناني القلق به، أمّا والده، فقد رسّخ بينهما سوء فَهْم متبادَل.

وبعد موت الأب لم يتردّد جاني في سحب إدارة أملاكه التي ورثها عن أبيه من منو. وقد حذت الأختان حذوه، وبذلك قضوا على أساس سلطتها داخل العائلة. لم تنجح منو في استعادة تلك السلطة حتّى بعد القرار المهين للأمّ بالإقامة في بيت الخادمة، لكنها فيما بعد نجحت في ذلك جزئيا وعن طريق حيلة مكلفة؛ فلكي تُجبر الأبناء على زيارة الأمّ، قرّرت تخصيص مبلغ شهري لهم، يُدفَع في نهاية الشهر شريطة أن يحضروا بأنفسهم إلى روكاكولومبا لاستلامه.

وفي المرّات التي لم يمتثلوا فيها لذلك الشرط، تحتّم عليهم التنازل عن المبلغ، لكن ذلك نادراً ما حَدَثَ، فلم يكن مبلغاً بسيطاً، وكان الحصول عليه مريحاً للجميع.

طوى جاني بموت منو صفحة من حياته. يمكنه الآن التركيز على مستقبله الأكاديمي والأسرة التي ينشد تكوينها مع زوجته. بقي لغز ثراء منو الواسع وصعوبة الحصول على تلك الأموال، فضلاً عن مشكلة رعاية والدتهم، إلّا أنه كان يأمل في إيجاد حلول لهذا كلّه مع الوقت.

كان لجاني قدرة هائلة، مثل أبيه، على التخلّص من كلّ ما يضايقه: وبمجرّد أن عبرت السيّارة مفرق طُرُق روكاكولومبا وبدأت في الهبوط نحو الوادي في انحدار بطيء مستمرّ، عابرة غابات البلّوط الكثيفة من إقطاعيات أمراء برولي الذي أدار أجداده أملاكهم لأجيال متتابعة، بدأ يستشعر متعه رؤية زوجته، وقد نسي البلدة وسكّانها. إلّا أنه في تلك الليلة أصابتْهُ حرقة في المعدة، ولم ينم جيّداً.

3.ماسيمو ليوني يحتفل بموت منولارا بتهوّر وعلى طريقته

انشغل ماسيمو في الظهيرة بتجهيز الجنازة. وأعدّ النعي كما اتّفق مع العائلة. ودّ كتابته بعبارات أكثر إيجازاً، بيد أنه فكّر في إرضاء الحماة الممثّلة المسرحية القديرة، في رأيه، القادرة على افتعال نوبة هيسترية أو التظاهر بالمرض لتحصل على ما تريد.

جُهِّزت الجنازة بشكل بسيط يتناسب مع الوضع الاجتماعي للراحلة، وقد شعر ماسيمو بالامتنان والرضا من كلمات الثناء والعرفان من جانب أشقّاء زوجته، خاصّة وأن مزيجاً من الشعور بالحرج والخجل كان لم يزل يجثو فوق صدره بعد إساءة منو معاملته أمام الجميع.

في المساء تناول العشاء مع زوجته وحدهما. كان ماسيمو ليوني يزدرد لقمات كبيرة من الخبز وأوراق الكوسا الغضّة، بينما كانت كارميللا تحكي له عن الزيارات التي استقبلوها في ذلك اليوم، عندما قطعت حديثها فجأة متسائلة:

"يا ترى ماذا سيحدُث يوم 25؟"

توقّف ماسيمو عن المضغ، وسأل وفمه مملوء بالطعام:

- "لقد فكّرتُ في الأمر هذا الصباح. هل تعلمين من أين تأتي النقود؟"

أجابت كارميلا بتلعثم: " كانت تصل بالبريد. أظنّ ذلك".

حثّها ماسيمو بغلاظة على الحديث: "وكيف عرفتِ؟"

- "كانت تقول دائماً إن عليها الذهاب إلى مكتب البريد يوم 25، لأن سان باجنينو(*) سيرسل إليها النقود".

---

*) سان باجنينو: قدّيس العمّال.

أنهى ماسيمو الحديث: "إذاً، ستصل النقود كالمعتاد".

سألتْهُ كارميلا: "ومَن سيذهب لاستلامها؟"، بينما تكدّرت عيناها الزرقاوان أمام فكرة أن هذا الدَّور الجديد ربمّا يقع على عاتقها.

ردّ ماسيمو: "اسمعي، اليوم كان مشحوناً، سنفكّر في ذلك الأمر غداً".

أدرك كلٌّ منهما أنه يمسك بشوكة الطعام مغروسة في المائدة. نظرا إلى صحنَي الطعام أمامهما، وانتهيا من تناوُل العشاء بسرعة.

بعد العشاء ذهب ماسيمو لِلَّحاق بأصدقائه في البار في الميدان. تنفّست كارميلا براحة، وعندما بقيت وحيدة، بدأت بإجراء مكالمات تليفونية طويلة مع صديقاتها اللاتي كانت تتحدّث إليهنّ يومياً، كي تعلن خبر موت منولارا للقليلات اللائي لم يسمعنَ به. وأوصت الجميع بعدم حضور الجنازة التي ستقتصر على عدد محدود جدّاً من المقرّبين، وستتمّ في موعد غير مألوف بالنسبة إلى الجنازات؛ لذا فالحضور يعني التنازل عن راحة القيلولة، وفي النهاية، الأمر يتعلّق بجنازة خادمة. حتّى في هذه المناسبة لم تنجح في إخفاء تذمّرها من منو، وكانت تُنهي كلّ مكالمة بنبرة خبيثة: "في الحقيقة يجب عدم الحديث بسوء عن الأموات، إلّا أنها كانت صعبة الطباع؛ وكان يلزم صبر الملائكة لتحمّلها .. ماسيمو، قدّيس عانى منها الأمرَّيْن، ومع ذلك ساعدنا اليوم كثيراً". أخفت كارميلا أن العائلة ستعلّق النعي بشوارع المدينة، لأنها كانت تشعر بالخجل من ذلك.

في أثناء سيره نحو الميدان، انتابت ماسيمو أفكار القلق والخوف المعتادة. ففي حين كان يتطلّع وقت الظهيرة لرؤية أصدقائه والحديث معهم، يشعر الآن وعلى النقيض من هذا، بالخوف من المستقبل. فقد ضاع الدَّخْل المستقرّ، الذي على الرغم من خفضه إلى النصف، إلّا أنه كان يجنّبه أذى الدائنين بعد إفلاس نشاطه التجاري.

أعاد التفكير في حديث كارميلا، وهي ليست بلهاء على أيّ حال. كان قد قبل أن تقنعه زوجته وأشقاؤها بأن الوصية ستؤول إلى وَرَثَة الفاليبي. الآن ومضت في ذهنه خاطرة: إن لم تترك الخادمة أيّ وصية، فستؤول الثروة إلى أبناء شقيقتها. رأى الأمر بوضوح الآن. لهذا لم ترغب في حضور أبناء شقيقتها الجنازة، كانت آخر سخريتها من عائلة الفاليبي: "كوّنتُ ثروة من أموالكم، الآن سأجعلكم تتحمّلون تكاليف الجنازة، ثمَّ أترك ميراثي كلّه لوَرَثَتي الشرعيِّيْن". ربمّا فكّرت تلك بهذا الخبث كلّه. أمام مجرّد فكرة أن تسير الأمور على هذا النحو، شعر ماسيمو بقواه تخور، وببرودة ورجفة تسريان في ساقَيْه. كان على وشك العودة إلى المنزل لو لم يخبط أحدهم على كتفه قائلاً:

"أنتَ رجل قوي، يا ماسيمو. بعد يوم شاقّ في بيت الفاليبي، لم تتنازل عن الخروج مع أصدقائكَ!" وأمام ذلك تشجّع ماسيمو وواصل السير مع صديقه نحو الحانة، وهناك أسرف في الشرب، وجمع حوله أصدقاءه، حيث تحدّث معهم الوقت كلّه تقريباً عن منولارا: منذ سنوات عديدة كان يتمنّى موتها، أهانتْهُ كثيراً، كانت لصّة اشترت بيتاً - ومَن يدري أيّ أملاك أخرى - بالنقود التي سرقتْها من زوجته وأشقّائها. كان ماسيمو يردّد ذلك على سمع كل مَن ينضمّ إلى الجلسة، بل كان يكرّر الحديث بقلق، بحثاً عن مؤيّد لكلامه: "تلك المرأة ارتكبت الكثير من الأفعال الشائنة التي تستحقّ معها الموت مقتولة، ربمّا كنتُ سأقتلها أنا بيدي. وفي النهاية لم يعد هناك داع، فَسُمُّها تصاعد من حشاها، وخنقها".

زالت عن ماسيمو الهواجس التي هاجمته في أثناء الطريق إلى الحانة بعد أن شعر بالارتياح من أثر الشراب، فسرى في نفسه من جديد الأمل في الميراث، وشجّعه مرح الأصدقاء الخبيث، وشعر بمذاق الثراء الذي سيعود أخيراً إلى عائلة الفاليبي، ولم يخشَ إظهار سعادته. وفي لقاء يسوده المرح، اختتم حديثه بأنه كان قد أقسم ألّا يبلغ الأربعين وتلك البائسة تكدّر

صفو حياته، وفي العام القادم تتحقّق النبوءة، وسيحتفل بعيد ميلاده في مدينة تاورمينا، والأصدقاء كلّهم مَدعوُّون لحضور الحفل، حفل للرجال فقط طبعاً.

في الهزيع الأخير من الليل، راود ماسيمو في طريق عودته إلى المنزل مترنّحاً ثمَلاً إحساس بأنه تحدّث أكثر ممّا ينبغي، وعادت الهواجس تهاجمه. في نهاية الأمر، كانت منولارا، على الرغم من قسوتها، عادلة إلى حدّ ما، وعلى الرغم من بغضها له، إلّا أنها لم تعامل كارميلا بشكل مختلف عن إخوتها كما كان يخشى. في الحقيقة بدأت منولارا، منذ شهر يناير في تلك السنة، الدفع لكارميلا عن طريق تسديد الديون مباشرة إلى أصحاب المحالّ، ثمَّ إعطائها ما تبقّى بعد ذلك.

كانت أخته تريد أن تعرف إن كانت شكوك منولارا صحيحة؟ وهل ضرب كارميلا فعلاً؟

أنكر ماسيمو التهمة بغلاظة، مؤكّداً أنه في الأحوال كلّها من واجب الزوج تأديب زوجته وفرض احترامها له، حتّى وإن لجأ عند الضرورة إلى استخدام يدَيْه. وهذا ليس شأنه مع كارميلا، لأنه يعرف جيّداً كيف يتعامل معها، أمّا منولارا، فليست سوى شخصية كريهة وكاذبة تريد أن تدمّر سعادته الزوجية.

بعد هذا الحديث، أصبح ماسيمو يتجنّب البقاء وحده مع شقيقته الكبرى، والتي كان يحبّها منذ صغره، لأنها كانت تساعده دائماً وتحميه من عصا أبيه.

ولكنه كان يعي جيّداً سبب شكوك منولارا. ففي أثناء مشاجرة مع كارميلا، ليلة عيد الميلاد، بعد أن كان ربمّا قد أسرف في الشراب، وجّه لكمة إلى صدر كارميلا، انتهت فوق رقبتها، وتركت بقعة زرقاء كبيرة. حاولت كارميلا أن تُخفيَها بوشاح جميل من الحرير، كان قد أهداها إيّاه لتسامحه، إلّا أن تلك الشمطاء منولارا ترى كلّ شيء، فانتبهت إلى أثر اللكمة.

ومنذ ذلك الحين تعلّم ماسيمو أن يضرب زوجته ضرباً لا يترك أثراً ظاهراً، وفي مناطق خافية عن الأعين من جسدها، وكان يعتصر حَلَمَتي ثدييْها بقسوة، كأنه يطفِئ أعقاب سجائر.

عند عودته إلى البيت ثمَلاً، كانت تتملّكه رغبة عارمة في الانتقام من كارميلا، وينهش الغضب جسده، ويعذّبه الإحساس بالدُّونِيَّة، فكان، بدلاً من ضربها، يضاجعها بعنف يخترقها إلى الأحشاء. وبعد تفريغ كلّ ما يموج داخله من ضغينة وحقد تجاه العالم بأسره، كان يحسّ بالراحة، فيستلقي راضياً خائر القوى بجانب زوجته المُنهَكَة.

غدت تلك الطريقة في حقيقة الأمر ممتعة لكلَيْهما. كانت كارميلا تفسّرها بتجدّد العشق والشغف، وتعتبرها دليلاً على الحبّ، برغم الألم الجسدي الشديد، وهذا ما فعلاه في تلك الليلة.

4. في بيت الطبيب ميندكو تبادل أطراف الحديث بين الأخ وشقيقته يوم موت منولارا

كان الطبيب ميندكو يستضيف شقيقته كونشيتا، أرملة دي بريما، في بيت العائلة منذ عدّة أعوام. وقد بقيا أرملَيْن وحيدَيْن منذ عودة كونشيتا إلى روكاكولومبا. وكان أولادهما يعيشون في مُدُن أخرى، بل خارج صقلية.

كانت شقيقته تردّد دائماً: "هذا جزاء الأمّهات اللاتي يعلّمنَ أبناءهنّ ويربّينهنّ جيّداً، كي ينجحوا في حيواتهم، فيرحلوا ونبقى نحن شيخَيْن وحيدَيْن تعيسَيْن".

في الحقيقة كان الأخوان يعيشان في سعادة. بل إنهما استعادا عادة قديمة من عادات الطفولة، فكانا يعزفان البيانو معاً كلّ ليلة. يزوران الأبناء والأحفاد ثلاث مرّات في العام، ويواظبان على المشاركة في الأحداث

الاجتماعية للبلدة، على الرغم من تخطّي كلَيْهما السبعين. كانت السيّدة دي بريما قد وطّدت عُرى صداقات قديمة بالبلدة، والدكتور ميندكو لم يعد يعمل بشكل كامل، فكان يقوم بالزيارات المنزلية وقت الظهيرة ويستقبل المرضى في أيّام غير متعاقبة، ولنصف يوم فقط في العيادة الكائنة في البيت الذي يعيشان فيه، كما فعل من قبل أبوه وجَدُّه. كان كلٌّ منهما يستمدّ السعادة من تلك العلاقة الإنسانية، ليس فقط بين الطبيب والمريض، وإنما بين الطبيب والعائلة كلّها، والتي كانت سرعان ما تتحوّل في بلدة صغيرة مثل روكاكولومبا إلى صداقة حميمية. لذلك استمرّ الطبيب ميندكو في علاج مجموعة من المرضى الأوفياء له، ممّا أثار حسد الجيل الجديد من أطبّاء روكاكولومبا. وعند انشغال الطبيب كانت شقيقته تقوم بتقديم النصيحة، وفي بعض الأحيان العلاج، للمرضى الذين يتقبّلونه بكلّ رضا، فضلاً عن الأمّهات الشابّات اللاتي كنّ يفضّلنَ استشارتها عند مرض الصغار بالإنفلونزا أو نزلات البرد.

كان الطبيب ميندكو يحكي لأخته ما حَدَثَ في منزل منولارا، في أثناء جلستهما في البلكون في دفء الخريف لتناوُل فاتح الشهية. "خلال خمسين عاماً من ممارسة المهنة لم يحدُث أن بقيت وحيداً مع مريضة تحتضر كما حَدَثَ في تلك المرّة. لم يشعر أحد من عائلة الفاليبي حتّى السيّدة أدريانا بواجب البقاء بجوار تلك المسكينة للتخفيف عنها وهي تتعذّب، ولو من باب اللياقة. اسمعي هذه: بعد إعلاني لوفاتها لم يذرف أيّ منهم ما عدا السيّدة وسانتا دمعة، أمّا الأبناء، فلم يسألوا كيف ماتت؟ هل تعذّبت؟ هل يمكن رؤيتها؟ أتفهمين؟ لم يسألوا عن أيّ شيء من هذا. كما لو كانت كلباً قد قضى نحبه. وكان جاني أوّل مَن حدّثني، أو تدرين ماذا سألني؟ سأل إن كانت منولارا قد تركت معي شيئاً، خطاباً أو وصية."

تلوّن وجه الطبيب، واكتست وجنتاه باللون القِرْمِزِيّ: "عندما يطفح

الكيل يفيض .. لم أنظر إليه، وسألتُ هؤلاء المحترمين كلّهم: ولكنْ، ألَا تودّون رؤية منو أم لا؟"

توقّف عن الكلام. شرب جرعة من الكأس، ونظر حوله، وتسمّرت عيناه فوق أُصص الفخّار المملوءة بزهور جرانيوم، تعتني بها أخته بالحبّ كلّه، وكانت زهوراً في غاية الجمال ذات الألوان الأحمر والبنفسجي، زهور تزدهر يانعة بين الأوراق الممتلئة والمستديرة مثل المراوح اليدوية. ثمَّ استطرد قائلاً: "فقط سانتا التي كان يبدو أنها كانت تنتظر قولي، دخلتْ فوراً إلى الحجرة التي ترقد بها منولارا، تبعها بقية أفراد العائلة واجمين. لم يبدُ عليهم أيّ تأثّر، ظلّوا واقفين أمام الجثمان مثل الحمقى، كان يبدو عليهم التحرّج أو الضيق". قطع الطبيب حديثه وقد خجل من حكمه القاسي، وربمّا المتسرّع، والذي يخلو بالتأكيد من أيّ شفقة نحوهم: "يمكن التعبير عن الألم بطُرُق عديدة، ربمّا كانوا متحفّظين أو خجلى من وجوده".

كان طبيباً لعائلة الفاليبي لما يزيد عن أربعين عاماً، ولكنه الآن فقد العلاقة الحميمة مع الأبناء: ليللا وجاني يعيشان بعيداً منذ فترة طويلة، وكارميلا بعد زواجها اختارت طبيباً آخر.

أردف بصوت عالٍ: "ربمّا أنا قاس عليهم، ولكني كنتُ أحبّ منولارا". وانتهى من شرب كأس السينار(*).

وفي ظهيرة يوم الاثنَيْن، لم يستقبل الطبيب ميندكو أيّ مرضى. كان يشعر بالإرهاق، ففي الأيّام الأخيرة كان يذهب إلى منولارا في الصباح والظهيرة. استيقظ، مستعيداً نشاطه بعد راحة القيلولة، وكان يستمع إلى الموسيقى من الإذاعة.

أمسك بفتور بكتاب كان قد بدأ في قراءته بشغف منذ فترة، ولكنه لم يستطع التركيز، شعر أنه لم يعد يهمّه. أغلق جفنَيْه، وفي دفء الفراش

*) السينار: مشروب كحولي من أوراق الخرشوف. (المترجم).

المبلّل بالعَرَق وثب إلى ذاكرته اللقاء الأوّل مع منولارا، اللقاء الذي نسيه ودفنه في ذاكرته منذ نصف قرن.

كان لم يزل طبيباً شابّاً حديث التخرّج، وقد توفيّ والده مبكّراً، وتحمّل مسؤولية الاستمرار في المهنة التي تتوارثها العائلة والإنفاق على أمّه وأخته. كانت مهنة الطبّ تُعجبه، وكان مفعماً بطاقة الشباب. أحبّه ورحّب به علية القوم في البلدة ومرضى أبيه الكثيرون. أدرك أن العائلات الثرية، على أيّ حال، كانت تطلبه لعلاج أمراض طفيفة أو لعلاج الخَدَم، شعر أنهم يدرّبونه بعلاج أولئك المساكين. لم يستأ لذلك الأمر، كانت محاولة علاج الأمراض الناشئة عن سوء التغذية أو القذارة بالنسبة إليه نوعاً من التحدّي، وكذلك كانت العناية بحساب جرعات العلاج التي يمكن أن يهديَها إلى المرضى أو يستطيعون شراءها، وهكذا تعلّم سريعاً وجيّداً مهنة الطبّ، والجراحة أيضاً في حالة الطوارئ.

كانت عائلة ميناكابيللي، وهي إحدى العائلات الثرية والمحترمة في المقاطعة، قد أولتْهُ اهتمامها وعنايتها. وذات يوم طلبت منه السيّدة كارميلا ميناكابيللي أن يقوم بالكشف على الخادمة المفضّلة لابنتها ليللا. كانت المسكينة قد تركت الخدمة لتتزوّج، ومنذ ذلك الحين أُصيبت بأنواع الأمراض كلّها.

اصطحبتْهُ حارسة الباب مستاءة، إلى عائلة أينتسريللو، وبعد أن أرشدتْهُ إلى الباب اختفت. كان لويجي أينتسريللو جالساً خارج الباب يسعل، ظنّ الطبيب أنه المريض، إلّا أنهم أخبروه أن المريضة هي زوجته، وأن حالتها أسوأ من حالته، وكانوا مُحقِّين. اصطحبتْهُ الابنة أدولارتينا داخل المنزل. كانت عائلة أينتسريللو تعيش في إصطبل لعائلة ميناكابيللي، يبعد قليلاً عن منزلهم، ومتاخم للإصطبل الذي يستخدمونه.

كان المكان معتماً، سيّئ الإضاءة والتهوية، رطباً تنتشر فيه رائحة

الإصطبلات الكريهة، حيث تربّى الماعز والخيول. لم يكن قذراً، ولم يكن نظيفاً أيضاً.

شخّص الطبيب ميندكو المرض سريعاً: نوروتسا مصابة بالالتهاب الرئوي، ويجب أن تُجرى لها عملية فَصْد نظراً لعدم وجود علاج آخر للحمّى. وبسرعة قبل حلول الظلام رجع إلى المنزل وعاد بالجهاز اللازم، وأمام نظرة الزوج القلقة والابنة الفزعة، وفي الضوء المرتعش للشمعة، وضع الديدان الماصّة للدماء فوق كتفَيْها. وبيد مدرّبة كان ينزع الديدان الشبعة، ويضعها في الأنابيب الزجاجية، ليستبدل بها الأخرى الجائعة. عملية مقزّزة، ولكنها مفيدة وفعّالة.

انتابه بعض الشعور بالضيق، وإحساس بأنه مُراقَب. نظر بطرف عينه إلى المسكينَيْن الواقفَيْن بجانبه، ولم تكن النظرات الخائفة القلقة سبب ذلك الإحساس الغريب المضطرب. أعاد وَضْع الديدان الماصّة في الأنابيب، وأغلق الحقيبة. بعد أن طمأن المريضة، سمع صوتاً خفيفاً صادراً من الحائط في نهاية المنزل، وفي ظلّ الشمعة المتماوج، لمح عينَيْن كبيرتَيْن سوداوَيْن تحدّقان فيه. رفع لويجي أينتسريللو الشمعة، ورأى الطبيب وجه طفلة محاطاً بخُصلات شَعْر كثيفة سوداء يبزغ من حوض العلف في نهاية الإصطبل. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، وقالت له الطفلة بصوت واضح رنّان وبنبرة واثقة دون خجل: "حسناً فعلتَ".

ثمَّ بوثبة سريعة غاص الرأس الصغير في تجويف الحائط، واختفت الطفلة. قال لويجي أينتسريللو: "ماما الآن أفضل، فلتنامي". ثمَّ التفت إلى الطبيب موضحاً: "إنها ابنتي الأخرى روزاليا، لم تبلغ بعد أربعة أعوام. أرجو أن تسامحها، فهي لم تكن تقصد إساءة الأدب معكَ". كان هذا أوّل لقاء له مع منولارا، وأوّل مرّة تُثير فيها دهشته.

ومنذ ذلك الحين، كان الطبيب ميندكو يزور عائلة أينتسريللو كثيراً،

ويعاين ابنتهم الكبرى، فضلاً عن أمراض لويجي ونوروتسا كان الثلاثة يعانون من مرض السِّلِّ، وقد ظلّت الصغيرة سليمة بأعجوبة، وبفضل تدريبه أصبحت ممرّضة مدرّبة يَقِظَة، وتعلّمت تحضير الأدوية العشبية التي كان يصفها بديلاً عن الأدوية باهظة الثمن، فقد علّمها كيفية تحضيرها وطريقة تناوُلها.

ضرب الطبيبُ الوسادةَ بيده، وعاد إلى النوم مرّة أخرى.

في تلك الظهيرة، لم تحظ السيدة دي بريما بنوم القيلولة وتلقت العديد من المكالمات؛ فقد علمت صديقاتها بموت منولارا المفاجِئ، وكان الفضول الشديد يدفعهنّ لمعرفة التفاصيل. وحيث إنها لم تستطع الإجابة عن أسئلتهنّ كلّهم، استغلّت فرصة تناوُل العشاء مع أخيها لمعاودة الحديث عن هذا الموضوع.

-"هل كانت الوصية معكَ، هل أعطيتَها لجاني؟"

- "كان معي خطاب له، أعطيتُهُ لجاني كما أرادت".

-"وهل قرأتَهُ؟"

- "كان يجب أن أقرأه".

-"لماذا؟"

- "كان ينقصه شيء ما".

- "وما هو ذلك الشيء؟"

- "الأمر لا يعنيكِ، يا فضولية".

كان الطبيب وشقيقته يتسلّيان بمشاغبة كلٍّ منهما للآخر كما كانا يفعلان في طفولتهما.

-"هل كانت وصية؟"

-"لا يبدو لي ذلك".

-"ولكنْ، أيّ ثروة قد تمتلكها مثل هذه الخادمة؟"

-"وماذا يعنيكِ من هذا الأمر؟ لقد أصبحتِ أسوأ من النساء النمَّامات في البلدة!"

-"إن كانت لديها ثروة، فهي بالتأكيد من أموال موهوبة من عائلة الفاليبي، أو ربمّا مسروقة. أجزم أن مرتّبها لم يكن ليسمح لها بشراء الشُّقَّة التي كانت تعيش فيها!".

قال الطبيب بنبرة الأخ الأكبر: "من الصعب الشرح، لكنْ، يجب أن تعرفي وتتذكّري أن الفاليبي قد حصّلوا ثروتهم كلّها، لأنها وُهبت لهم، أمّا كلّ ما كسبتْهُ منولارا، فهو من كَدِّها، وقد كسبتْهُ بالعَرَق والدم".

"وكيف عرفتَ بذلك؟"

ردّ الطبيب آملاً في إنهاء الحديث:

"تذكّري أن منولارا كانت مريضة عنيدة، إلّا أنها كانت إنسانة أمينة. غداً سنذهب معاً لحضور جنازتها، إن أردتِ".

وهكذا نجح في إنهاء الحديث هذه المرّة.

5. ليلة وفاة منولارا يتحدّثون عنها في فناء بوّابة قصرتشيفيليا

عمل دون باولينو أنونسيتا لفترة قصيرة كسائق عربة خيول، ثمَّ سائقاً في خدمة عائلة الفاليبي لمدّة ثلاثة أجيال متعاقبة. وكان يمكنه أن يبقى للجيل الرابع لو لم يتمّ الاستغناء عنه عند تدهور الأحوال المالية للأسرة، بعد وفاة السيّدة ليللا.

وقد رضي بالخروج من الخدمة بعد الحصول على مكافأة بسيطة واتّفاق بأن يسمحوا له بالإقامة في سَكَنِ السائق، في حجرات القبو في منزل الفاليبي بجوار مَرأب السيّارات، حيث ربّى، مع زوجته دونا ميما، أولاده ذوي الأخلاق الحسنة، الذين شقّوا طريقهم في الحياة بنجاح. فكان، على أيّ حال، يعيش شيخوخة سعيدة، لا يعكّرها سوى ألم الروماتيزم في ساقَيْه وقلّة المال، فالحديث عن الراتب كان غير وارد، حيث إن أفراد عائلة الفاليبي المقتّرين على عمّالهم، الأسخياء مع أنفسهم، لم يشاؤوا، كتقليد عائلي، أن "يسجّلوه بالتأمينات" على الرغم من أن القانون كان يعطيه هذا الحقّ.

كلّ ظهيرة، كان يصعد السلالم التي تقوده إلى الميدان بصعوبة شديدة، ليصل إلى قصر تشيفيليا، حيث كانت شقيقة زوجته، دونا إنزا وزوجها دون فيتو ميليتيللو، يعملان في حراسة البوّابة. كان يقضي معهما ساعات طويلة في الثرثرة وملاحظة المارّة، ويساعدهما في الانتباه على البوّابة عند انشغالهما في أعمال أخرى.

وفي أغلب الأحيان، كانت زوجته في الظهيرة، وبعد الانتهاء من أعمال المنزل، تلحق به حاملة معها الطعام الذي قامت بطَهْوه، فيأكلون جميعاً في البيت الواسع المخصّص لحارس البوّابة. وفي الصيف، كانوا يتناولون الطعام في الفناء المخصّص للمخازن، والذي لم تعد تستخدمه العائلة أصحاب المنزل، وأصبح جزءاً من البوّابة، كالحديقة وحظيرة الدجاج. كانت بوّابة قصر تشيفيليا تعجّ في كلّ وقت، بالعديد من الأشخاص؛ أقارب وأصدقاء، كلّهم تقريباً يعملون في خدمة العائلات الثرية في روكاكولومبا، وقد اعتادوا المرور بهم للتحية والراحة والثرثرة معهم قبل استكمال الطريق.

منذ سقوط حُكم آل بربون، بقيت الطبقة الثرية الحاكمة متماسكة، وقد تمتّعت بالاستقرار والرخاء. وبالتبعية كانت تتباهى عائلات مَن يعملون

في خدمتهم مثل الخَدَم والحوذيِّيْن والطُّهاة والمربّيات، بوضع متوسّط إلى مستقرّ، فلم يكونوا أبداً من المعوزين، على الرغم من فقرهم.

وقد جعلهم ارتباطهم بأسيادهم القدامى بمزيج من الاحترام والبغض والعاطفة المتبادلة لأجيال عديدة، يقتدون بهم في القِيَم الأخلاقية والتصرّفات وأسلوب الحياة.

كانت عائلات الخَدَم تنظر نظرة تعالٍ إلى فقراء البلدة العاديِّيْن الذين كانوا يعانون شظف العيش، ولا يجدون ما يؤمّن قوت يومهم، فضلاً عن إحساسهم، طبقاً لوضع سادتهم، بحماية أو تهديد المجتمع البرجوازى الزراعي: المافيا التي كانت في ذلك الوقت تنمو بسرعة، وتتهيّأ للتغلغل في المقاطعات الشرقية.

كان والد دون فيتو ميليتيللو يعمل حارس بوّابة لدى البارون تشيفيليا، وكان أحد النبلاء الجدد في المجتمع الطبقي للبلدة. وقد وضعه البارون في رواق من الخشب المنحوت، في أفخم البوّابات في الميدان، وألبسه حلّة زرقاء غامقة أنيقة كعادة نبلاء المدينة.

وقد أصبحت البوّابة ملتقى الزيارات والنميمة لخَدَم الأثرياء، وأيضاً مصدراً مهمّاً للمعلومات التي تصل إلى أصحاب البيت عن طريق زوجة حارس البوّابة التي كانت تنقل المعلومات بشكل أسرع وأدقّ من القنوات المعتادة التقليدية ومن أحاديث الصالونات والنوادي. لذا كان مرور هؤلاء الناس وجلوسهم يحظى برضا صامت من البارون الذي لم يكن يضايقه أن تُضاء البوّابة بالأضواء العاكسة.

وفي ظهيرة يوم 23 سبتمبر كان دون فيتو جالساً في الرواق الذي كان يراقب من خلاله المدخل والميدان وعمل زوجته داخل البوّابة، وبينما كان يتحدّث بودٍّ مع صهره، علَّق دون فيتو عند سماع خبر موت منولارا قائلاً:

"ماتت فريسة طَمَعِها وجشعِها. كانت امرأة فظّة غليظة الطِّباع. تبرأّتْ من طبقتها -على الرغم من أنها ليست من طبقتنا، فقد وُلدَت ابنةً لعامل أجير- وتشبّعت بصفات الفاليبي، وكانت تشعر بأنها واحدة منهم، لكنها لم تكن كذلك أبداً، وما كان ليتسنّى لها أن تكون. لم يكن أبناء المحامي يطيقونها، وماتت وحيدة مثل كلبة، بل لم يشهد موتها حتّى أبناء شقيقتها".

كانت دونا إنزا في الداخل، تستمع إلى الزوج في أثناء تجهيزها الخضروات لإعداد العشاء، فدافعت عن منولارا: "ليس الأمر كذلك. ثمَّ إنه لا يجوز التحدّث بسوء عن الأموات، وخاصّة أولئك الذين لم يُدفنوا بعد. عملت لديهم بكلّ إخلاص. ثمَّ إن السيّدة الفاليبي كانت تحبّها، لدرجة أنها ذهبت للعيش في منزلها بعد موت المحامي، فما الذي كان يُجبرها على ذلك! لم تجعلها منولارا تقوم بأيّ عمل، وخدمتها حتّى آخر رمق في حياتها".

ردّ دون فيتو دون أن ينظر إليها وهو يهزّ رأسه وعيناه معلّقتان دائماً بالبوّابة: "ما علاقة ذلك بما أقوله؟ ربمّا كانت خادمة أمينة، ولكنْ، لماذا هذه الغطرسة والكِبْر معنا؟! لم تكن تتوقّف أبداً عند الباب، كانت تردّ التحية بامتعاض وكأنها إهانة، وإذا قام المرء بتأدية خدمة لها - وكان القليلون يفعلون ذلك - لم أسمعها أبداً تردّ بكلمة شكر، وكأن لسانها كان ليسقط من فمها لو شكرتْ إنساناً".

اتّفق دون باولينو أنونسيتا مع شقيقة زوجته في حديثها: "كانت تعاملني دائماً باحترام، وأعرف أنها تدخّلت لإعطائي مكافأة الخدمة، إلّا أنها لم تنطق بكلمة واحدة لمساعدتي في الحصول على راتب. فليرحمها الله، كان من الصعب بالنسبة إليها وإلينا، كعاملين في خدمة بيت الفاليبي، التأقلم مع وَضْع تلقّي الأوامر منها في البيت وفي الأراضي الزراعية، كان وضعاً جديداً ومختلفاً".

تدخّلت في الحديث دونا ميما التي كان لها رأي مختلف عن أختها قائلة: "وضع مختلف حقّاً، أفعال مجانين! أنا أحترم التقاليد؛ يجب أن نترك الأشياء التي اعتدنا عليها كما هي. هذه البِدَع تسبّب الخراب، فمن الجنون أن تذهب أُنثى وحدها وتتجوّل بين الحقول وتأمر وتتحكّم فيمَن هم مثلها، يعملون مثلها، وتتصرّف كأنها صاحبة الأملاك، وتقضي الليل وحدها، أفعال مجانين!" هزّت رأسها وقالت بصوت مرتفع: "لقد ضيّعت منولارا سُمعتَها وفضحت نفسَها، حيّة وميتة. كانت امرأة وقحة، لم تكن منولارا سوى امرأة وقحة".

سألت دونا إنزا: "ما لم أفهمه أبداً هو كيف انتهى بها الأمر لإدارة أملاك السادة؟"

ردّ دون فيتو: "أخبِرْها أنتَ، يا باولينو، فقد عملت لدى عائلة الفاليبي". وفي هذه المرّة استدار ونظر إلى داخل البوّابة مصوّباً عينَيْه نحوه، ليحثّه على الحديث.

لم ينتظر دون باولينو تكرار الطلب، فبدأ يحكي بشغف، بعينَيْن يَقِظَتَيْن، وكأس النبيذ في يده: "بعد موت السيّدة ليللا، والتي كانت أرملة تدير أملاكها بقبضة حديدية أفضل بكثير من زوجها، رحمة الله عليه، لم يُحسن ولداها، المحامي أوراتسيو، وأخوه فينشينسو، ضابط الجيش الذي كان يعيش بالخارج، التصرّفَ، وأخذا يبدّدان الأموال يميناً ويساراً. كانت الظروف صعبة بعد الحرب، وهما كانا يُنفقان ببذخ، يشتريان السيّارات الجميلة وكلّ ما يحلو لهما. كان عليهما الادّخار والتريّث في الإنفاق، إلّا أن الإسراف وتراكُم الديون كانا يلتهمانهما أحياء، فاضطرّا لبيع أملاك كثيرة والاستغناء عن بعض خَدَم المنزل". حدَّقَ وأضاف: "وبعد أعوام قليلة، أُقسم أنني لا أدري كيف آلت إدارة الأملاك والأراضي إلى منولارا. أتذكّر كما لو كان قد حَدَثَ اليوم، أوّل مرّة طلبت منّي اصطحابها إلى أراضي

العائلة وحدها. قالت: "دون باولينو، جَهِّزِ العربةَ، لنذهب إلى بوليري". نزلتُ إلى المرأب، وقمتُ باللازم. عندما وصلتْ وحدها، سألتُها إن كان يجب أن أنتظر السادة طويلاً، فردّت أنه لن يأتيَ أحد آخر معنا، وثبّتت عينَيْها نحوي، تينكَ العينَيْنِ السوداوَيْن مثل قطعتَي جمر. كان لها عين آمرة، ثمَّ دلفت إلى السيّارة في المَقعَد المجاورللسائق، وطلبت منّي الإسراع في القيادة. منذ ذلك الوقت أدركنا جميعاً؛ خَدَم المنزل كلّهم، أن الأمور تغيّرت. أمّا بالنسبة إليها، فكان فرض احترامها على الفلّاحين أمراً في غاية الصعوبة. كانت ظروف الزراعة مواتية في العام الأوّل، فقد هطلت الأمطار طوال الشتاء، ورغم ذلك كان المحصول قليلاً، لأن المزارعين كان يسرقون أكثر من اللازم". عند ذلك توقّف عن حديثه، ونظر إلى زوجته نظرة عتاب، "ولكنْ، في العام التالي استدعت منولارا وكيل الزراعة "تري روسيه" ودخلت معه مكتب الإدارة، وأغلقت الباب، وقد سمعتُها تتحدّث معه بصوت عالٍ، لدرجة أنني شعرتُ بالخوف من كثرة صراخها. كان ذلك خلال ثورة الفلّاحين المطالبة بالإصلاحات، وكان الأُجراء يطالبون بحقوقهم، وقد سقط العديد من الضحايا جرّاء ذلك. كان تمثيل منولارا لأصحاب الأرض يشكّل خطراً كبيراً على حياتها، فقد كان من الممكن أن تُقتَل، على الرغم من أنها أُنثى، فأولئك الأُجراء لم يكن شيء ليُوقِفَهم، وكانوا سيقتلونها".

توقّف دون باولينو قليلاً عن الكلام، ليلتقط أنفاسه، ثمَّ استطرد: "لم تتوقّف عند ذلك. في ذلك العام، ظلّت طوال وقت الحصاد في الأرض، لم تتخلّف عن حصادٍ أو بذرٍ، بينما كانت عائلة الفاليبي تقضي الوقت في المصيف والزيارات. كانت تلك المرأة تقضي الليل نائمة فوق المحصول، سواء كان قمحاً أو لوزاً، تتدثّر بغطاء فوقها، وتنام هناك بكامل ملابسها دون وسادة لرأسها. ومنذ ذلك الحين، أصبحت تجني المحصول كاملاً دون سرقة، وهكذا بدأت الأراضي تدرّ دَخْلاً، وبدأت تتسلّم الإيراد المستحقّ لعائلة الفاليبي، وتدفع للأُجراء والفلّاحين كما اتّفقت معهم، ودون تأخير".

تدخّلت دونا ميما في الحديث: "من حسن حظّها أنها لم تُقتَل بسبب تصرّفاتها .. مع الوقت أصبح لها أعداء كثر، ويقال إنها كانت تُقرِض الأموال أيضاً".

علّق دون فيتو على حديثهم دون أن يُبعِد عينَيْه عن الطريق قائلاً: "كانت امرأة شجاعة بالتأكيد .. امرأة غير متزوّجة، وتقضي ليلتها خارج المنزل وحيدة فوق أرض رطبة في الخلاء ...".

لم تفهم ابنتا الأخت وزوجاهما إن كانت الخالة كارملينا لي يبرا تتابع الحديث أم لا، وهي الخالة العانس لدونا إنزا ودونا ميما، وقد كانت عجوزاً خرفاء تعيش في منزل ميليتيللو، بيد أنها تدخّلت في الحديث متعجّبة: "ومَن كان ليتزوّج بفتاة تقضي الليل بالخارج؟!".

ردّ دون فيتو:

"ياخالة كارميلينا، لم يكن أحد ليتزوّج بها على أيّ حال، كانت امرأة غريبة الأطوار"، ثمَّ قال وقد احمرّ وجهه: "لم يكن ليقترب منها أيّ رجل".

علّقت دونا ميما: "لم تكن منولارا تصلح للزواج".

أضافت دونا إنزا بابتسامة العالِم ببواطن الأمور: "لم يكن الرجال يُعجبونها". كانت مقتنعة بأنها تعرف تفاصيل عن حياة منولارا أكثر من الآخرين، بفضل الأحاديث الخبيثة للبارونة تشيفيليا وبناتها، والتي كانت تلتقطها عندما كانت تصعد إلى الطابق الذي يقطنه السادة، لتساعد سيّدات البيت، وتنقل لهنّ الأخبار التي كانت تصل إلى البوّابة.

تركهم دون باولينو يتحدّثون بينما كان يرتشف ما تبقّى من نبيذ الغداء، ثمَّ علّق ضاحكاً: "لا أدري إن كان حقيقياً أم لا أن الذكور لا تعجبها، فقد كانت خبيرة عندما كانت تعمل في الحقول، والناس لا تتغيّر".

في أثناء ذلك، وصلت ابنة العمّة الشابّة لدونا ميما، ليا كريسكولو، والتي تعمل خادمة في بيت بيكوريللا ودون لويجي سبشيال، والذي كان يعمل سائقاً في منزل عائلة فاتا، ويعمل الآن سائقاً لعربات الأجرة. لم يكن من المناسب الحديث هكذا عن راحلة، لم تُوارَ بعدُ الثرى أمام الغرباء، لذا وإن لم يتغيّر موضوع الحديث، لكنه انتقل من الحديث عن الميتة إلى الحديث عن الموت: في روكاكولومبا، كم من الشباب قتلهم ذلك المرض الجديد! أدرك دون لويجي أن عقد الحديث المسلّي قد انفرط، فحاول أن يحثّ دون باولينو، الذي كان في ذلك اليوم منطلق اللسان وكأس النبيذ لا تزال في يده، على الإفصاح عن بعض الأسرار: "احكِ لنا، يا بولي، ومع المحامي الفاليبي، كيف كانت القصّة؟"

لم يعجب ذلك السؤال المباشر الفجّ دون باولينو، فبالرغم من كلّ شيء، فقد كان يعمل في خدمة عائلة الفاليبي، فأجاب بحرص: "بالتأكيد كانت فتاة جميلة عندما بدأتِ العمل لديهم، وكان المحامي أوراتسيو في شبابه مُولَعاً بالنساء. هذا ما أعرفه وما يمكن أن أقوله. ولكنني لم أرَ بعينَي أيّ شيء في منزل العائلة، لذلك لا يمكن أن أرويَ أكثر من هذا. يقال إنه كان هناك شابّ يُعجبها في القرية قبل أن تعمل في خدمة العائلة، إلّا أن الموضوع لم يتمّ، وبالتالي تركت منولارا العمل في الحقول، وأخذتْها السيّدة ليللا في خدمتها. كانت جميلة؛ قوام ممشوق ووجه جميل، ولكنْ، مع مرور الأعوام فقدتْ هذا الحُسن".

غمغم دون فيتو: "المرارة والحقد في داخلها وما كانت تسبّبه للناس من أذى قبّحوها. هذا ما حَدَثَ".

أرادت دونا ميما تغيير الموضوع الذي كان يتصاعد باستمرار، مُدرِكة وجود ليا غير المتزوّجة، والتي لا ينبغي لها أن تستمع إلى بعض تلك الأحاديث. تدخّلت في الحديث قائلة:

"هل عرفتُم أن أبناء أختها لن يحضروا الجنازة، بل إن أسيادها هم مَن سيُقيمها؟"

قال دون باولينو غير مصدّق: "مَن أخبركِ بذلك؟"

تدخّلت دونا أنزا في الحديث بصوت عالٍ قبل أن تفتح الأخت فمها: "باولينو، فلتعرف هذا الأمر: اليوم في الطابق العلوي، كانت السيّدة جوفانا تحكي للبارونة أمامي أن السيّدة ليللا الفاليبي التي تعيش خارج صقلية قد أُصيبت هي الأخرى بالدهشة، فقد تركت منولارا خطاباً بخطّ يدها، تطلب منهم عدم إبلاغ أبناء شقيقتها بوفاتها، وليس فقط عدم حضور الجنازة! هكذا ستتحمّل عائلة الفاليبي مصاريف جنازتها كلّها".

تدنّى الحديث إلى النمائم القديمة وما يُحكى عن بخل عائلة الفاليبي، وسخروا من فكرة أنهم مضطرّون الآن لتحمّل نفقات الجنازة. افترضوا سوء العلاقات بين مينولارا وأبناء شقيقتها المتوفّاة، وتحدّثوا من جديد عن شخصيّتها الصعبة. تطرّق الحديث إلى هوية عشيق منولارا والايحاء بأنه المحامي الفاليبي، وإلى العلاقة بينه وبين منولارا.

كان دون باولينو يتابع بصمت أحاديثهم التي كانت تتشعّب وتتشابك، وكانوا، في بعض الأحيان، يتحدّثون جميعاً في الوقت نفسه محرّكين أيديهم من شدّة الانفعال. أخيراً تحدّث دون باولينو بصوتٍ رصين هذه المرّة قائلاً:

"أنا سأذهب إلى الجنازة، أوّلاً لأنني كنتُ أعرفها جيّداً، وعملتُ معها لسنوات طويلة، ثمَّ إنه من الصواب أن تعيَ عائلة الفاليبي أنهم كما يحترمون خادمتهم ويتكفّلون بإقامة جنازتها، فنحن أيضاً نقدّر الاحترام، وننتظر مثله عندما يحين الموعد".

صمت الجميع. اكتستْ ملامحهم بتعبير جادّ، وانتبهت أعينهم، واتّجهت نحو دون باولينو، بينما كانوا يستمعون إليه بكلّ الاحترام الذي

يكنّونه له. ردّت دونا أنزا متأثّرة: "معكَ حقّ، يا باولينو. بالتأكيد عائلة الفاليبي تحبّ منولارا، ولهذا قرّروا إقامة الجنازة. وأنا أيضاً سأذهب غداً".

نظر دون فيتو إلى زوجته نظرة عدم موافقة، ولكن الشجاعة لم تُواتِهِ ليمنعها، وقال:

"أنا مشغول بالعمل هنا. وحتّى لو لم يكن لديّ عمل، ما كنتُ لأحضر جنازتها". عند ذلك توقّف الحديث: عند الخلاف بين الزوجَيْن يجب ترك الأمور تمرّ دون تعليق، حتّى وإن كانوا جميعاً يعلمون أن الآمر الناهي في المنزل هي دونا انزا. عند هذه اللحظة انفضّ الجمع، وقد حانت ساعة إغلاق البوّابة.

في المساء، وفي أثناء تبادُل التحية بينما كان دون باولينو يطبع قبلة على وجنة أخت زوجته، سألتْهُ دونا انزا فجأة: "مَن كان عشيق منولارا عندما كانت فتاة صغيرة؟" نظر دون باولينو مباشرة إلى عينَيْها وقال: "حتّى أنتِ لا أستطيع أن أبوح باسمه لكِ .. ولكني أعرف مَن هو". غمز بعينَيْه عاقداً حاجبَيْه قريباً من منبت شَعْر رأسه، رافعاً جفونه المجعّدة ومُبرِزاً حدقتَي عينَيْه. فهمت دونا انزا وصمتت.

6. الغداء ظهيرة اليوم في بيت فاتا

كانت السيّدة مارجريتا فاتا تقوم بالتطريز، وقد بدا عليها القلق. كانت تعلم أن منولارا تحتضر، وكانت تنتظر بقلق أخباراً من ابنة خالتها أدريانا الفاليبي، ومع ذلك، فإن تحفّظها الشديد كان يمنعها من الاتّصال، فقد كانت تخشى إزعاجها. أخبرتها لوتيشيا بأن الغداء جاهز، وقد ذهبت إلى حجرة مكتب الرئيس لتناديَه. اعتادت عائلة فاتا تناوُل طعام الغداء بصمت عند عدم وجود ضيوف. بيترو فاتا، رئيس اتّحاد الزراعيِّيْنْ للمقاطعة، كان رجلاً قليل الحديث. كانت زوجته مارجريتا تحترم حبّه للصمت، وتعلّمت

أن تتحدّث مع نفسها عندما كانت تشعر بالحاجة إلى الصحبة. ولكنْ، في ذلك اليوم تحدّث الزوجان في أثناء تناوُل طعام الغداء. جلس الزوج عند رأس المائدة والزوجة إلى يساره كعادتهما، ثمَّ قال بيترو: "تلقّيتُ اتّصالاً هاتفياً من ميمو ميندكو. لقد ماتت مينولارا هذا الصباح، وقد طلبتْ منه أن يخبرَني بموتها، يا له من طلب غريب!".

أرادت مارجريتا أن تعتب على زوجها لعدم إخباره لها بالأمر فوراً، على الأقلّ كان سيوفّر عليها ساعات من القلق، لكنها تصرّفت بحكمة، ولم تعلّق على عدم إحساسه المعهود بها وبمشاعرها، واقتصرت على سؤاله: "هل أخبركَ بشيء عن أدريانا والأولاد؟"

- "لم نتحدّث عنهم. ستُقام الجنازة غداً في الساعة الثالثة ظهراً، ولا أظنّ أنه أخبرني شيئاً آخر".

علّقت الزوجة: "أعتقد أن أبناء شقيقتها سيأتون من الخارج لحضور الجنازة".

ردّ بيترو: "أعتقد أنا أيضاً ذلك". ثمَّ غاص في أفكاره، رافعاً إلى فمه ملء شوكة من البطاطس المقلية.

كان من عادتهما تناوُل القهوة في الترّاس عندما يسمح الجوّ بذلك، وفي ذلك اليوم، كانت لوتيشيا تخدمهم باهتمام واضح، كانت يَقِظَة منتبهة لالتقاط أيّ معلومات عن موت منولارا، فكانت تتظاهر بالعمل، بإعادة تنظيم مقاعد الطاولات الحديدية المنتشرة في الترّاس الواسع، بتحريك منافض السجائر، أو تنظّف المقاعد من أوراق الغليسين التي بدأت بالتساقط من سقيفة الترّاس. لم تكن تدري أيّ عمل تخترعه، لتظلّ في حضرة السيّدَيْن وتستمع إلى حديثهما.

كانت السيّدة فاتا تتحدّث عن عائلة الفاليبي: "أنا قلقة على أدريانا.

بعد أن ذهبتْ للعيش في بيت منو تعلّقت بها جدّاً، وستشعر الآن بالوحدة والألم. لا أدري إن كانت تفكّر في العودة إلى قصر الفالبيي، ولكنْ، يجب إجراء بعض الإصلاحات وتركيب التدفئة المركزية، وهناك أيضاً مشكلة الخَدَم .. ستحتاج إلى أشخاص موثوق بهم، فهي تعيش وحدها ومنو كانت تعمل بطاقة ثلاث خادمات، فضلاً عن مهاراتها الأخرى. تصوّر أنها لازالت تدير أموال أدريانا وممتلكاتها! موت منولارا سيشكّل خسارة كبيرة لها، والآن يجب عليها أن تعتمد على أبنائها. أشعر بالقلق عليها".

استمع الزوج إليها بانتباه، وسألها: "أتعلمين إن كان الأولاد معها؟"

أجابت الزوجة: "نعم، إنهم جميعاً، وبمحض المصادفة، هنا في روكاكولمبا".

ردّ الزوج: "أريد أن أساعدهم، فهم غير قادرين على إدارة شؤون حياتهم. أنا مدين لأوارتسيو.

استعلمي جيّداً عن أحوالهم وعن أخبارهم في البلدة، وإذا سمعتِ أنهم يحتاجون إلى شيء أو يقومون بتصرّفات غير مسؤولة، أخبريني، وسأحاول توجيههم".

ردّت الزوجة: "حسناً، كما تشاء". كانت تشعر بالعرفان لاهتمام زوجها بعائلة ابنة عمّها، على الرغم من الأعباء التي تُثقل كاهله.

كانت امرأة خجولة ومتحفّظة في التردّد على صالونات البلدة، ربّة بيت بطبيعتها، ومنذ أن أنجبت لها زوجة الابن التي تعيش في الطابق الأوّل حفيدتَيْن جميلتَيْن، وهي تجد دائماً العذر في عدم مغادرة البيت.

شعرت أن هذه هي اللحظة المناسبة لتطلب من الزوج طلباً تخشى ألّا يوافق عليه، أضافت متردّدة:

"هل تريد أن أذهب إلى الجنازة غداً؟"

كان رئيس الزراعيِّيْن ينظر بعيداً. استدار فوق المَقعَد، وحدجها صامتاً. نفث نفخة من السيجارة، ثمَّ عاد وتنفّسها بتأمّل بطيء. عاود النظر إلى ما وراء سور البلكونة الحجري الذي يكشف المدينة كلّها، ثمَّ عاد ونظر مباشرة في عينَيْها وقرّر:

"كانت خادمة ممتازة خدمتْهم بإخلاص ولعشرات السنين، وكانت تحرص على أن تبقى من الخَدَم، وتتصرّف على هذا الأساس. الأمر أن قرار أدريانا، بمنطقها غير المفهوم، الانتقال للعيش في بيت خادمتها لا يغيّر من هذه العلاقة. لقد سمحت لكِ أن تزوريها في بيتها، لأنني لم أجد سبباً في قطع العلاقة الحميمة بينكِ وبين ابنة خالتكِ، ولكني أعلم أن الأقارب والأصدقاء والآخرين في روكاكولمبو حرصوا أشدّ الحرص ألّا تطأ أقدامهم بيت مونلارا. وأنا لا أُقرّ تصرّفهم."

استمرّ في تأمّل زوجته في أثناء حديثه معها، ثوبها الأخضر الفاتح، يدَيْها الصغيرتَيْن الرقيقتَيْن، هيئة، وأناقة سيّدة راقية. " ولكنكِ أنتِ، زوجتي ذات مكانة اجتماعية مهمّة في هذه البلدة، وحيث إنني في العادة لا أذهب إلى جنازة خادمة قريب أو صديق أو زميل، فأنتِ كذلك لن تذهبي إلى الجنازة. يمكنكِ بالطبع زيارة أدريانا قبل وأيضاً بعد الجنازة."

كان يشعر في داخله أن مارجريتا توافقه الرأي، يجب احترام المظاهر، وخاصّة في حالة عائلة الفاليبي، التي لم تكن أبداً محبوبة في البلدة، وأعطت الفرصة للحديث كثيراً عن علاقتهم الوطيدة بمنولارا، ومع ذلك ظنّ أنه بالغ في تشدّده. وشعر بالرغبة في البقاء وحيداً، أبعد زوجته عن المكان، مشيراً إليها بمحادثة أدريانابالتليفون، وعند ذلك اقترب من سور البلكون الحجري.

كان قصر فاتا يقع في أكثر مناطق روكاكولمبا ارتفاعاً، بجانب دَيْر

"لادولوراتا"، وبالقرب المسموح به من قصر أمراء برولي المهيب المهجور، وقد بقيتْ من القصر الأسوارُ الخارجية الفخمة وواجهة المبنى ذات الطراز الباروكي والبلكونات المستديرة المنتفخة، كانت النوافذ مغلقة دائماً، وكذلك الباب الحديدي الكبير. كان عمق القصر يختبئ عن عيون أهل البلدة، وليس عن ساكني قصر فاتا، حيث كانت الأرضية اليانعة بالنباتات والشجيرات البرّيّة تبدو من الشرفة، وكانت الرياح قد حطّمت نوافذ الأفنية الداخلية، وصارت أحواض الزهور مهمَلة بشكل يكشف عن التدهور السريع للقصر الرائع، وتحوّله إلى أطلال. كان المنظر الطبيعي من الترّاس يشكّل، في فصول السنة كلّها، متعة كبرى لبيترو فاتا، فكان يستند إلى سور التراس الذي يمتدّ خارج الأسوار الخارجية، فيشعر أنه معلّق في الهواء أو فوق منبع نهر من قِرْمِيْد أسطح متلاطم الأمواج، يتفجّر تحت قدمَيْه، ويمتدّ فوق النتوء الجنوبي للجبل. كانت الأسطح من القِرْمِيْد أسطوانية الشكل يختلف كلٌّ منها عن الآخر اختلافاً طفيفاً في اللون والحجم والميلان، أشبه بموزاييك أُحادي الطيف اللوني مبعثر دون نظام في توازُن رائع من الألوان والأحجام.

من بين الأسطح، كانت تبزغ هنا وهناك أبراج أجراس الكنائس المرتفعة الرشيقة، والتي شُيِّدت مثل أبنية سائر البلدة من الحجر الرمادي الوردي، والذي كان يبدو مرآة تعكس السماء عند المغيب من شدّة تشبّعه بأطياف اللون الأحمر للشمس المحتضرة.

يرتفع بين الأسطح برج جرس الكنيسة الأمّ بلون حجر المغرة الغامق، تقطعه خطوط من البلاط الأخضر والأبيض. وبجوار الكنيسة الأمّ، يتراءى قصر البريد، الذي كان يسمّى بتحذلق المبنى المستدير ذي الطابقَيْن، والذي تمّ بناؤه في أثناء الحقبة الفاشية. وبمرور الزمن انصهر هذا المبنى أيضاً داخل روكاكولومبا، وأصبح جزءاً منها، كما لو كان قائماً منذ القِدَم. وقد تدهور السقف المَطليّ باللون الوردي اللامع قبل الأوان، وهذا التدهور سمح له بالتناغم التامّ مع الأسقف الأخرى المائلة التي تحتضنه.

كانت روكاكولومبا العليا تنتهي إلى الوادي في صخب منعطفات روكاكولومبا السفلية، ثمَّ النهر الذي يقطعه الجسر الحجري ذو الثلاثة أقواس، والذي كان يربط مدينة روكاكولمبا القديمة بالجديدة، وهو شكل معماري مشوّه بلا هوية، ظهر في الثلاثين عاماً الماضية. اتّسعت روكاكولمبا كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية أيضاً بفضل الطريق السريع الجديد الذي كان يربط المدينة بالمراكز الأخرى للمقاطعة، عبر نفق طويل، وقد شُيِّدت العشرات من المباني بالإسمنت المَطليّ بألوان فاقعة في فوضى الازدهار المعماري في السنوات الأخيرة. ظهرت روكاكولومبا كمدينة كبيرة زراعية، حيث استثمر أصحاب الأراضي الزراعية في الآلات الحديثة والتكنولوجيا، وحظوا بسُمعة بلدة زراعية حديثة، وذلك كردّ فعل على أزمة نظام عقد الإيجار الزراعي. وحيثما يقلّ الربح من الأراضى الزراعية أو يتلاشى، كان الاستثمار العقاري يعوّض النقص. هذا الاستثمار، وإن ضمن الرخاء والتقدّم لمدينة روكاكولومبا، إلّا أنه شوّه الجمال الفريد والعريق للبلدة، والذي ترسّخ في القرن السابع عشر على يد أمراء برولي، وعمّا قريب سيدمّره نهائياً، فسيختفي نسيجها الاجتماعي خلال أعوام قليلة، وسيتغيّر كلّ شيء.

كان بيترو فاتا يعتبر التغيّرات التي يفرضها التقدّم من الأمور الإيجابية، بيد أنه كان يجد صعوبة في التكيّف معها. وكان يعاني كثيراً من عدم قدرته على التكيّف مع المستحدثات، ويشعر أنها دليل على اقتراب الأَجَل.

نظر فيما وراء المنطقة المسكونة. كانت الجبال تتّسع في منحنى واسع على شكل نصف دائرة، تضمّ في منتصفها بشكل غشوائي بعض الهضاب متوسّطة الارتفاع، والتي شُيِّدت فوقها مدينة روكاكولمبا العليا. وفي الأسفل، كانت تظهر تلال المناطق الزراعية المهمّشة التي كانت تزداد رقعتها على مَرمَى البصر. ومن خشبة المسرح، (هكذا كان يُعجبه أن يتخيّل الترّاس)، كان الرئيس يتأمّل منظر التلال التي كانت تتّسع لهضاب منخفضة ذات قِمَم

مسطّحة، زرعها الفلّاحون، ووراء ظَهْره، نحو الشّمال، تموج الجبال متتالية الواحد تلو الآخر، مهيبة تغطّيها الغابات ذات البقع الخضراء، وتقطعها قِمَم أخرى مُدبّبة، تنحدر إلى البحر. نظر إلى الأسفل. كانت الحقول المحروثة تتلألأ تحت أشعّة الشمس فوق منحنيات الهضاب التي تقع أمام روكاكولمبو، على الضفّة الأخرى من النهر. والنهر المتوغّل بالوادي، والذي كان يحاذي الهضاب، يتلوّى لامعاً هادئاً، فيختفي وراء هضبة ليظهر وراء أخرى. كان منظراً طبيعياً يحبُّه ويحفظ تفاصيله كلّها، وكان يطيب نفسه دائماً بالنظر إليه. ودّ أن يمتهن الرسم، إلّا أن قدره كان رعاية أملاك العائلة الزراعية. دخل إلى المنزل واتّجه إلى حجرة المكتب، لم يكن يشعر برغبة في العمل. جلس بجوار المدفأة، وعاد يفكّر في منولارا. ماتت مبكّراً، كانت تستحقّ التمتّع بشيخوخة هادئة بعد سنوات من العمل الشاقّ لدى أوراتسيو الفالبيي وعائلته. إنسانة يصعب تحديد شخصيّتها، مخلصة مطيعة لرغبات سيّدها، وفي الوقت نفسه قوية متسلّطة في ممارسة قدرتها النادرة في إدارة أملاك العائلة. كان أوراتسيو يُطلق عليها "إلهة الحماية لعائلتي". بدون شكٍّ، استطاعت إنقاذ العائلة من التردّي المالي، وأمسكت بزمام الإدارة، رغم أنها تسبّبت في خلافات دائمة بين الأخوَيْن.

كان بيترو قد قضى فترة طفولته ومراهقته مع الأخوَيْن الفاليبي في البلدة، ثمَّ في المدرسة، وكانت فكرة الخلاف بينهما تُحزِنُهُ. أمسك بكتاب باللغة الفرنسية، ووجد بعض الارتياح في القراءة.

7. بروفة ثوب حفيدة السيّدة فاتا الصغيرة.

وضعتْ أنجيلينا سالفياتو اللمسات الأخيرة لثوب حفل ريتا، وقد أعدّتْهُ للبروفة الثانية والأخيرة. فَرَدَتِ الثوبَ فوق المنضدة، ساوتْ كسرات التنّورة، ربطتِ الكورسيه المطرّزة، نفختِ الكمَّيْنِ على شكل كرتَيْنِ صغيرتَيْنِ، رجعتْ خطوة للخلف تتأمّل وحدها بإعجاب الشكل النهائي للثوب، وشعرتْ بالرضا

عن عملها. دخلتْ خادمتا البيت لوتيشيا وماريانا مبتسمتَيْن مرحتَيْن إلى غرفة العمل وقد تبعتْهما تيتينا، ابنة شقيقة سانتا التي حضرت إلى بيت فاتا لاستعارة المكنسة الكهربائية لتنظيف بيت الفالبيي.

كانت الفتيات تتأمّلنَ الثوب بإعجاب أمام عينَي أنجيلينا الراضيتَيْن، ويطلقنَ، بين حين وآخر، بعض التعليقات عن خبر وفاة منولارا الذي أعلنتْهُ لوتيشيا في المطبخ ساعة الغداء. كانت ماريانا تعلّق قائلة: "لم يزل جسد الميتة في البيت، ويفكّرون في تنظيف بيت الفاليبي؟ كيف خطر ذلك في بالهم؟ لو كنتُ مكانهم لشعرتُ بالحزن الشديد وما كنتُ لأفكّر في شيء آخر!"

انظري إلى التطريز في مقدّمة الفستان. أنجيلينا، لديكِ يدان ساحرتان.

قالت تيتينا:

"السيّدة ليللا تبدو وكأنها قائد عسكري؛ تُصدر الأوامر هنا وهناك، بالنسبة إليها كان يجب أن ينتهي العمل على كلّ شيء فوراً فوراً. أصبحت أجنبية، تتحدّث بلغة لبقة كما في السينما. مَن يدري كم هي تكلفة هذا الساتان لصنع الحزام! يبدو مثل ثوب أميرة!" كانت تلمس القماش الناعم، وتتحسّس شريط الحزام، فكان هذا بالنسبة إليها ترفاً بعيد المنال. "خالتي سانتا يجب أن تقوم بأعمال البيت والنظافة كلّها في منزل الفاليبي، فقط أنا وأمّي نساعدها، وأولئك ينتظرن منّا خدمة كاملة؛ حتّى فنجان القهوة لا يستطعنَ تحضيره، يحسبنَ أنهنّ خُلقنَ لإعطاء الأوامر. الزمن تغيّر، وبعد الجنازة يجب أن تحدّثهم خالتي بوضوح في ذلك الشأن".

ردّت ماريانا:

"لو كنتُ مكان خالتكِ، لما بقيتُ بخدمتهم. فهي تعرفهم جيّداً، وقد كانت تعمل لديهم قبل موت المحامي الفاليبي. بخلاء متكبّرون".

كانت ماريانا سليطة اللسان، لذا خصّتْها السيّدة فاتا بالعمل في المطبخ، وليس بالخدمة في حجرة الطعام أو الصالون، والتي كانت تقوم بها لوتيشيا الهادئة الرصينة.

كانت لوتيشيا تستمع إليهما وقد ركّزت عينَيْها على الثوب، كانت تتمنّى أن تتعلّم حياكة الثياب مثل أنجيلينا. قالت: "الرئيس كان يقول إن منولارا كانت تُدير الأموال الخاصّة بممتلكات السيّدة أدريانا. كيف أصبحت بهذه المهارة في إدارة الأملاك؟"، ثمَّ أضافت "انظري كيف خاطت الحاشية! غرز صغيرة وكأنها تطريز إبرة. أنتِ، يا أنجيلينا خيّاطة ماهرة بالتأكيد، ويمكنكِ كسب الكثير من الأموال إذا ذهبتِ للعمل خارج البلدة".

سألتْها ماريانا ببراءة مصطنعة:

"أخبريني، يا أنجيلينا: هل كانت منولارا قريبة لأمّكِ؟ واضح أن المهارة تسري في عروقكم". كانت أنجيلينا تنظر إليها، وقد تضرّجت وجنتاها الشاحبتان بحمرة الحَرَج.

أجابت أنجيلينا:

"لا أدري، لم أكن أعرفها. كانت قريبة لأمّي، ولكنها لم تكن على علاقة بها، وأنا لستُ على هذه الدرجة من المهارة في الخياطة، أفعل فقط كلّ ما أستطيع".

أنقذتْها لوتيشيا وغيّرتِ الموضوع: "تيتينا، أخبرِيْنا، هل ظهر زوج السيّدة كارميلا في منزل منولارا؟"

-"وكيف لا يذهب؟! قالت لي خالتي إنه كان ينتظر موت منولارا ليدخل البيت، ثمَّ اجتمعوا كلّهم في حجرة السيّدة أدريانا، وأغلقوا الباب، وكانت أصواتهم مسموعة من تلك الحجرة. باختصار كانوا يتشاجرون حول الميراث والمَسكَن والراحلة المسكينة لا تزال في المنزل".

كانت تيتينا مَنجَماً للأخبار، وواصلت الحديث: "لم يشتروا لها ولا حتّى زهرة، وأبناء المحامي، وكان كل منهم يفوق الاخر في غطرسته، لم يرتدوا ملابس الحِدَاد للجنازة. السيّدة ليللا تقول إنه ليس لديها ثياب سوداء، كارميلا لن ترتديَ سواداً احتراماً لزوجها الذي لا يريد لها أن ترتدي ملابس الحِدَاد، فقط البروفيسور جاني ارتدى كرافتة سوداء، ولكنه لم يضع شارة الحِدَاد السوداء حول ذراعه. يقول إنها لم تعد تُستخدَم، فهو يعيش في كاتنيا، ويعرف هذه الأمور!"

- "والسيّدة الفاليبي؟"

- "المسكينة، تبكي كثيراً. كانتا مثل الأختَيْن. كانت منولارا تعاملها مثل ابنتها"، أضافت ماريانا: "مع أنها كانت تصغرها في العمر".

قالت لوتيشيا وهي تدير عينَيْها في إشارة لعائلة فاتا، وبتعبير وجه مَن يدري ببواطن الأمور: "السادة لا تُعجبهم المودّة بين هاتَيْن السيّدتَيْن. فالواحد منّا يمكنه أن يفنيَ نفسه في العمل من أجل أسياده، وهؤلاء الأثرياء يأخذون ويُنفقون، ثمَّ يتركونكَ عارياً من كلّ شيء. هذا ما يردّده دائماً عمّي باولينو".

لم تفهم تيتينا: "ماذا تعني؟"

لم تنتظر لوتيشيا أن تكرّر تيتينا السؤال: "لقد قال الرئيس لزوجته إنها ينبغي ألّا تحضر الجنازة، لأن منولارا كانت خادمة، ثمَّ قال لها إن منولارا هي مَن أنقذت أموال الفاليبي وثروتها .. ما الذي يعنيه هذا؟ أنا سآخذ إذناً في الظهيرة، وسأذهب إلى الجنازة. كلّما زاد اجتهادكِ في العمل، قلّ تقديرهم لكِ. وفور انتهائي من نفقات تجهيز زواجي، سأتزوّج ولن أعمل مرّة أخرى". أردفتْ دون التقاط أنفاسها، وسألت أنجيلينا: "إن أمكنني أن أتعلّم الخياطة مثلكِ، يمكني أن أخيط أثواباً لبناتي. انظري إلى العُرَى

كم هي جميلة؛ متساوية وصغيرة. أنجلي، هل يمكن أن تُعلِّميني أن أخيط مثلكِ؟ ربمّا شيئاً فشيئاً؟"

ردّت أنجيلينا: "سنرى، الآن يجب أن أُنظّم الحجرة". كانت متحفّظة هادئة قليلة الكلام بطبعها، تحترم وتقدّر أصحاب المنزل. وكانت تخجل من صِلَة القرابة بمنولارا؛ ابنة العمّ المنبوذة من أهلها.

عاودت تيتينا الحديث: "بالتأكيد، كانت منولارا تمتلك الكثير من النقود. أمّا كيف حصلت عليها، فذلك أمر يعلمه الله وحده، أو ربمّا لا يريد الله أن يعلم .. كانت تدفع لخالتي من جيبها، وتعطي نقوداً لأبناء المحامي. كانت ذكية وماهرة، ولم تستطع التمتّع بأموالها".

كانت للوتيشيا أفكار واضحة في هذا الأمر: "أنا أقول إن النقود خُلقَت لنصرفَها، وعندما يموت الإنسان لن يأخذ معه الأموال إلى المقبرة."

أردفت تيتينا: "يبدو أن عائلة الفاليبي تنتظر أيضاً [illegible]اً من منولارا. عندما يصل أبناء شقيقة منولارا؛ لحمها ودمها، أريد أن أرى المشادّات التي ستنشب بينهم .. فهم من دمها، ويحقّ لهم الإرث". صمتتْ فجأة، وقد دخلت السيّدة فاتا مع زوجة الابن والصغيرة ريتا، وانسلّوا ثلاثتهم نحو المطبخ.

بدأت أنجيلينا المهمّة الجادّة في عمل البروفة النهائية، وتلقّت إشادات ومدحاً من السيّدات الثلاث، ثمَّ بقيت وحيدة أخيراً، وواصلت ترتيب أشيائها وتنظيف الحجرة، لتتركها منظّمة لليوم التالي.

كانت تمارس مهنة الخياطة في المنزل، وتعمل فقط لدى عدد قليل من عائلات روكاكولمبا. كانت كلّها عائلات ثرية ومحترمة. وكانت معلّمتها في المدرسة الابتدائية قد علّمتْها الحياكة وشجّعتْها عليها، كما جعلتْها تطرّز مناديل جهاز ابنتها بدلاً من تعليمها القراءة والكتابة جيّداً. شعرت

أنجيلينا وعائلتها بالامتنان لتلك المعلّمة، فمنذ سنِّ العاشرة لم تتوقّف عن حياكة الملابس للآخرين.

كانت أنجيلينا تكسب جيّداً، واتّخذت دَور الابنة غير المتزوّجة، التي تعول وترعى والدَيْها العجوزَيْن. كانت راضية عن حياتها المنظّمة والهادئة. كانت تقضي أسابيع، وأحياناً شهوراً كاملة في منزل عائلة أو أخرى.

وفي تلك البيوت، كانوا يسمحون لها بسماع الراديو في أثناء الساعات الطويلة التي تقضيها وحدها بالعمل، ممّا جعلها تتعرّف إلى الموسيقى وحسّن من لغتها الإيطالية. كانت تتبادل أطراف الحديث مع الخادمات في أثناء ساعة الغداء، وتستمتع بطعام الأثرياء الشهي. وفي الغالب، كانوا يحتفظون لها بالحلوى والبسكويت الذين كانت تحبّهم، وقد اتّخذ جسدها الشكل الممتلئ للمرأة التي تقضي معظم أوقاتها جالسة، كخطوة أولى نحو حياة العنوسة المستقرّة التي لا رجعة فيها.

بعد بروفة ثوب الحفيدة، ذهبت السيّدة فاتا إلى المطبخ، بحجّة تحضير سلّة طعام الحِدَاد التي كانت تريد إرسالها إلى ابنة خالتها عن طريق تيتينا. وعلى الرغم من أنها تخيّلت أن أبناء أدريانا لن ينسوا بالطبع إصدار أوامر لسانتا لتجهيز العشاء، إلّا أن مارجريتا فاتا كانت تريد اتّباع تقاليد الحِدَاد الصحيحة، فجهّزت حلوى ومشهّيات للمسكينة أدريانا، بهدف التخفيف عنها، وكتعبير صامت عن مشاركتها ألم فَقْد منولارا. استغرقت وقتاً طويلاً في إعداد السلّة وهي تثرثر مع تيتينا، على أمل أن تحصل منها على بعض الأخبار تنفيذاً لأوامر الزوج. كانت تيتينا سعيدة بالتحدّث مع السيّدة فاتا، وقد روت لها الحكاية الرسمية بإيجاز، دون إسهاب في تفاصيل كثيرة، ودون أيّ انتقاد لعائلة الفاليبي. تماماً كما يحدُث عند الحديث مع السادة. ثمَّ تركت قصر فاتا حاملة، بتباهٍ، المكنسة الكهربائية وسلّة كبيرة من حلوى وبسكويت الحِدَاد.

وصلت نوروتسا سالفياتو مُتعَبة من ارتقاء السُّلَّم، الذي كانت تصعده مرّتَيْن في اليوم لاصطحاب أنجيلينا ذهاباً وإياباً. كانت لوتيشيا تقدّم لها دائماً بعض الأطعمة الشهية. وفي ذلك اليوم قدّمت لها فنجاناً من لبن ماعز مع الكعك الطازج. وبينما كان ترتشف فنجان اللبن المغلي المحلّى بالسُّكَّر، والذي كانت مُولَعة به، روت لها لوتيشيا ما حَدَثَ "لقد ماتت منولارا هذا الصباح، وعائلة الفالبيي كلّها في بيتها. السيّدة الفاليبي منهارة. كانت منولار قدّيسة في خدمتها للسيّدة". كادت نوروتسا تختنق غيظاً عند سماع كلمات الإطراء والمديح حول قريبتها المكروهة. لم تستطع بَلْع الملعقة التي ملأتها بالبسكويت المبلّل باللبن الحلو، والتي أصبحت كرة حلوى لذيذة عادة ما كانت تزدردها في غمضة عين.

لوتيشيا، وقد ظنّت أن معدة نوروتسا تقلّصت من الحزن عند سماع خبر موت ابنة خالتها، استمرّت في ذِكْر محاسن الراحلة.

وفي تلك الأثناء عادت السيّدة فاتا إلى المطبخ. بدا لها أنه من المناسب أيضاً التوقّف للحديث مع نوروتسا. قدّمت لها العزاء، ثمَّ سألتها: "أخبريني، يا نوروتسا: كيف ذهبتْ منو للعمل في منزل الفاليبي؟ أعتقد أن أمّها كانت تعمل في منزل مينا كابيللي".

-"ابنة خالتي نوروتسا أينتسريللو كانت مريضة جدّاً، والسيّدة ليللا الفاليبي - رحمة الله عليها - أحبّت ابنتها الصغيرة، وألحقتها في خدمة المحامي الفاليبي، واستمرّت في خدمتهم".

أصرّت السيّدة على السؤال:

"يقولون لي إن أمّها كانت خادمة ممتازة في بيت مينا كابيللي. كنتِ أنتِ أيضاً تعملين لديهم في تلك الفترة. كيف كانت أمّ منولار؟" أجابت نوروتسا: "كانت ابنة خالتي ماهرة في العمل، ولكنها لم تستمرّ طويلاً في خدمتهم، حيث تزوّجت".

كانت نوروتسا تعلم أنها لا يمكنها الهروب من الإجابة عن أسئلة السيّدة، ولكنها كانت تعرف كيف تجيب بأدب، وبطريقة توضح بها للسيّدة أنها لن تعرف منها شيئاً آخر.

8. نوروتسا سالفياتو تحكي لابنتها

في أثناء سيرها مع الأمّ، سألتْها أنجيلينا عن ابنة خالتها. أجابت نوروتسا بحدّة: "لا يمكن التحدّث عن هذه الأشياء خارج البيت. عندما نصل سأحكي لكِ مَن كانت أمّ منولارا، ولماذا دخلت تلك المرأة بيت الفالبيي". واصلت المرأتان الهبوط بصمت نحو روكاكولمبا السفلى، تتأبّط كلٌّ منهما ذراع الأخرى، الأمّ صغيرة الجسد ونحيلة والابنة ممتلئة فجّة المَظهَر.

وفي ذلك المساء، بينما كانتا تجهّزان الحساء للعشاء، وَفَتْ نوروتسا بوعدِها، وحكت لأنجيلينا قصّة أمّ منولارا:

"كنّا ابنتَي خالة، وكان ترتيبنا الثاني في البنات، وهكذا حملنا اسم جَدّتنا - رحمها الله - نوروتسا. أُلحقنا بخدمة عائلة مينا كابيللي معاً، كي نكسب ما يكفي لتجهيزنا للزواج. ولكن ابنة خالتي نوروتسا كان عليها أن تكسب أيضاً ما يكفي لتجهيز أختها ذات القَدَم الحَنْفَاء، والتي لم يكن أحد ليُلحقَها بالخدمة مع هذا العيب. أسندوا إلينا أعمال المطبخ والنظافة. باختصار: أسوأ الأعمال، لأننا كنّا صغيرتَيْن. لكنها كانت جذّابة وحَسَنَة المَظهَر، ونجحت في نيل إعجاب الآنسة ليللا، فأصبحت خادمتها المفضّلة، وتركتْني أقوم بالأعمال الشاقّة كلّها في المطبخ وحدي".

كانت نوروتسا تنقّي العدس من الحصى الصغيرة، وعند هذه النقطة في الحديث، استقامت بظَهْرها أمام أنجيلينا، وقد وضعت يدَيْها إلى جانبَيْها، وأردفت: "كانت تشعر أنها مهمّة، ابنة خالتي هذه، لأن الآنسة كانت تفضّلها، وكانت تحكي لنا في المطبخ الكثير من الأشياء الجميلة

عنها، وتُظهِر لنا الهدايا التي أعطتْها إيّاها، لتُشعل غَيْرَتَنا: فساتين مستعملة ولكنها جديدة، شرائط، أوشحة، ملابس داخلية من القطن الرقيق مثل قماش "الفوال"، أحذية، وغيرها من أشياء كثيرة أفقدتْها عقلها". كانت أنجيلينا تتخيّل الهدايا الرائعة للآنسة مينا كابيللي، وهي التي لم تتلقّ أيّ هدية من السيّدات اللاتي تخيط لهنّ الملابس، إلّا أنها لم تنطقْ بكلمة.

عادت نوروتسا لتنقية العدس، واستطردت: "كانت الآنسة ليللا طيّبة بحقّ. حاولت أيضاً أن تعلّمها القراءة والكتابة، ولكنْ، لا أحد يدري إن كانت قد تعلّمت فعلاً أم لا. كانت تتفاخر أمام الجميع وتتظاهر بقراءة صفحات من الجرائد القديمة التي كانت تصل إلى المطبخ، لنلفّ بها الفاكهة التي تُحفَظ في الشتاء في المخزن، أو لتجفيف زيت القلي، أو لحماية المائدة، أو عند تفريغ الزيت في الزجاجات. ولكنْ، بالتأكيد لم تكن هناك ليقرأها أمثالنا".

سالت أنجيلينا، التي كانت تقرأ عناوين الجرائد كلّها التي تقع في يدَيْها:

"لماذا؟! وأيّ عيب في قراءة الجرائد؟!"

ردّت نوروتسا:

"الطاهية التي كانت تعرف القراءة جيّداً، وكان لديها كتاب مليء بوصفات "مونسو"، كانت تقول إنهم يكتبون هُرَاء في الجرائد، لا يجوز أن تقرأه الآنسات، ولكن ابنة خالتي كانت متعطّشة لمعرفة تلك الأشياء". كانت نوروتسا تعتبر أن ابنتها، وهي أصغر أبنائها، لا تزال طفلة بريئة حتّى بعد أن بلغت الأربعين.

"وهكذا وبفضل هدايا الآنسة ليللا، استطاعت أن تعدّ جهاز عرسها قبلنا جميعاً. وبدلاً من أن تعطيَه للآنا، كما كان ينبغي لها، أرادت الزواج

بلويجي أينتسريللو، عامل المناجم. كانت تُشاغِلُهُ بعينَيْها، فعمّال المناجم كانوا يكسبون جيّداً. لم يكن دَوْرها في الزواج قد حان، ولكنها لم ترضخ لهذا الاعتبار، وطلبت تدخّل الآنسة ليللا في الأمر. وكانت الآنسة ليللا في تلك الأثناء قد خُطبت للمحامي جاني الفاليبي، وتُعدّ لحفل زواج كبير.

أقنعت الآنسة ليللا أمّها السيّدة كارميلا باستدعاء والد نوروتسا وإقناعه بالموافقة على زواج ابنته، بعد أن وعدتْهُ بإلحاق آنا العرجاء بخدمتها. غضبتْ خالتي، بيد أنه تحتّم عليها إطاعة السادة، لكن خالتي وزوجها لم يسامحا نوروستا أبداً على فعلتها. ولم تكن علاقتهما طيّبة بأنسريللو".

سألتْها أنجيلينا وقد سحرتْها قصّة حبّ ابنة خالة أمّها:

"وأنتِ، هل ظللتِ صديقة لابنة خالتكِ بعد زواجها؟"

أجابت الأمّ: "كانت تبحث عنّي عند الحاجة، ولكنها لم تكن صديقة أبداً. هناك أشياء لا يمكن غفرانها، فأختها المسكينة "آنّا" كانت تكدّ وتشقى في العمل في بيت كبير مثل بيت مينا كابيللي، وظلّت تعمل خادمة في المطبخ إلى أن تزوّجت". ثمَّ أردفت: "سأحكي لكِ ماذا فعلت عندما مات زوجها، كي تعي أن الربّ يُعاقِب مَن يُقصّر في أداء واجبه.

أُصيبت بمصائب وأمراض كثيرة، إلّا أن التكبّر كان مُلازِماً لها. بعد موت زوجها، عرض عليها شقيقه جوفاني أينتسريللو، أن يأخذها لتقيمَ في بيته مع ابنتَيْها، كما يقتضي العُرْف. لم يكن يُسعده ذلك بالتأكيد، وكذلك زوجته لم تكن راضية؛ فقد كان يتحتّم عليهما إطعام ثلاثة أفواه، فضلاً عن أن نوروتسا وابنتها أدولارتينا كانتا مريضتَيْن. ظلّت في بيت شقيق الزوج أيّاماً قليلة. وبدلاً من أن تعترف بفضله، رفضتِ العيش معهم، بل إنها تحدّثت عنه بسوء - عن شقيق زوجها الكبير - وأهانتْهُ أمام الجميع. ضربها جوفاني أينتسريللو، وكان محقّاً، وحسناً فعل، فهي لم تحترم كبير العائلة. ومنذ ذلك الوقت قاطعتْها عائلة الزوج. كانت متعالية، ولم تحصل على

أيّ مساعدة منهم، كما أنها لم تطلب أبداً أيّ مساعدة من أينتسريللو".

- "ولماذا لم تشأ الحياة مع شقيق الزوج؟" كانت أنجيلينا تُنصِت إلى أمّها، مأخوذة بما تحكيه، وقد بدت حكاية ابنة خالة الأمّ أشبه بمسلسل تليفزيوني.

- "لأن أنفها كان في السماء. بقيت وحيدة مع ابنتَيْها، وانتهى بها الأمر للعمل كغسّالة في منزل الفاليبي. لم تفقد غطرستها أبداً؛ كانت تقول إن ابنتَيْها ستتزوّجان زيجات جيّدة، وإن أبناءهما سيصبحون مواطنين وأصاحب مهن مهمّة مثل السادة. انظري كيف انتهى بها الحال!".

أضافت نوروتسا برضا: "وعندما ضاق بها الحال، سألتْني المساعدة. أرسلتْ في طلبي، فقد كان المرض قد اشتدّ عليها، ولم تعد تقوى على السير. هرعتُ إليها لعلاقة القرابة التي تربطني بها. أرادت أن تُخبرني باقتراب أجلها، وطلبت منّي أن آخذ ابنتَيْها إلى بيتي، قائلة إنهما سترعيانني في شيخوختي، ولن تجعلاني أحتاج إلى أيّ شيء من خبز أو غموس. وقد كان لديّ بالفعل ابنتان جميلتان وماهرتان. وكيف يعقل هذا؟! كنتُ أُحدّث نفسي؛ لديّ أربعة أبناء، منهم اثنان من الذكور، وهذه تقول إنه ينبغي عليّ أن أرعى أولاد الآخرين، لأعتمد عليهم في شيخوختي! كيف تجرّأتُ على احتقار أبنائي والتأكيد على أن ابنتَيْها ستكونان مصدر ثرائي؟! ولكنْ، لأجل الربّ والعذراء ولأن أمّي وأمّها شقيقتان، لم أردّ عليها كما ينبغي، وأجبتُ أنني سأتحدّث مع زوجي، على الرغم من أنه ليس هناك أمل كبير في موافقته. وفي اليوم التالي عدتُ لأُخبرَها أننا لن نستطيع ضمَّ ابنتَيْها إلينا، وحملتُ لها معي خبزاً وفاكهة وقطعة من الجبن. قالت لي إنها ليست بحاجة لمساعدتنا، وإن السيّدة الفاليبي وضعت أدولوراتينا في مدرسة داخلية، وألحقت الابنة الصغرى بالخدمة لديها. وبهذا اطمأنّت أن البنتَيْن ستحظيان بحياة كريمة".

-"وماذا حَدَثَ بعد ذلك؟!"

-"حَدَثَ ما حَدَثَ! تزوّجت أدولارتينا وتوفّيت شابّة. والأخرى ظلّت في خدمة عائلة الفاليبي، وأصبحتْ أسوأ من أمّها؛ متسلّطة تحتقر الناس. والآن ماتت هي أيضاً. الربّ يُعاقِب الأتراك والمسيحيِّيْن لأعمالهم السيّئة. أنتِ تعلمين جيّداً ماذا فعلتْ بوالدكِ. اذهبي الآن، وألقي بالمياه في حوض شرب الدجاج، ثمَّ ضعي الإناء فوق النار".

9. نوروتسا سالفياتو وزوجها يلعنان منولارا

بعد العشاء، ظلّت نوروتسا وفاني سالفياتو وحيدَيْن، بينما كانت أنجيلينا تقوم بغسل أدوات الطعام من خلف الستارة المعلّقة بسلك من الحديد. كان منزلهم متواضعاً للغاية، وقد جمّلتْهُ أنجيلينا بهذه الستارة من القماش المزركش بالورود، والذي كان يفصل المطبخ عن المكان الذي اعتادت العائلة العيش والنوم فيه.

قالت نوروتسا لزوجها:

-" لم أرغبْ في إخبارِكَ قبل العشاء، كي لا يَعلَق الحساء بحلقكَ. اليوم ماتت منولارا".

بَصَقَ فاني سالفيانو على الأرض وقال: "يبدو لي الهواء الذي أتنفّسه أنظفَ وأنقى، فلم تعد تلوّثه بِنَفَسِهَا".

ثمَّ أضاف فاني: "لقد فقدتُ الصحّة والرغبة في العمل، وقد كانت هذه العاهرة شرّيرة معي. والأدهى أنها كانت ابنةَ خالتكِ". لم تكن نوروتسا تتقبّل النقد بسهولة، وخاصّة من زوجها، فردّت: "وأيّ ذَنْب جنيتُ؟ ألم أكن أوّل مَن قال للأولاد إنها ميتة بالنسبة إلينا، وألّا يُلقي أحد من عائلة سالفياتو عليها السلام إن قابلوها في الطريق، بل يجب أن يديروا وجوههم في الناحية الأخرى كي لا يروها؟ ثمَّ إننا لم نكن نتقابل كثيراً، في روكاكولمبا

السفلى. لم تكن تأتي، فقد كانت تظنّ أنها من السادة، بيد أنها عاشت خادمة وماتت خادمة. أمّا أنا، فأسير في الطريق مرفوعة الرأس أمام الجميع، فعائلتي محترمة وأمينة. ولو كانت أمّها على قيد الحياة، لحزنت لهذه الابنة الوقحة الخائنة لأهلها".

قال فاني: "كانت وقحة حقّاً. أفعالها المشينة في بيت الفالبيي لا تعنيني ولا أريد أن أعرف عنها شيئا، أتذكر فقط ما فعلته معي".

أضافت نوروتسا: "كانت لوتيشيا أندليكاتو تتحدّث عنها اليوم في بيت الفاليبي، وتدعوها بالقدّيسة. لم أشأ الردّ، فقد كنتُ أشعر بأمعائي تتقلّص، ولم أكن لأستطيع التحكّم في كلامي. وبمجرّد وصولنا إلى البيت، حكيتُ لأنجيلينا عن تصرّفات أمّ منولارا الخبيثة، لتتعلّم ابنتنا القدّيسة الحقيقية كيف تعرف الناس".

عند ذِكْر أنجيلينا رقّ قلب فاني، وأراد استدعاء الابنة.

جاءت إليهما أنجيلينا، مطيعة دائمة لأبيها، فأشار اليها بالجلوس بجانبه.

"أنجيلينا، تذكّري جيّداً ما فعلتْهُ بنا قريبة أمّكِ. لأنه بعد رحيلي ينبغي عليكِ أن تحكيه لكلّ مَن وُلد وسيُولَد من عائلة سالفياتو، وهم بدورهم يجب أن يَروُوه كلمة كلمة لكلِّ مَن يتحدّث بخير عن تلك الوقحة في البلدة".

تابع قائلاً: "كان عملي كبائع جوّال للفاكهة والخضروات يُعجبني. كنتُ أرتقي درجات السلالم كلّها، كي أصل إلى روكاكولومبا العليا، وفي بعض الأحيان، كنتُ بنفسي أدفع الحمار المحمّل بأقفاص الفاكهة، وكانت الناس تشتري منّي وتحترمني.

ذات يوم، توقّفتُ أسفل قصر الفاليبي مُنادِياً على بضاعتي. كنتُ أبيع

مِشْمِشَاً حلواً ناضجاً. أطلّت تلك المرأة من الشرفة، واتّفقنا على السعر. أنزلتِ السلّة محمّلة بالثمن بالتمام من الشرفة. أخذتُ النقود، وملأتُ السلّة بالمِشْمِش. سحبتِ السلّة وتبادلْنا التحية. بقيتُ أسفل القصر أبيع المِشْمِش. كان مِشْمِشَاً طيّباً شهياً، وكانت الناس تشتري الكثير منه. عادت تلك العاهرة إلى البلكون، وبدأت الصياح واتّهامي بإعطائها مِشْمِشَاً شديد النضج، وأن المحامي الفاليبي لا يريده، ونعتتْني بالغشّاش المحتال. كانت تصرخ مثل المجنونة، وألقت بحبّات المِشْمِش في السلّة، وأنزلتْها لآخذهم. عرضتُ أن تأخذ بعض حبّات البَشْمَلَة الشهية إلّا أنها قالت: البَشْمَلَة عندكَ غير ناضجة، ولا أريدها، وصمّمت على استرداد النقود التي دفعتْها، ولم تهدأ إلّا بعد أن أخرجتُ النقود وعدَّتْها، فلم تكن تثق بي.

كانت الناس تطلّ من الشرفات، ويتوقّف العابرون ليستمعوا إلى حديثها معي، بسبب عُلُوّ صوتها والألفاظ النابية التي كانت تخرج من فمها مثل ثعابين تتقافز من بين أسنانها البارزة، أصبحتْ قبيحة مثل ثمرة بُرْقُوق مُدَوِّدَة. لم يسبقْ أن عاملني أحد بهذه الطريقة أبداً. وأمّا أن تعاملني بها امرأة، وابنة خالة زوجتي أيضاً، فكانت الإهانة مضاعفة!".

استطرد فاني بصوت منخفض ونظرة حزينة: "لستُ أدري كيف استطعتُ البيع في ذلك اليوم ولا في الأيّام التي تلتْهُ. كان المِشْمِش طيّباً، ولم يكن فيه حبّات تالفة. وإذا كان فيه بعض الحبّات، ما ذَنْبي أنا؟ لقد اشتريتُهُ ودفعتُ ثمنه على أنه مِشْمِش طيّب، وكان ينبغي لي أن أبيعَهُ كلّه. وكان من الأفضل بَيْعه للأغنياء الذين يمكنهم رَمْي نصفه دون أن ينتابهم الجوع. كان عمري قد تعدّى الخمسين، وكنتُ مريضاً وبحاجة إلى العمل لأعولَ عائلتي، وإلّا لما كنتُ ذهبت أبداً لروكاكولومبا العليا. عندما كنتُ أمرّ أسفل بيت الفاليبي، كنتُ أشعر بساقَيّ ترتجفان. والحمار أيضاً لم يكن يريد صعود السُّلَّم الذي يؤدّي إلى منزلهم".

نظر إلى أنجيلينا ومَسَحَ بحنان على ذقنها، ثمَّ قال بصوت عالٍ: "ابنتي الرقيقة، الحلوة، كوني ذكية وحكيمة، وتذكّري أنه يجب ألّا ينسى أحد من أبنائي أو أحفادي أن تلك السيّئة قريبة أمّكِ كانت خادمة وعاهرة في بيت المحامي الفاليبي".

فتحت أنجيلينا وأمها أعينَهما بوجوم، ولم تدريا بماذا تجيبان.

فاني، وقد أدهشتْهُ شجاعته وشعر بالرضا عن الأثر الذي أحدثتْهُ كلماته على وجه ابنته وزوجته، استند إلى ذراعَيْه وحاول أن يقوم بمفرده، رافضاً العصا التي قدّمتْها له نوروتسا. نجح في الوقوف على قدمَيْه، واتّجه ناحية باب المنزل، سائراً بثبات فوق ساقَيْه المعوجّتَيْن، كما لو أنه قد استعاد أخيراً مرونة الحركة مع استعادة كرامته التي سلبتْها منه منولارا منذ عشرين عاماً.

ظلّ واقفاً عند عتبة الباب، رفع نظره ببطء، كانت روكاكولومبا العليا تظهر مهيبة. وأضواء المنازل القابعة فوق الجبل تعطي الإيحاء بمغارة عيد ميلاد مضيئة، تجثو تحت أقدامها بيوت روكاكولومبا السفلى الفقيرة المسحوقة.

التفت فاني إلى زوجته التي تبعتْهُ وقال:

"نوروتسا، هناك في الأعلى بيت العاهرة ابنة خالتكِ. اِعْلَمِي، أني، سالفياتو فاني، ألعنُها ميتة أيضاً".

الثلاثاء 24 سبتمبر 1963

10. موظف المساحة بوماريتو لم يتناول قهوة الصباح

في ذلك الصباح من يوم 24 سبتمبر 1963 كان موظف المساحة بوماريتو يصعد إلى الميدان، متشوّقاً إلى تذوّق القهوة الساخنة التي تنتظره في المنزل.

كانت الساعة حوالي الثامنة صباحاً، وكان قد أنهى أحد واجبات اليوم: الزيارة التقليدية للحلاّق بعد فترة الإجازة. كان هواء الصباح يدغدغ وجنتَيْه الحليقتَيْن النضرتَيْن. كان بوماريتو مُحقّاً بالشعور بالرضا عن نفسه، وقد وجده الحلاّق في صحّة جيّدة، وأثنى عليه، وقد سلاّه كثيراً بالحديث ذلك الصباح. فقد روى له دون بياجيو الأخبار الجديدة للبلدة، تلك التي يمكن معرفتها فقط من الحلاّق: عن الأجنبية الجميلة التي تعمل في بيت الدعارة بجوار المقابر والنهمة دائماً (مفهوم طبعاً لأيّ شيء)، ويلزم حمولة سفينة من الأموال لإرضائها، عن مغامرات توتو ريزي الذي قد يفقد حياته ذات ليلة إذا واصل زياراته لغرفة نوم زوجة الصيدلاني في الليل، سائراً فوق الأسطح بينما الزوج يكدح في الصيدلية في نوبة الليل لكسب العيش.

أبطأ السير عند التقاطع مع شارع بارا(*)، فكّر - سعيداً بمزاجه الرائق - أن اسم الشارع مناسب، حيث تُعلّق إعلانات الوفاة فوق أسوار قصر أرتوا الملساء. لاحظ إعلانَيْن جديدَيْن. حدّث نفسه "لنرى مَن مات".

---

*) بارا تعني تابوت الميت باللغة الإيطالية.

المدرسة ماتيلدا كاكوباردو عن واحد وثمانين عاماً، كما يذكر الإعلان الأوّل. قرأ العبارات المعتادة في تلك المناسبة، وسجّل موعد الجنازة، ليُخبر بها زوجته، كي تذهب لأداء واجب العزاء.

الإعلان الثاني كان يخصّ ماريا روزاليا أينتسريللو، تُوفّيت عن خمسة وخمسين عاماً. علّق "مجهولة لا يعرفها أحد. المسكينة كانت في عمري نفسه"، وواصل طريقه.

دقّ جرس الباب، لم يفتحوا له فوراً كما كان يتوقّع. دقّ الجرس مرّة أخرى، دون ردّ. أخرج المفتاح من جيبه، وقد أزعجه قليلاً تأخّر الزوجة والخادمة في فتح الباب. وهو عدم احترام من جانب نساء البيت له. لم يرهما عند باب البيت. دخل إلى المطبخ متلهّفاً لشرب القهوة الساخنة، وكان لم يزل رائق المزاج. وجدهما هناك، تطلّان من النافذة.

كانت الخادمة أنطونيا مستلقية فوق مقدّمة النافذة وكأنها على وشك السقوط، وقَدَمَاها بالكاد تلمسان الأرضية، وثوبها المرفوع عند مؤخّرتها يُظهِر ساقَيْها الممتلئَتَيْنْ. حدّث نفسه، سعيداً بمحافظته على الشعور بالحبور الذي لازمه منذ الصباح: "مؤخّرة الأجنبية في بيت الدعارة كانت ستقدّم منظراً آخر بالتأكيد".

قال بصوت عالٍ: "لقد عدتُ".

لم تتحرّك الخادمة، فقد كانت منهمكة في سماع أحاديث النسوة في الدَّور الأسفل. استدارت الزوجة وقالت: "آه منيكو، هل عدتَ؟ أسمعتَ بموت منولارا؟"

في هذه المرّة، غضب موظف المساحة بالفعل، فلم تفكّر الزوجة في تقديم القهوة، وأجاب: "حبيبتي ميموتسا، ومَن كان ينبغي أن يُخبرَني بذلك؟ الحلّاق مثلاً؟"

أجابت الزوجة بحماس:

"ألم تقرأ الإعلان في ركن شارع بارا؟ لقد ألصقتْهُ عائلة الفاليبي فوق الأسوار جميعها". وأخيراً قدّمت له القهوة.

فهم موظف المساحة بوماريتو أخيراً سبب انفعال نساء منزله. عندما تذوّق القهوة الساخنة ذهب عنه الضيق، بل تمتّع بالمظهر الجميل لزوجته، والتي عادت هي الأخرى لتوّها من الكوافير، وتزيّنت استعداداً للذهاب إلى المدرسة.

أردفت الزوجة:

"هذه هي المرّة الأولى التي يقوم بها سادة (أرباب العمل) كما يقال الآن، بتعليق إعلان وفاة للخادمة. لمنولارا ابنا أخت. وقد شاركت عائلة الفاليبي كلّها بنفسها في الإعلان. يجب أن ترى ماذا كتبوا. اذهبْ واقرأ النعيَ من أجل خاطري. عندما عدتُ كانت السيّدة كورتانو تكرّره على مسامعي. تقول إنهم بدؤوا النعي بمقدّمة من الثناء والإطراء عليها. ونحن نعلم جميعاً كيف كانت غليظة الطِّباع. أنا كنتُ زميلة دراسة لكارميلا، وأعلم هذا جيّداً". كانت ميمي بوماريتو تحكي وتخبط بيدها اليمنى فوق صدرها مكرّرة: "أنا أعلم، وكيف لا أعلم؟!"، لتأكيد قولها. وقد فُتِحَ الروب كاشفاً عن ثديٍ ممتلئ. عاود الزوج التفكير في الأجنبية، وهذه المرّة راهن أن تلك العاهرة ليس لديها ما لزوجته الشابّة المثيرة من صدر بَضّ. وهكذا لم يستطع بوماريتو مقاومة الإلحاح العذب لحبيبته ميمي، ورجع بسرعة إلى شارع بارا، حيث تجمّع الناس لقراءة إعلان وفاة أينتسريللو، كي يكرّر لزوجته ما كتب بالحرف:

"بالأمس تُوفّيت فجأة

ماريا روزاليا أينتسريللو

عن عمر خمسة وخمسين عاماً

من منزل عائلة الفاليبي

يعلن الخبر الحزين السيّدة أدريانا مانجرشينا أرملة المحامي أوراتسيو الفاليبي، الابن جاني مع زوجته آنا كيوفارو، الابنة ليللا وزوجها الدكتور جان ماريا بولا والابنة كارميلا وزوجها.

التحقت بخدمة العائلة في سنّ الثالثة عشرة، وعاشت في منزلهم منذ ذلك الحين، وخدمت بكلّ الحبّ والإخلاص العائلة التي تبكيها. ستشيع الجنازة اليوم في الساعة الثالثة في كنيسة "لادولوراتا"، وستُدفن الراحلة في مقبرة العائلة في روكاكولمبا".

كانت جارتهم في الشُّقَّة المقابلة والجارات الأخريات في البيت في انتظاره. لم يتركنَ له الوقت ليعيد إعلان الوفاة كاملاً، كنّ يقاطعنَهُ بتعليقاتهنّ في وقت واحد. "يشعرنَ بألم وحزن حقيقيَّيْنْ! كارميلا كانت تكرهها، وليللا لم تعد تقضي الإجازات في روكاكولمبا بسببها! فهذا البيت لم يجرّب مشاعر الحبّ ولو لمرّة".

"الخادمات يُدفَنّ في مقابر العائلة، أصبحنا جميعاً أخوة"

"لو كان المحامي الفاليبي حيّاً، لم يكن ليسمح بهذا الأمر".

"وأبناء شقيقتها الذين كانت تتباهى بهم كثيراً، لماذا لا يشاركون في جنازة خالتهم؟!"

استطاع بوماريتو بصعوبة التخلّص من أولئك النسوة، وذهب إلى عمله تاركهنّ للثرثرة والنميمة.

وفي الطريق لاحظ أن العديد من أبناء بلدته يتوقّفون لقراءة إعلانات الوفاة، ويتهامسون أمامها.

كان خبر وفاة منولارا قد تمّ لَصْقه في الأماكن جميعها التي تسمح فيها البلدية بلصق الإعلانات. بالتأكيد جلبت منولارا الأموال الكثيرة لعائلة الفاليبي شديدي البخل، كي تستحقّ هذه النفقات كلّها. لم تكلّفه أبداً بعمل لعائلة الفاليبي. كانت سيّدة تستحقّ النسيان.

قرّر أنه على الرغم من أن إعلان موت خادمة بدعة من العصر الحديث أو العهد الديمقراطي، إلّا أنه ما كان ليُنفقَ ليرة واحدة لإعلان وفاة خادمة، بل إنه سيتذكّر أن يتحدّث الليلة مع زوجته عن هذا الأمر قبل أن تبدأ في إعطاء وعود لخادمتهم أنطونيا.

ثمَّ عاد إلى القصص اللذيذة عن الأجنبية، تلك التي تستحقّ أن يُنفق من أجلها الأموال بدلاً من المرحومة منولارا التي لم تكن جميلة أبداً، ولم تعرف المتعة الحسِّيَّة.

وبمجرّد وصوله إلى المكتب، تذكّر أنه لم يُخبر زوجته بوفاة السيّدة كاكوباردو. هذه امرأة مهمّة حقّاً، فهي حماة مدير المدرسة التي تعمل بها ميمي بعقد مؤقّت، وتبحث عن فرصة للتثبيت. مَن يدري كم من باحثين عن عقود مؤقّتة قد اتّصلوا فعلاً بمدير المدرسة بحجّة تقديم التعازي ولعن منولارا؟!

11. ماريكيا بيتاريزي تلعن منولارا بعد أن علمت بوفاتها في أثناء زيارتها لمحلّ الخردوات الحديثة

في الصباح الباكر، ذهبت ماريكيا بيتاريزي إلى الميدان لشراء خيوط للتطريز من محلّ الخردوات الحديثة. وجدت المحلّ ممتلئاً بالزبائن، وكانت الآنستان أروتا، صاحبتا المحلّ، لا يقدّمان الخدمة على طاولة الزبائن، بل يثرثران بالإيطالية الفصيحة مع بعض السيّدات، وقد تركتا للبائعة مهمّة خدمة الزبونات. ماريكيا وقفت في مكان منفرد، مدرِكة لمكانتها

الاجتماعية، بينما كانت السيّدات الأخريات يتدافعنَ إلى طاولة المحلّ مماطِلات في الشراء بحجّة انتقاء البضائع، بينما هنّ، في حقيقة الأمر، يسترقنَ السمع لحديث صاحبتَي المحلّ المسلّي. كانت ماريكيا أيضاً تحاول أن تفهم موضوع تلك المناقشة. وبصعوبة أدركت في النهاية أنه موت منولارا. أرهفت السَّمْع، إلّا أن البائعة سألتْها في هذه اللحظة عمّا تريد. وفي طريق العودة، قرّرت المرور ببوّابة دون فيتو ميليتيللو، لتعرف تفاصيل ذلك الموت المفاجِئ.

لم يتح لها الوقت لطرح الأسئلة، لأن دونا إنزا، وبمجرّد دخولها من البوّابة، أحضرت لها مَقعَداً، وبادرتْها وهي تغمز بعينَيْها الضاحكتَيْن قائلة:

"ماريكيا، كان الجمع ينقصكِ. احكِ لنا كيف كانت منولارا وقد عملتُما معاً في منزل الفاليبي. أنتِ بالتأكيد تعرفين الكثير!"

لم يكن تذكّر تلك الفترة القصيرة الحزينة يُعجب ماريكيا. وافقت أن تحكيَ مقابل الحصول على المعلومات، ولكنها أرادت أن تؤجّل ذلك لبعض الوقت.

قالت وهي تمسح بيدها فوق جبهتها وتستند إلى ظَهْر المَقعَد الخشبي مدَّعية الإرهاق والشعور بالتعب الشديد: "أعطوني أوّلاً كأساً من المياه، أنا مُنهَكَة". في أثناء ذلك كانت تستمع لحديثهم.

دونن باولينو أنونسيتا، وقد أسند قدمَيْه إلى العود الواصل بين أرجل المَقعَد الذي قبع فوقه، مباعِداً ما بين ركبتَيْه وواضعاً يده فوق مقبض العصا التي كانت تتأرجح بين ساقَيْه، أخذ يحكي بحماس:

"كنتُ موجوداً في اليوم الأوّل الذي بدأت فيه منولارا العمل في بيت السيّدة ليللا. كان واضحاً أنها معتادة على حياة الريف؛ كانت بِرِّيَّة الطِّباع بحقّ. جاءت إلى المطبخ في ساعة الغداء، ولم ترد الجلوس إلى المائدة

مع بقية الخَدَم، بل تسمّرت أمام النافذة، تشاهد فناء المنزل مثل عصفور صغير في القفص".

علّق دون فيتو: "نعم، عصفور. أصبحتُ شاعراً. تلك كانت ذئبة، استمعْ لما أقوله".

وضّح دون باولينو: "بل كانت تبدو عصفوراً صغيراً خائفاً، حيواناً برّيّاً صغيراً حبيساً. لازلتُ أراها ماثلة أمام عينَي. لم تشأ الجلوس معنا لتناوُل طعام الغداء، مع أنها كانت تتضوّر جوعاً، فقد كانت نحيلة مثل العصا. أعدّت لها بينا فاسيللو طبقاً من المكرونة، وحملتْهُ إليها عند النافذة. كات تلتهم الطعام بيدها وبالشوكة من شدّة الجوع، وقد بقّعت ثيابها بالصلصة. لم تكن تعرف قواعد الطعام مثل بقية الناس. ثمَّ أعطتْها بينا قطعة اسكالوب، فأمسكتْ بها بيدَيْها وقطعتْها بأسنانها تقريباً دون مضع. لم توجّه لنا كلمة شكر، أو ابتسامة. ظللْنا واجمين ننظر إليها. ومنذ ذلك الحين استمرّت بالأكل بمفردها بعيداً عنّا جميعاً. وإن اضطرّت للجلوس إلى المائدة في المطبخ، كانت تزدرد الطعام دون حديث، وتنهض من فورها للعمل. كانت صعبة الطِّباع، وبقيت كذلك. كانت إن وجَّه اليها أحد سؤالاً ينتفض جسدها كلُّه وتجيب وكأنها تعوي، وتُطلق نظرات مثل كلب مستعدّ للدفاع عن نفسه. كانت عيناها سوداوَيْن مثل قطعتَي جمر، تلفحان مَن يخاطبها بكلمة".

أضاف دون فيتو: "استمرّت على هذا المنوال. كانت إنسانة سيّئة الطِّباع. أذكر ذات يوم أنها توجّهت لشراء بعض الأشياء للبارونة. قابلتُها عند السُّلَّم عند عودتها إلى منزل الفاليبي محمّلة بأشياء ابتاعتْها من السوق. كانت تذهب إلى السوق في الصباح الباكر لاختيار أفضل البضائع. رأيتُها تتعثّر في سيرها، وسقطت أكياس من يدها، فوقعت فاكهة جميلة وخضروات فوق الأرض، وتحطّمت أوانٍ من الخزف فوق السلالم.

جريتُ لمساعدتها، فصارت تصرخ، كما لو أنني كنتُ أريد مضايقتها: "اذهبْ بعيداً، لا أحتاج مساعدة من أحد". جمعتْ ما وقع منها في لمح الصر .. الفاكهة، الخزف المكسور، الورق، ووضعت هذه الأشياء كلّها في الأكياس، وواصلت صعودها دون أن تُحيِّيني بصباح الخير. الله وحده يعلم ما الذي ظنّه بي المارّة القليلون في ذلك الوقت عندما انتبهوا إلينا وتوقّفوا لمشاهدتنا! لم أشعر أبداً بمثل هذه الإهانة. منذ ذلك الحين اعتدتُ إلقاء التحية عليها، لأن التحية لا ينبغي حجبها، بيد أنني لم أخاطبها بكلمة واحدة بعد ذلك".

سألت ماريكيا: "متى الجنازة؟" وكانت تودّ الانصراف بعد أن حصلتْ على هذه المعلومات.

قالت لها دونا إنزا: " ألم تشاهدي النعي في الطريق؟ لقد علّقتْهُ عائلة الفاليبي في كلّ مكان، تماماً مثلما فعلوا مع المحامي الراحل". ثمَّ أردفت: "ماريكيا! لا تنصرفي، أخبرينا كيف كانت منولارا مع المحامي الفاليبي؟ أنتِ بالتأكيد تعرفين".

اضطرّت ماريكيا للحديث: "كيف كان هو؟ لا أعلم، لكني أعرف كيف كانت هي. التحقت بخدمة عائلة الفاليبي بعدها بنحو خمس سنوات. كانت قد أصبحت الخادمة الخاصّة للسيّدة ليللا. ولكنْ، عند عودة أوراتسيو، ابن السيّدة، من كاتينيا لقضاء الإجازة، كانت تلك تبذل كلّ ما في وسعها لخدمته، كانت تغازله، العاهرة، ولكنه لم يكن حتّى ينظر إليها".

توقّفت ماريكيا عن الحديث، لترى وَقْع كلماتها وتلتقط أنفاسها.

دون باولينو استدار ناحية الباب الذي يؤدّي إلى رواق البوّابة، وارتسم تعبير على وجهه؛ فضمّ شفتَيْه إلى أسفل، وقوّس حاجبَيْه. أردفت ماريكيا: "مَن هي مثلها كان يجب أن تمشي مطأطأة الرأس بعد ما فعلتْهُ عندما كانت تجمع اللوز في الحقول. ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون الخجل. كانت

السيّدة ليللا تحبّها وتصدّق ما كانت ترويه من حكايات سيّئة. لحسن حظّي أني تركتُ العمل لديهم وتزوّجت". كانت ماريكيا قد تحدّثت كثيراً، ونهضت للعودة إلى البيت قبل أن تضطرّ للإجابة عن أسئلة أخرى.

وفي الطريق كانت تلك الفترة الحزينة التي قضتْها في بيت الفاليبي تتراءى أمام عينَيْها. كانت في ذلك الوقت مخطوبة لابن عمّ تحبّه، وكانت تتعجّل الزواج، لذا قرّرت الذهاب للخدمة لإعداد جهازها بسرعة. كان أوراتسيو لا يزال طالباً، وقد لاحظها وانجذب إليها.

كانت ماريكيا تعلم أنها فتاة جميلة ذات شَعْر مموّج لامع وقَدٍّ جميل متّسق، ولكنها كانت فتاة مخلصة، وأرادت أن تحتفظ بعذريّتها لخطيبها. ولم يكن أوراتسيو يهدأ؛ كان يناديها لتحضر له كأساً من المياه أو لتقوم بالخدمة في غرفته، وكان يتحتّم عليها إطاعة أوامره. ولأنها كانت تعلم أنه كان يجرّدها من ثيابها بعينَيْه كانت ترتجف عندما تبقى وحيدة معه، إلّا أنها أفهمتْهُ بأدب أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً معها.

أدركتْ منولارا اهتمام أوراتسيو بها. فكانت تكلّفها بأكثر المهامّ الشاقّة في المطبخ والمخازن، كي تُبعدها عن عينَي العازب وذهنه. ليس لحمايتها، بل لأنها كانت تشعر بالغَيْرة، فعلى الرغم من تقاربهما في العمر، لم تُظهِر أبداً صداقة أو مجاملة نحوها.

ذات يوم استدعتْها السيّدة الفاليبي، وأخبرتْها بنقص بعض المناديل المطرّزة، والتي كانت ماريكيا قد وضعتْها في أُدرَاج السيّدة. أجابت ماريكيا وقد شعرت بالإهانة لهذا الاتّهام:

"أنا لم أسرق شيئاً. إذا لم تجديها، فقد أخذها أحد غيري". ومنذ ذلك الوقت، كانت تشعر بمراقبة السيّدة ومنولارا لها. وبعد أيّام قليلة سألتْها السيّدة الفاليبي عن بعض الأغطية الصوفية التي كانت قد غسلتْها مؤخّراً. فهمت ماريكيا ما يُدبَّر لها، ورَجَت أمّها أن تترك العمل في ذلك المنزل،

وهذا ما حَدَثَ. وعندما كانت على وشك الانصراف، اقتربت منولارا منها وأعطتْها مظروفاً، قائلة: "طلبت منّي السيّدة ليللا أن أطلب منكِ ألّا تتحدّثي مع أحد وأن لا تشكريها. إنها هدية زواجكِ". كان هناك مبلغ يعادل أجر شهرَيْن من المرتّب؛ مبلغ كبير من المال نفعَها، ولم تجرؤ على رَفْضه.

قالت ماريكيا بصوت عالٍ: "ما أقبح الفقر!".

كانت متأكّدة أن منولارا قد أعطتْها هذا المبلغ، كي تسامحها على سوء تصرّفها معها. أمّا منولارا، فلم تحظَ أبداً باهتمام المحامي أوراتسيو، بل تحتّم عليها خدمة عائلته كلّها واستضافة أرملته في بيتها، ممّا يؤكّد أن اللهُ يعاقِب الأشرارَ.

فكّرت ماريكيا ضاحكة:

"ومكافأة لها ستدفع عائلة الفاليبي الآن تكاليف جنازتها!". ماريكيا بيتاريزي وعائلتها لن يذهبوا إلى جنازة منولارا.

12. دون جوفانيني بينزيمونيو يستعيد الذكريات في نادي "الكونفيرساتسيوني"

كان العمّ بيبينو كونيليو قد أضاع وقتاً في المخبز. كان يتنفّس بصعوبة عند ارتقاء السلالم القائمة المؤدّية إلى الميدان، وكان قد تأخّر في الوصول إلى نادي الكونسيرفاتسيوني، وخشي أن يكون عضو آخر قد استولى على نسخة جريدة "سيشيليا"، ويحرمه من متعة أن يكون أوّل مَن يقرأ الجريدة.

وكانت المفاجأة أن وجد أصدقاءه مستغرقين في حديث مفعم بالحيوية والإثارة، فلم يخطر ببال أحدهم أخْذ الجريدة، التي بقيت كما هي فوق المَقعَد في انتظاره.

ظلّ واقفاً يستمع إلى حديثهم وقد احتضن بين ذراعَيْه كيس الخبز،

الذي انبعثت منه رائحة الخبز الطازج الساخن، ونسي الآلام الروماتيزمية في ساقَيْه.

وفي ذلك الصباح كان العديد من الأشخاص يلتفّون حول دون جوفانيني بينزيمونيو البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً. كان بقية الأعضاء يجلسون حوله، ويتدخّلون في الحديث بين الفينة والأخرى، مضيفين بعض التفاصيل للقصّة التي يحكيها دون جوفانيني بحيوية، ويضحكون ملء أشداقهم مثل صِبْيَة صغار.

لم يفهم العمّ بيبينو في بادئ الأمر عمّن يتحدّثون.

"كانت تتسلّق الأشجار مثل القِرَدَة؛ قَدَمٌ هنا ويد هناك، وتمتطي الأغصان، ثمَّ تقفز من فرع لآخر، تتعلّق بالفروع المحمّلة بالزيتون، وتتقافز فوقها لتهرّها كما لو كانت ترقص فوق الفرع السفلي ارتفاعاً وهبوطاً". نهض دون جوفانيني وأخذ يقلّد الحركات وقد باعد بين ساقَيْه ثانياً ركبتَيْه.

"كانت تتسلّق الأشجار حافية. لم تكن قدماها الحافيتان تحسّان بخشونة لحاء الجذوع التي تمسّها بالكاد من شدّة الرشاقة والخفّة. لم أرَ مثلها خلال ستّين عاماً من عملي في الحقول. كانت حبّات الزيتون تتساقط مثل كريات الثلج، وكان الصِّبْيَة ينظرون إليها من الأرض بأفواه فاغرة، ويحاولون الاقتراب تحت الشجرة، فتُبعدهم حارسة الحقول".

قال ماريو لوجاربو متعجّباً وعيناه تلمعان لتذكّر متع حسِّيَّة مَنسِيّة:

"كانوا يريدون رؤية فخذَيْها، وليس جَمْع الزيتون!" كان الآخرون يضحكون. وكلٌّ منهم يضيف تعليقاً:

" وأيّ ساقَيْن!"

"كانت غضّة نضرة!"

"كانت صغيرة السِّنِّ، وكان لها جسد أنثى بَضّ".

" وكيف عرفتَ؟ هل لمستَها؟"

كان العمّ بيبينو يسأل: "مَن؟"، لكنهم لم يعيروه اهتماماً، فقد كانوا منهمكين ومستمتعين بالذكريات المثيرة، تسلّيهم التعليقات المرحة التي كانوا يظنّون بأنهم لم يعودوا قادرين على إطلاقها.

أخيراً خاطبه دون جوفانيني: "هل تذكر منولارا، التي كانت في طفولتها تعمل في أرض البارون بوتريسكا؟"

أجاب بيبينو: "نعم"، وقد أُصيب بالإحباط، فقد كان يعتقد أنها نميمة عن امرأة أكثر جاذبية من خادمة عائلة الفاليبي. "ولكنْ، لماذا تتحدّثون عنها؟"

قال ماريو لوجاربو، ولا زالت عيناه تدمعان من الضحك:

"ألم تقرأ النعي في الطريق؟ لقد ماتت البارحة".

ولأنه كان عجوزاً بائساً، فقد قرّر بيبينو، الذي كان يشعر بالغضب، لأنه لم يستطع الضحك مع الآخرين، أن ينغّص عليهم مرحهم، فردّ:

"من الجميل الحديث عن الراحلين الذين لم يُواروا الثرى بعد، والسخرية منهم أيضاً. أرجو ألّا تفعلوا معي ذلك بعد رحيلي".

بادره ماريو لو جاربو بردٍّ أسكتَهُ: "لا يجيد الحديث إلّا عن المصائب".

ضحك الآخرون، فقد كان العمّ بيبينو يستحقّ ذلك الردّ الجارح.

شعر دون جوفانيني، على العكس، بأنه مُلامٌ. ولكنه أراد الاستمرار في الحديث، مأخوذاً بالذكريات:

"بيبينو، صحيح أن منولارا - يرحمها الله - قد ماتت بالأمس، إلّا أننا هنا لا نتحدّث عنها بسوء، بل نمدح جمالها".

أضاف جاسبري بونتي: "أعتقد أن المرحومة لو علمت أننا لا زلنا معجبين بها، لشعرتْ بالرضا. عندما كانت شابّة كانت تعي جمالها، وكان يُعجِبها أن ينظر إليها الآخرون!"

عادوا للحديث عن منولارا، ولكنْ، هذه المرّة بنبرة أكثر جِدِّيَّة، ثمَّ عرّجوا مرّة أخرى إلى المزاح. فقال جاسبري ضاحكاً: "كانت تضرب مَن يمدّ يده ليساعدَها بالعصا، ضربات قوية!"

سأله دون جوفانيني:

"لماذا، هل حاولتَ أنتَ أيضاً؟"

"لا، مَن كانت تُواتيه الشجاعة؟! فالكلمات البذيئة التي كانت تخرج من فمها عند الغضب .. وكم كانت تعرف منها! وصوتها!"

أضاف ماريو لوجاربو:

"كان صوتها أقوى الأصوات جميعاً، فكانت الحارسة تلجأ اليها لمناداة شخص من بعيد عند الحاجة. كانت تبدو وكأنها مغنّية، ليتها احترفت الغناء. كانت تعجبني كثيراً عندما كانت تدندن مع الفتيات وعمّال الحقل، ويرتفع صوتها بعذوبة. ثمَّ إنها كانت تتحرّك في أثناء الغناء واضعة قبضتَي يدَيْها على جانبَيْها، ويتمايل جسدها كلّه مع الغناء". وقف وأخذ يقلّد حركات منولارا، واضعاً يدَيْه فوق جانبَيْه، محرّكاً خصره فوق ساقَيْه النحيلتَيْن المعوجّتَيْن.

ضحكوا مرّة أخرى، وكان بيبينو الذي استسلم يشاركهم الضحك.

"عندما كانوا يزنون أجولة المحصول اليومي، كانت تُلقي بها فوق الميزان وكأنها مملوءة ريشاً. كانت معجونه بالحديد".

قال دون جوفانيني بجِدِّيَّة:

"من الحديد والنار".

ثمَّ أردف، ولم يكن قد غفر لبيبينو عتابه المبرّر له، وقرّر أن يُشعِرَهُ بالذَّنْب، لأنه اشترك في الضحك معهم:

"ثمَّ خمدت تلك النيران، مسكينة".

ورويداً رويداً، هدأ بقية الأعضاء وإن لم يصمتوا، فدماء الشباب التي أثارها الحديث عن منولارا كانت لا تزال تسري في شرايينهم الواهنة العجوز.

وقد روادتْهم الذكريات، تابعوا الحديث بحنين إلى حياة الريف. وللمرّة الأولى أصبح المنتدى يعبّر عن اسمه (المحادثة)، فقد واصلوا الكلام، بينما بقيت الجريدة متروكة كما هي فوق المَقعَد.

عند منتصف النهار، بدأ الأعضاء يستعدّون للعودة إلى بيوتهم لتناوُل طعام الغداء، وكان الأكثرشباباً من بينهم يلتقون أيضاً بعد الظهيرة.

اقترح دون جوفانيني: "بعد هذا الضحك كلّه بسببها، أعتقد أنه من الواجب حضور جنازتها. فما رأيكم؟"

هكذا ضحّوا براحة القيلولة عرفاناً منهم بجميل منولارا التي أثارت مرحهم، وأيضاً لإحساسهم بالخجل لعدم احترام الموت. ذهب إلى الجنازة جمع غفير من نادي "الكونفيرساتسيوني"، ممّا أثار دهشة الحاضرين وفضولهم.

13. جاسبري ريسيكو، موظّف في مكتب البريد وسكرتير الحزب الشيوعي الإيطالي بمدينة روكاكولمبا وزوجته إلفيرا

في صباح 24 ديسمبر، أغلقت بيكوريللا المكتبةَ نصف ساعة قبل

موعدها، كي تستطيع صاحبة المكتبة روزاليا مانجرشينا بيكوريللا إعداد الغداء والذهاب إلى جنازة منولارا. إلفيرا ريسيكو العاملة في المكتبة، استغلّت تلك الفرصة لشراء بعض سمك السردين الطازج من بائع السمك، لتحضيرها لزوجها الذي كان يعشق السمك في أيّام الأسبوع كلّها، وليس فقط يوم الجُمُعة.

كانت إلفيرا في المطبخ تقلي أسماك السردين التي فتحتْها ونزعتْ منها الشوك وقلّبتْها جيّداً في الدقيق، عندما دخل زوجها خفية، وأحاط خصرها بذراعَيْه، واحتضنها بحنان. كانا متزوّجَيْن منذ ثمانية أشهر، وكان الناس يقولون عن حقّ إن كلّاً منهما مجنون بالآخر.

وبينما كان يقبّل عنقها المبلّل بقطرات العَرَق من حرارة الزيت المغلي، سألها جاسبري كيف عادت مبكّراً إلى المنزل؟

"دعني، يا جاسبري، لا تعطّلني، ألَا ترى أنني أقلي السمك؟! سيتعجّن إن لم أقْلِهِ فوراً". كانت تتحدّث عن غير اقتناع، لأن لمسات الزوج قد تزايدت، وهو الآن يتحسّس ثدييْها وفخذَيْها وجانبَيْها، وكانت تشعر بالنشوة وابتلال ريقها بعذوبة. "لقد ماتت خادمة عائلة الفاليبي، أقارب السيّدة بيكوريللا التي أغلقت المكتبة مبكّراً للذهاب إلى الجنازة".

خفّت الشهوة للحظة، ثمَّ اشتعلت. قال الزوج مطوّقاً جانبَيْها، ضاغطاً بجسده نحوها: "لعلّها أينتسريللو. لقد رأيتُها الأسبوع الماضي في مكتب البريد، وكانت تبدو مرهقة".

توقّف لحظة، ثمَّ أردف: "كانت امرأة شرّيرة، من النوع الذي يجب الحذر منه".

كانت إلفيرا تشعر أن أسباب إعجابها بزوجها تزداد يوماً بعد آخر. ذلك الزوج المثقّف الذي يعرف كلّ شيء عن الناس كلّهم، ويتأمّل جيّداً قبل

إصدار حكمه، وأفكاره دائماً عميقة وحكيمة، وأضافت "على الرغم من أن السيّدة بيكوريللا حكت لي أنها كانت سيّدة طيّبة، أحبّت عائلة الفاليبي كما لو كانت عائلتها، وخدمتْهم بإخلاص طوال حياتها".

ثمَّ قاطعت حديثها وقد ندمت على استخدام تعبير بورجوازي "خدمت".

خجلت من جهلها، وواصل جاسبري عضّ حَلَمَةِ أُذُنها.

واصلا الثرثرة حول المائدة وهما يلتهمان أسماك السردين الساخنة المقرمشة.

سألت إلفيرا:

"لكنْ، لماذا وضعت عائلةُ الفاليبي الإعلانَ في الطريق؟! ولمَ يقيمون جنازتها؟! أليس ذلك من واجب عائلة الراحلة؟!" كانت إلفيرا التي تتحدّر من سيركوزا تتوق للاندماج في بلدة الزوج، حيث ستقضي حياتها كلّها ما لم ينتقل الزوج إلى مدينة أكبر بسبب نشاطه السياسي.

ردّ جاسبري:

"هؤلاء الأوغاد يجب أن يتعلّموا كيف يعاملون العاملين لديهم باحترام في أثناء حيواتهم وليس بعد موتهم. انيسريللو مثال مخجل للبروليتاريا التي تخضع لطبقة أصحاب رؤوس الأموال وتعامل الآخرين بغطرسة. أعرف ذلك، وقد أجبرتْها على الالتزام بحدودها مرّات عديدة في مكتب البريد. كانت تتصرّف بتكبّر وكأنها بارونة، بارونة فيما يخصّها!" لم يضف شيئاً آخر، فقد كان يضايقه أن يحكيَ أنه منولارا، في الحقيقة، كانت هي مَن وبّختْهُ أكثر من مرّة عند تغيّبه في أثناء ساعات العمل عن مكتب استقبال الشكاوى. حيث كان يتسلّل يومياً إلى مقرّ الحزب لقراءة جريدة "أونيتا"، وكان مدير المكتب، زوج عمّته الذي بفضله حصل على الوظيفة، يسمح له بذلك.

كانت منولارا قد زجرتْهُ كما لو كان تلميذاً في المدرسة. وهي التي بالكاد تعرف الكتابة، أفهمتْهُ أنها على علْم بغيابه المستمرّ عن العمل، وأن عليه إعطاء القدوة الحسنة للموظّفين، كي يحترموه.

كان تأثير خطبة جاسبري الحماسية القصيرة بالمقارنة مع ما اعتاده من خُطب، تهدف إلى تشكيل الوعي السياسي لدى زوجته، مدهِشاً وغير متوقَّع.

أسندت إلفيرا يدها فوق كتفه مبتسمة وحانية. دلَّكَتْ عنقه، وقالت:

"لديّ اليوم مفاجأة لكَ"، بينما كانت تفتح أزرار الروب، ظهر ثدياها البَضَّان. كانت عارية تماماً.

بمجرّد الانتهاء من تناوُل أسماك السردين القليلة الباقية، شعرت إلفيرا بالامتنان للنشاط السياسي لزوجها الذي منع وجود خادمة في البيت ولو لبضع ساعات في اليوم، لأنه في يوم 24 سبتمبر ضاجعها فوق مائدة الطعام التي كانت تتراقص فوقها أدوات المائدة بمرح على إيقاع حركات ساقَيْه. كما أنه علّمها - فضلاً عن الفكر الماركسي،- بعض الحيل الرائعة غير المألوفة لممارسة الحبّ.

فبعد أن وصل إلى ذروة اللذّة، ابتعد جاسبري عن المائدة، كي ينظر إلى إلفيرا التي كانت ترقد فوقها شَبْعَى، فاتنة، وكانت كأس من النبيذ في متناول يده، فشرب جرعة منه، وأحسن صنعاً بصَبّ الباقي في تجويف سُرّتها الصغيرة البديعة. ومن هناك سرت قطرات النبيذ فوق بطنها الغَضّ، وتخلّلت أجزاء جسدها الحميمة وتساقطت فوق فخذَيْها المنفرجتَيْن. هكذا عرفت إلفيرا متعة تقبيل الأجزاء الحميمة.

نسي جاسبري ريسيكو في تلك الظهيرة أن يُخبر الرفاق بعدم حضور جنازة أينتسريللو "خائنة الطبقة العاملة". ولم يكن هناك حاجة لذلك،

لأن حضور جنازة في الثالثة ظهراً، لم يخطر ببال أحد من أعضاء الحزب الشيوعي في روكاكولومبا. ولم

يمنع ذلك ريسيكو من التباهي في الأيّام التالية بأنه بفضل سرعة بديهته جنّب الحزب الظهور بشكل سيّئ أمام المواطنين.

14. الجنازة

سار الطبيب ميندكو متأبّطاً ذراع شقيقته، السيّدة كونشيتا دي بريما، في الطريق إلى كنيسة "لادولوراتا" لحضور جنازة منولارا. كان صامتاً مستغرقاً في أفكاره، كما تعوّد منذ تقدّمه في السِّنِّ. وفجأة قال بصوت عالٍ: "أنا غير مقتنع بوفاتها على هذا النحو، كان يمكنها أن تعيش حتّى عيد الميلاد! كانت تتعجّل الرحيل، ونجحت أيضاً هذه المرّة".

حاولت السيّدة دي بريما تهدئته: "ماذا تقول، يا ميمو؟! اهدأ".

وعند ذلك اقترب منهم بعض المعارف المتّجهين لحضور الجنازة، ودخلوا معاً إلى الكنيسة.

جلس الطبيب ميندكو وشقيقته في الصفوف الأولى. كان الطبيب يُعجِبه تأمّل المذبح المَبني على غرار رسومات العصر الباروكي: الرخام متعدّد الألوان، تمثال العذراء المتألّمة ذات النظرة المليودرامية، كما يقتضي طراز المدرسة الأسلوبية التي عُرفت في الأقليم، القبّة المزيّنة برسومات بوتي، تغطّيها تيجان الورود، الهبة السخية من الأمير برولي، الذي ربمّا أراد بها إرضاء ضميره، بعد إرغامه لابنته الكبرى على الرهبنة، لأسباب تتعلّق بالميراث، والتي أصبحت بالفعل رئيسة للدَّيْر فيما بعد. نظر الطبيب إلى التابوت، ولاحظ أن منولارا قد اختارت دون أن تدري أكثر الكنائس مناسبة لإقامة جنازتها، فالمرأتان ضحّت عائلتاهما بهما: الأولى للحفاظ على المكانة العائلية، والأخرى للحفاظ على حياة عائلتها.

همس إلى شقيقته قائلاً:

"يشترك النبلاء والفقراء في أشياء كثيرة دون أن يدروا".

هزّت السيّدة دي بريما رأسها بموافقة غير محدّدة، معتقدة بأن تأمّلات أخيها تزداد غرابة مع تقدّمه في العمر.

كان الأب أرينا يرتدي ملابسه بمساعدة أحد القساوسة الشبّان، لإقامة مراسم الجنازة في الكنسية التي كان قِسّيساً لها لسنوات عديدة. كان قد نسي تقريباً عمله كقِسّيس منذ بلوغه سنِّ التقاعد، فكان يعيش حياة هادئة في البيت الريفي الذي يملكه ابنه غير الشرعي. كان يعتني بحقل الخضروات، وبزراعة الحديقة أمام البيت.

في نهاية الأمر، كان يعمل في الزراعة، وهو ابن مستأجر أراضي الأمير برولي، وبعدها اختار له والده حياة أفضل من حياة الريف، وساعدهما الأمير في ذلك.

عادت منولارا إلى الاتّصال به في شهر مايو الماضي، وتقابلا عدّة مرّات، استعادا فيها صداقتهما القديمة. وقد أخبرتْهُ دون أن تشيَ قسمات وجهها بأيّ تأثّر، بأنها تُحتضَر وستموت قبل الشتاء، وطلبت منه مساعدتها في كتابة الرسائل كما كان يفعل في الماضي، وطلبت منه أن يقيم مراسم جنازتها، وهو لا يستطيع أن يرفض طلبها.

كان الأب أرينا يرتدي الأردية الكهنوتية البنفسجية والذهبية الخاصّة بقدّاس الجنازة، كان شريط الدانتيل المزيّن لطرف رداء الكتّان الكهنوتي الأبيض للقِسّيس الجديد يصل بالكاد إلى ركبتَيْه. يا ترى ماذا فعل بالأردية "التونيك" الطويلة التي حاكتْها الراهبات خصّيصاً له؟! حيث كان طويل القامة، وهو أمر غير منتشر بين طبقة الفلاّحين التي يأتي منها رجال الدِّيْن. كان الأب أرينا طويلاً نحيلاً ممشوق القوام رقيق الصحّة، وقد تساءل مرّات

عديدة عمّا إذا كان لكرم الأمير برولي معه ومساعدته إيّاه علاقة بأمّه التي يقال إنها كانت رائعة الجمال في شبابها، فقد كان مختلفاً عن أخوته، قصار القامة ممتلئي الجسد، وقد أُرسل إلى المدرسة الكهنوتية، ليس لأنه أظهر رغبة في الرهبنة، وهي لم تتولّد لديه قطّ، وإنما لإزالة حرج من المنزل. ومثل منولارا رضي بنصيبه في الحياة، ويمكنه القول بأنه عاش حياة بسيطة، ولكنه راضٍ عنها.

كانت إقامة القدّاس تُصيبه دائماً بالتوتّر بسبب تلعثمه، الذي استطاع أن يحتال عليه بحيلة أكسبتْهُ شعبيّته: فقد تعلّم إقامة الصلوات، والمواعظ أيضاً، بسرعة كبيرة، فكانت قدّاساته لا تزيد عن ربع الساعة. وهي ميزة كبيرة.

كانت العائلات الثرية تتهافت عليه، بفضل رعاية الأمير له، وأيضاً لطيبته وحسن أخلاقه، لإقامة قدّاسات الزواج والتعميد والمناولة الأولى والجنازات، فضلاً عن قدّاس العائلات في البيوت أو كنائس القرى. وهكذا أُتيحت له فرصة التردّد على بيوت العائلات الثرية والجلوس إلى موائدهم العامرة، فتعلّم استحسان الطعام الجيّد، وكان يصرّح بنهمه للطعام دون إحساس بالذَّنْب؛ لأن هذه الخيرات كلّها لم تكن لتأتيَ له دون عمله كقِسّيس.

فكّر الأب أرينا طويلاً في خطبة جنازة منولارا. لدرجة أنه كتب بالفعل صفحة صغيرة من الملاحظات، إلّا أنه لا يجدها الآن. حدّث نفسه وهو يعدّل الأردية الكهنوتية على جسده: "كفى، فليكنْ ما يكون"، ودخل إلى الكنيسة في تمام الساعة الثالثة، يتبعه الكاهن.

فوجِئ بحضور عدد كبير من الناس. كان أفراد عائلة الفاليبي يجلسون في الصفّ الأوّل. كانت السيّدة أدريانا الوحيدة بينهم بثوب الحِدَاد. وكانت سانتا محشورة بين نساء أخريات في الصفّ الثاني. كنّ جميعهنّ يرتدينَ السواد ويغطّينَ رؤوسهنّ.

كانت هناك أيضاً صديقات للسيّدة الفاليبي، وقد اطمأن بذلك

عليها، فتلك السيّدات سيقمنَ برعايتها ومواساتها في الفترة القادمة. ثمَّ أشخاص عملوا في خدمة عائلة الفاليبي، والعديد من أبناء البلدة، والفقراء، وبائعو الفاكهة، وحرّاس بنايات بروكاكولمبا العليا، وتجّار صغار، معارف لمنولارا.

كان الأب أرينا ينظر إلى بقية الجمع، لم يكن ينتظر هذا العدد كلّه. كان هناك العديد من علية المجتمع في البلدة: موثِّق العقود فاتسانو، الطبيب ميندكو وأخته، المهندس الزراعي ماسكولو وزوجته، مدير المدرسة، مدرّسون في المدرسة، حتّى مجموعة من عجائز نادي "الكونفيرساتسيوني".

لم ينتهِ الأمر عند ذلك. حضر أيضاً عدد من الفلّاحين الذين كانوا يعملون في الأراضي المملوكة لعائلة الفاليبي، كانوا عديدين، وقد شغلوا أربعة أو خمسة صفوف في آخر الكنيسة في مجموعة واحدة، مُمسِكين بقُبّعاتهم في أيديهم، ولاحت في أعينهم نظرة توبة مثل تلاميذ المدارس، ورجال آخرون، أشخاص متوسّطو العمر من الغرباء عن البلدة، لعلّهم من الحمّالين أو من الريف.

نظر إلى التابوت حائرا متردّداً. مسكينة منولارا. مَن كان يصدّق أنه وهو مَن يكبرها في العمر بكثير، سيقيم قدّاس جنازتها وسط هذا الحشد كلّه من الناس الذين لا يدري من أين جاؤوا!

بدأ القدّاس، وكالعادة انتهى بسرعة شديدة. وعندما حان وقت العِظَة، اقترب من المنبر، وارتجل الحديث دون أيّ صعوبة: "من الصعب دائماً الحديث عن الراحلين. في بعض الأحيان، أحاول أن أقول الكلمات التي كانت لترضيَ المُتوفىَّ، وفي أحيان أخرى ما تودّ العائلة سماعه ... في مرّات قليلة قرّرتُ أن أقول ما أريده أنا. سأقول عن ماريا روزاليا أينتسريللو ما أشعر به، لأنني عرفتُها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها، وأحببتُها مثل ابنتي، وعندما كبرت أصبحت صديقة حقيقية. كنتُ أعرفها جيّداً، المنولارا، كما

كان يناديها الفلّاحون للإساءة اليها. ومنو التي عملت في بيت الفاليبي بجدٍّ واجتهاد طوال حياتها، لم تعرف الراحة. شخصية قلقة قلباً وعقلاً، وكانت تحاول أن تقدّم دائماً المزيد والأفضل. كانت صعبة الطِّباع، سريعة الغضب، نادراً ما تضحك، وإن كانت لها روح دعابة خاصّة بها.

كرّست حياتها لخدمة عائلة الفاليبي، وفعلت لهم ما اعتقدت أنه الصواب. كان لديها القليل من الأصدقاء، وإن كنتُ أرى الكثير من الأشخاص هنا. وهذا يعني أنها ربمّا كان لديها أصدقاء أكثر ممّا كانت تظنّ. كان لديها أعداء أيضاً. لم تكن تسامح بسهولة، وكانت صعبة المراس. وهي أخطاء سيغفرها الله لها، لأنها تعذّبت وعانت كثيراً منذ طفولتها، عندما كانت تجمع اللوز في الحقول ...".

عند هذا شعر الأب أرينا بشعاعَيْن يخترقانه بشكل مهيب، ويقودانه بشكل تلقائي نحو دون فينشينسو أنكونا. التفتت الأنظار إلى الشخصية المعروفة في آخر مكان في الكنيسة، أمام عمود البوّابة الرئيسة، وقد باعد بين ساقَيْه وعقد ذراعَيْه، ومعطفه ملقى فوق كتفَيْه الصلبتَيْن المقوّستَيْن. فكأن السلطة قد خلقت هالة حوله.

صمت الأب أرينا وبقي ساكناً مثل تمثال. استعاد قدرته على الحديث بعد جهد كبير. أغفل ذِكْر ما كان ينوي قوله، وختم حديثه بسرعة: "تألّمت أيضاً لموتها شابّة. أقول

لكم إنها كانت امرأة تستحقّ الإعجاب. وبمرور الوقت سنتعلّم أيضاً أن نحبّها، لأنها كانت تحافظ على وعودها. كانت خادمة وصديقة مخلصة. أقدّم تعازيَّ إلى أبناء وزوج شقيقتها غير الحاضرين بيننا بكلّ أسف، وأيضاً إلى عائلة الفاليبي".

فقط في هذه اللحظة، نجح الأب أرينا في رفع بصره عن دون فينشينسو، ونظر إلى السيّدة الفاليبي. شعر بقواه تخور، واستند إلى المنبر. رفع عينَيْه

باحثاً عن عينَي دون فينشينسو وكأنه حملٌ صغير يبحث عن أمّه، ولكن دون فينشينسو أنكونا كان قد اختفى وتلاشى كما لو كان وَهْماً. لم يسمع صوت خطوة أو صرير الباب. اختفى تماماً مع رجاله.

15. دون باولينو يتبول في سرواله للمرّة الثانية بسبب منولارا

لم يكن دون باولينو متديّناً. كان يذهب إلى الكنيسة فقط لحضور الجنازات وحفلات التعميد والزواج، وكانت دونا ميما تشعر بالأسف لذلك، على الرغم من أن الزوج كانت لديه أسباب قوية تمنعه من الالتزام بالذهاب، فقد كان يعاني من روماتيزم في المفاصل، ولم يكن يستطيع الدخول والخروج بسهولة من بين الدكك الخشبية في الكنيسة، وهذا الاختراع الجهنّمي المزوّد بمسند للأقدام، كانت قدماه تنحشران فيه باستمرار، وطاولات خشبية صغيرة تُفتَح وتُغلَق للركوع فوقها، وتصطدم بها ركبتاه، ورفوف صغيرة بارزة تحوي كُتُب الصلاة، وتقيّد حركته. ذات مرّة وفي حفل زفاف ابنة شقيقه، احتاج الأمر إلى تدخّل ثلاثة رجال لتخليصه من الدكّة التي وقع وانحشر داخلها. وفي كنيسة "لادولوراتا"، فضّل أن يترك زوجته وابنة أخيه لوتيشيا، تجلسان في الصفوف الأولى في الصحن الرئيس للكنيسة، بينما جلس هو على مَقعَد عثر عليه لحسن الحظّ بجانب باب الدخول، كي يكون من أوائل المغادرين بعد انتهاء المراسم.

كان يتأمّل بمودّة الأب أرينا، الذي اصطحبه مرّات عديدة في السيّارة إلى البيت الريفي للمحامي، في أثناء حياة السيّدة ليللا، عندما كانت الناس تعتاد إقامة القدّاسات في الكنائس الصغيرة في بيوتهم. رجل طيّب، هذا الأب أرينا. كان يستلطفه. ثمَّ إنه ليس قِسّيساً بالمعنى الضيّق، فقد حملت منه دونا مريكيا، الأرملة التي تكبره بالعمر، وأنجبت له ولداً يشبهه

تماماً. لم يكن الأب أرينا يخفي هذا الأمر كما يفعل الكثير من القساوسة، فكانا في أثناء الرحلة بالسيّارة يتحدّثان عن أبنائهما.

الاستماع إلى القدّاس الذي يقيمه هو أمر مريح، فهو يضمن قصر القدّاس وانتهاءه سريعاً. كان دون باولينو يشبه قدّاس الأب أرينا برحلة في السيّارة؛ يبدأ دائماً وهو ينفخ ويتعثّر في تلعثمه، ثمَّ تزداد سرعته ويتحدّث ملتهماً كلماته، متخطّياً عبارات كاملة، كي يصل فوراً إلى "اذهبوا، فقد حلّت البركة". مثل سيّارة ماركة "ألفا روميو". كان دون باولينو يُنصِت إلى الأب أرينا باهتمام، واثقاً من انتهاء العِظَة في وقت قصير.

كان يحدّث نفسه، وقد لاحظ أنه كان يتكلّم بوضوح ودون تلعثم: "أحسنتَ، أيُّها الأب أرينا. يبدو أنه تحسّن في سنِّ الشيخوخة" وكان ينظر إليه بمودّة.

ولكنْ، فجأة قطع الأب أرينا حديثه بعد العبارات الأولى.

بدا لدون باولينو أن القِسّيس يحدّق اليه، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد كانت نظرات القِسّيس تتعدّاه لشخص آخر خلفه.

فكّر دون باولينو: "أخطأتُ بظنّي أنه تحرّر من التلعثم. ها هو يعود إلى اللغو، ولا يتمكّن من مواصلة الحديث". إلّا أنه ظلّ هادئاً واثقاً في أن الأب أرينا سيعود سريعاً إلى الحديث. ولكن القِسّيس بقي واجماً صامتاً، وبدا وكأن جسده تجمّد من رعب لا يمكن فهم كُنهه أو وصفه. كانت نظرته مثبّتة فوق كتف دون باولينو اليمنى، وكأنه أرنب برّيّ غشي بصره أمام مشعل الصيّادين الليليِّيْن. ضحية عاجزة تنتظر مصرعها بِوَابِلٍ من طلقات الرصاص.

بدأ دون باولينو يشعر بضيق غريب، كما لو كان هو أيضاً طرفاً في هذا الموقف، كما لو كانت تنطلق من خلف كتفَيْه حزمة ضياء شرّيرة تصعق وتشلّ حركة الأب أرينا.

تحامل على نفسه وتحمّل ألم تحريك عضلاته، فلم يكن قد فَقَدَ فضوله المعهود. نجح في الالتفات والنظر إلى الخلف: وجد دون فينشينسيو مستنِداً إلى باب الكنيسة؛ الوجه المحمّر، العجوز ذا الجِلْد المشدود اللامع، تقريباً دون أيّ تجاعيد يضجّ حياة وفتوّة، وقد ثبّت نظره على الأب أرينا.

كان يقف حوله أربعة رجال مرتدين الملابس الغامقة، وكانت أعينهم تنتقل بسرعة من نقطة إلى أخرى في الكنيسة. لاحظوا فوراً دون باولينو. حَدَجَهُ أحدُهم بنظرة تحذير كانت تنقل الرسالة المعروفة: "لا شأن لكَ بهذه الأمور، وتذكّر أنكَ لم ترَ شيئاً". التفت دون باولينو بسرعة خارقة، ودون الإحساس بأيّ ألم في عظامه، وعاد إلى وضعه السابق، وأحنى رأسه كما لو كان في موقف التوبة. كان يرى ضباباً أمام عينَيْه، ويرتعد من الخوف. شعر بسخونة داخلية كانت تسري بين فخذَيْه وتنتشر فوق ساقَيْه، لتصعد إلى مؤخّرته، كان دون باولينو أنونسيتا يبول في سرواله.

انتهى القدّاس، وكان الناس يستعدّون للخروج على تُؤَدَة من الكنيسة.

ظلّ دون باولينو ملتصقاً بكرسيّه، محرَجاً من فكرة أن يرى الآخرون سرواله المبلّل. قال لزوجته إنه يرغب في تحية الأب أرينا، وإنه سينتظره. انقشع الضباب من أمام عينَيْه، وغدا نظره صافياً، وشعر بتحسّن، ولكنه أحسّ باللزوجة، بعد برودة البول، الذي كان يسبّب له شعوراً بالضيق الشديد.

نهض بحذر، واتّجه نحو قاعة الكنيسة متوخّياً الحذر بالسير بجوار الحوائط في الضوء الخافت.

كان الأب أرينا وحده وقد خلع أرديته الكهنوتية، حيث كان يقف أمام لوحة المتنيحة كارميلا دي برولي، أوّل رئيسة للدَّيْر، ذات العينَيْن الغامضتَيْن القاسيتَيْن، كما لو كان يطلب منها أن تشفع له عند الربّ.

اقترب منه دون باولينو، وفهم أن القِسّيس يطلب العون من الراهبة. ربمّا كانت واحدة من أسلافه. انتظر برهة، ثمَّ لمس رداءه بخفّة، ليجذب انتباهه. انتفض القِسّيس:

- "أوه، أهذا أنتَ، يا باولينو؟ لقد أفزعتَني".

ردّ بولينو:

- "أنا أيضاً، رأيتُهُ، وربمّا بُلتُ في سروالي".

ردّ الأب أرينا بنصف ابتسامة:

- "لا داعي للقلق على نفسكَ أو عليّ، أمسِكْ هذا". وأعطاه خرقة من الكتّان، وساعده بصعوبة على تخفيف بَلَلِه.

بعد ذلك خرج العجوزان معاً؛ أحدهما طويل ممشوق مهيب الطلعة في جبّته السوداء الهفهافة، والآخر قصير، ترتعش ساقاه أكثر من المعتاد وقد انحنى فوق عصاه. ظهرا أمام باب الكنيسة الخارجي، حيث كانت الناس تتباطأ في الانصراف، منشغلة بالثرثرة في انتظار الأب أرينا.

- قال الأب أرينا لدون باولينو: "اتّصلْ بي".

ولحق سريعاً بموكب الجنازة الذي كان ينتظره، واتّخذ مكانه في المقدّمة بجوار جاني الفاليبي، وتحرّك الموكب. بقي دون باولينو أمام الكنيسة آملاً أن تجفّف الرياح الخفيفة سرواله.

وكي يتصرّف بشكل لائق، تتبّع بنظرة احترام الموكب الذي كان يتحرّك مثل دودة بطيئة طويلة الرأس، تتلوّى في الطريق المتعرّج المنحدر نحو المقابر. وعندما اختفى الذيل المتموّج المتعرّج الصاخب عن نظره، رجع إلى البيت منكسِراً محبَطاً.

أخبر دونا ميما أن أسماك السردين المحشي (بيكافيكو) التي تناولها

على الغداء، أصابتْهُ بالحموضة، واندسّ في السرير متمنّياً أن يجفّ السروال دون أن يترك أثراً لفعلته المخجلة.

في تلك الظهيرة، نام بعمق. استيقظ وقد حلّ المساء، وكان يشمّ الرائحة الحلوة للبصل المحمّر المستخدَم في طهو طعام العشاء، وشعر بالأمان.

حدّث نفسه ضاحكاً: "لم يكن ينبغي لمنولارا أن تفعلها معي".. "مرّتان كثير".

كان قد مرّ خمسة عشر عاماً على المرّة الأولى، وهي دائماً طرف في الموضوع.

كانت ليلة مظلمة من ليالي شهر ديسمبر. هبط الليل في الرابعة بعد الظهر، وكان يصطحب منولارا بالسيّارة إلى الريف.

كانت تجلس بجانبه، كما تعوّدت عند سفرها وحدها معه، فلم تكن تعامله معاملة السادة.

كانت منولارا قد أمسكت بزمام إدارة أملاك الفاليبي منذ فترة وجيزة، وكان الصراع محتدماً بينها وبين مستأجري الأرض الرافضين الخضوع لسلطتها. كان زمن الشقي جوليانو، وثورة الأجراء، والصراع بين النظام القديم والمافيا التي كانت في أوج تطوّرها، وأصبحت أكثر عنفاً ووعياً بالدَّور الذي بدأت تلعبه في الصراع السياسي والطبقي في إيطاليا الديمقراطية المسيحية. كانت كلّ زيارة إلى الريف مغامرة وصداماً جديداً. كانت أفضل اللحظات لدون باولينو المحبّ للحياة الهادئة هي لحظة الرحيل من المزرعة، محمّلاً بالمحصول والمنتجات الزراعية. في ذلك اليوم كانت رائحة الخضراوات التي قُطفَت لتوّها وعطر محصول البرتقال الجديد يفوح من السيّارة. كان دون باولينو يقود السيّارة بحرص مشتهياً

طعم الخضراوات المطبوخة المسلوقة، مع بعض من زيت الزيتون الجديد وعصير الليمون الذي سيأكله على العشاء. كان يتقدّم بالسيّارة بمهارة وحرص في الطريق الضيّق المليء بالحفر والأحجار الخطرة، والذي يلتفّ مع منعطف الجبل، على شفا الجرف الممتلئ بالأحجار والعوسج.

وعند هذه النقطة من الطريق عند المنعطف، أجبروه على الوقوف بالسيّارة.

قطع ثلاثة رجال الطريق أمامه: كانوا في انتظارهما.

وقف أحدهم في منتصف الطريق، والاثنان الآخران على جانبَيْه، وصوّبوا نحوهما البندقية "لبارة". لم يكن يرى منهم إلّا العيون التي كانت تظهر بالكاد بين القبّعات والشالات الذين يغطّون وجوههم.

كان ردّ فعل منولارا فورياً وحاضراً. وضعت يدها فوق فخذه دون أيّ خجل، وقالت له: "سيّد باولينو، عندما أقول لحضرتكَ اذهبْ، ضَعْ يدَيْكَ على ناقل الحركة على السرعة الأولى، وتحرَّكْ بسرعة، هل فهمتَ؟ الآن قفْ وافعلْ ما يقولونه".

صرخ الرجل الواقف في منتصف الطريق: "أَطفِئُوا ضوء السيّارة". أَشعَلَ دون باولينو من شدّة اضطرابه الضوء وتوقّف. صرخ الرجل مرّة أخرى: "قلتُ أَطفِئِ المصابيح، أيُّها الأحمق!" أطاع دون باولينو الأمر، وبقي في الظلام. وفي أثناء ذلك، فتحت منولارا زجاج نافذة السيّارة، وقالت بصوت عالٍ وواثق، وهي تُخرِج رأسها من النافذة: "ماذا تريدون؟"

تحرّك الرجل ببطء والبندقية لا تزال مصوّبة، وهو ينظر مباشرة إلى وجهها وسأل: "هل هذه سيّارة المحامي الفاليبي؟" وفي أثناء ذلك، كان زميله يفحص السيّارة من الداخل عبر النوافذ، ليتأكّد من عدم وجود أشخاص آخرين بها.

أجابت منولارا: "تعلمون جيّداً أن هذه السيّارة ملك للمحامي الفاليبي وأنني منولارا، ماريا روزاليا أينتسريللو، والجالس على مَقعَد السائق هو دون باولينو أنونسيتا، سائق المحامي. ينبغي أن أعود إلى البلدة للعمل في بيت الفاليبي، لذا أخبروني بسرعة بما يجب أن تُخبروني به". خفضت رأسها، وجلست بظَهْر مستقيم فوق مَقعَد السيّارة وعنقها ملتفت إليه وعيناها تنظران بثبات في عينَي الرجل القريب المتوعّد. أرخى الرجل البندقية، فانزلقت ببطء إلى جانبه، ووضع ذراعه ببطء فوق النافذة المنخفضة. تمهّل في وقفته، ثمَّ تحدّث قائلاً:

"يا آنسة، هذا تحذير لحضرتكِ. الذهاب إلى الريف غير صحّي بالنسبة إليكِ. هواء المدينة أفضل بكثير. الأحرى بكِ أن تقومي بعملكِ كخادمة في بيت المحامي الفاليبي دون التدخّل في الأمور التي لا تعنيكِ".

احتدم التوتّر. نظر دون باولينو أمامه، فرأى فُوَّهَة بندقية ذي الوجه الدميم، الواقف في منتصف الطريق الضيّق مباعِداً مابين ساقَيْه مثل عملاق من الحجر، مصوّبة نحوه.

أحسّ برجفة متردّدة بيد منولارا التي لم تغادر فخذه، شعر بضغط أظافرها فوق قماش البنطلون. كانت هي أيضاً تشعر بالخوف، وأحسّ باليأس.

انتفض عند سماع صوتها الرنّان. كانت تصرخ ويتناثر الرذاذ من فمها، ومع ذلك كانت كلماتها واضحة وبسيطة:

"لم يتحدّث أحد معي بهذا الشكل من قبل. أعرف أنه ليس خطأكَ، أو خطأ السادة الذين بصحبتكم اليوم. لم يشرحوا لكم الأمر جيّداً، وليس من واجبي التوضيح الآن. أطلب منكم أن تسدوا لي صنيعاً: لتخبروا دون فينشينسو أنكونا أن منولارا تُحيّيه وستتَصل به قريباً، وألّا يشغل نفسه بالاتّصال بي. سأرسل اليه مَن يخبره بطلبي للمقابلة عندما أصبح مستعدّة للحديث

معه، وألّا يقلق. أنا سيّدة أحفظ السرّ، وسأظلّ كذلك. أوصيكم أن تبلغوه بتلك الرسالة فوراً، وأن تخبروه أيضاً أنني لم أشعر بالإهانة من هذة المقابلة معكم، ولم تغضبني. فعلى أيّ حال، لن تتكرّر مثل هذه المقابلات، وقد أخّرتمُوني عن الرجوع إلى البلدة. الآن ينبغي أن أذهب، لأن دون فينشينسو أنكونا يعلم أنني "خادمة مطبخ" في منزل الفاليبي. يعلم لأن الأمور كذلك، ولأنه يعلم كلّ شيء في البلدة. ويعلم أيضاً أنني أُحبّ إدارة أملاك المحامي الفاليبي، ويجب أن أعود إلى الريف. هواء الريف يعجبني كثيراً، ويفيدني جدّاً. عندما سأحتاج مساعدة، لن أخجل من الاتّصال به. هو يعلم أنني أحترمه. أتمنّى لكم جميعاً أعياداً سعيدة وعيد ميلاد سعيداً، والآن افسحوا الطريق لأنني تأخّرتُ". كانت تتحدّث مشيرة بيدها، وكانت قد رفعت يدها من فوق ساق دون باولينو. ولكنْ، عندما انتهت من حديثها، أسقطت يدها بقوّة، وبصوت قوي وواثق، أمرت دون باولينو: "دون باولينو، فلنذهب. والتفتت لتنظر إلى الطريق الضيّق أمامها دون أن تنظر إلى الشخص الذي كانت توبّخه، فقد أنهت المقابلة. أدار دون باولينو محرّك السيّارة وتقدّم ببطء، كان الرجل الواقف أمام السيّارة لا يزال ساكناً، مصوّباً البندقية نحوه. بينما يد منولارا تستحثّه على التقدّم في السير. فكّر دون باولينو أنه ربمّا قد حانت ساعته، وأنه سيلقى حتفه، إمّا برصاص البندقية أو بالسقوط من المنحدر الجبلي. وحدها يد منولارا الثقيلة مثل الحجر، والتي كانت تضغط فوق فخذه، كانت تمنحه القوّة للقيادة مثل الآلة. وبخطوات وئيدة، محتفظاً بغطرسته، بدأ الرجل بالتنحّي عن الطريق متحرّكاً إلى جانب الجبل، وأفسح الطريق للسيّارة والبندقية لا تزال مصوّبة نحو دون باولينو.

تحرّكت السيّارة ببطء.

أطلّت منولارا من النافذة وقالت: "تحيّاتي! أبلغوا الرسالة لدون فينشينسو أنكونا. لا أريد أن أُسبّب لكم مشكلات. الموضوع لا يستحقّ".

عصرت فخذ دون باولينو بيدها. أشعلَ أضواء السيّارة، مثبّتاً قدمه فوق دوّاسة البنزين، وانطلقت العربة مخلّفة وراءها سحابة من الغبار.

أدرك عندئذ أنه يجلس فوق سائل بارد، فقد بال في سرواله.

عادا إلى البيت صامتَيْن. عندما وصلا إلى بيت الفاليبي قالت له منولارا: "اصعد إلى المطبخ، سأعطيكَ أحد بنطلونات المحامي، وسأغسل بنطالكَ. أخبرْ زوجتكَ أن البنطلون تبقّع بالزيت. أُوصيكَ بألّا تفتح فمكَ بأيّ كلمة لأيّ شخص".

لم يحكِ دون باولينو أبداً ما حَدَثَ، ومنذ ذلك الوقت استطاعت منولارا إدارة الأراضي في الريف بسهولة.

16. بعد الجنازة، الطبيب ميندكو يقدّم التعازي لسانتا، ويتحدّث مع موثّق العقود أنجيلو فاتسانو

قدّم الطيب ميندكو التعازي مرّة أخرى إلى عائلة الفاليبي بعد انتهاء الجنازة. وبدا له من الواجب مواساة سانتا أيضاً. حاول أن يعثر عليها بين الجمع، فوجدها بجوار الكنيسة تحيط بها مجموعة من النساء بأصواتهنّ الصاخبة. كنّ يحاولنَ مواساتها ويتبارينَ بكلمات العزاء المبالَغ فيها.

كان الطبيب ينتظر بصبر انتهاء أحاديثهنّ، ليصل إلى سانتا أو ليجعلها تنتبه له، وفي أثناء ذلك كان يسمع ما يقلنَهُ.

كانت سانتا تعيش لحظة من لحظات مجدها، تتباهى بقدرات منولار في الطهي والشؤون المنزلية دون إغفال ذِكْر التقدير البالغ من منولار لها ولفضائلها. كانت النساء متعلِّقاتٍ بشفتَيْها، ينتظرنَ كلماتها بشغف:

"علَّمتْني أشياء كثيرة في المطبخ، على الرغم من أنني كنتُ أُجيد

الطهي بأنواعه كلّها: الحلوى كالبسكويت والجيلاتي، واللحم المطبوخ، والسوبلية، وأيضاً المارينج والبروفيتول ... كانت تترك المطبخ نظيفاً، لم تكن تطلب منّي أبداً غسل أوانٍ وصوانٍ لها. لم تتركني أبداً آكل وحدي. كانت تعدّ المائدة للسيّدة أدريانا، وتخدمها بنفسها، مع أنها كانت تقيم في بيتها، إلّا أنها كانت تعاملها وكأنها سيّدة البيت المالكة لكلّ ما فيه".

كانت النسوة الصاخبات يقاطعنَها باستمرار بتعليقات من الإعجاب والدهشة تغطّي على كلمات سانتا، وقد ازدادت التعليقات عندما بدأت سانتا في رواية التصرّفات الأخيرة للبطلة.

"قبل وفاتها بأسبوع، أرادت صنع بسكويت باللوز وعجينة اللوز. كان لديها دقيق اللوز، ولكنْ، لم يعجبها. كانت تقول إنه يحتاج أيضاً حبّات اللوز المرّ. كانت خبيرة بكلّ شيء. طلبتْ من السيّدة كارميلا أن تشتريَهُ لها، ثمَّ ذهبت إلى المطبخ لتحضير الحلوى. نهضت من سريرها لتحضير العجينة. كان يبدو عليها المرض والألم". أجهشت سانتا بالبكاء مرّة أخرى، وقد غرقت في كورال كلمات العزاء ومواساة النسوة: "يا لها من امرأة!"، "كانت قدّيسة"، "كيف ستعيشون دونها؟!".

تشجّعت سانتا، وواصلت روايتها: "سأحكي لكم هذا، فقط لتفهمنَ كيف كانت تحترمني وتقدّرني. أعدّت صينيّتَيْن من البسكويت، ووضعتْهما في الفرن. احترقتْ إحداهما بينما الآخرى خرجت طيّبة وهشّة.

قالت لي "إيّاك أن تأكلي البسكويت المحروق، لأنه أصبح مرّاً لا يُؤكَل. لتأكلي أنتِ والسيّدة أدريانا قِطَعَ البسكويت الذهبية، لأنها حلوة الطعم". أخذت البسكويت المحروق إلى غرفتها وأكلتْهُ وحدها، فقد كانت لا تحبّ أن تُلقي بشيء في القمامة".

انفرجت طاقة في الدائرة، ورأت سانتا الطبيب. ألقت بذراعَيْها حول عنقه، ولم تتركه لفترة. كانت تفخر أمام أترابها أن الطبيب المعالج لمنولارا يعتبرها فرداً من العائلة، يتقبّل تعازيه أمام الجميع، فكان هذا تتويجاً لأهمّيّتها في ذلك اليوم.

وأخيراً وجد الطبيب الطريق للتخلّص منها، وانصرف. وفي الطريق، اقترب موثِّق العقود فاتسانو من الطبيب، وقطعا جزءاً من الطريق معاً، وعلّق قائلاً:

"كانت شخصية فريدة. كان لديها حدس في الاستثمار، كنتُ أحسدها عليه .. تخيّل أنها نجحت في تقليل خسائر تقسيم أراضي عائلة الفاليبي، وأعطت للفقراء أراض مليئة بالأحجار والعوسج.

كانت تعرف أرضهم أفضل من أيّ حارس زراعي. صدّقني، أنا خبير في هذه المهنة. على الرغم من شخصيّتها الصعبة، إلّا أنها كانت امرأة صالحة ومحبّة لعائلة الفاليبي". اختتم موثِّق العقود حديثه، وصدّق الطبيب على كلامه.

سأله : "ميمو، أخبرني بشيء يثير فضولي. كنتَ الطبيب الخاصّ لها، هل تركتْ وصية بخطّ اليد؟"

أجاب الطبيب: "لستُ أدري".

أردف: "ميمو، أسألكَ، لأنها منذ فترة جعلتْني أقوم بإجراءات هِبَة بيتها للسيّدة الفاليبي، وظننتُ أنها ستكتب وصية. لكنها لم تفعل، وأُدهشَني هذا. كنتُ أعتقد أنها تثق بي. كان يمكنها كتابة وصيّتها، كانت تكتب بصعوبة، كنّا نعلم ذلك جيّداً، ولكنها كانت تمتلك الكثير، وكان لديها الكثير من الممتلكات. لم يكن لديها دَخْل معلَن، فلا أحد يرغب في دفع

الضرائب، بيد أنها كانت دائماً تجد النقود عندما تحتاج إليها، وكنتُ أتساءل دائماً من أين تحصل على هذه الأموال كلّها؟!".

لم يكن أنجيلو فاتسانو يعجب الطبيب منديكو، وهذا السؤال أثار أعصابه، فردّ قائلاً: "ينبغي أن تعرفها أنتَ أفضل منّي، أنا كنتُ طبيبها فقط. وبالنسبة إلى الأموال، لم أطلب منها أبداً أن تدفع لي".

"ربمّا لم يتسنّ لها الوقت لتَرْك الوصية. رغم كلّ شيء، كانت تبدو بصحّة جيّدة منذ أسابيع قليلة. يبدو لي أيضاً أنها سافرت في شهر أغسطس للإجازة، ولم أكن أتوقّع أن تموت هكذا بسرعة .. أنتَ، ما رأيكَ؟" أضاف موثّق العقود آملاً في الحصول على إجابة شافية من الطبيب، الذي أجابه بكلمة من مقطع واحد "حضرتكَ نعم. أنا لا".

فهم موثّق العقد أن ميمو لم يكن ليزيد في كلامه، فتركه وانصرف.

عندما بقي الطبيب منديكو وحده، تأمّل كلمات سانتا وتعليقات موثّق العقود. بالتأكيد ماتت منولارا قبل الأوان.

كان قد شخّص الورم في مايو، ونَصَحَهَا بإجراء بعض التحاليل واستشارة أخصائي، إلّا أنها رفضت. لقد أخبرها أن ذلك الرفض الأحمق سيُقصّر أيّامها، لكنها سألتْهُ فقط إن كانت ستعيش إلى الخريف. فردّ أنه من المحتمل أن تعيش إلى الخريف. فردّت منولارا: "سيكون مناسباً لي الموت في آخر سبتمبر". إلّا أنه فوجِئ بالتدهور غير المتوقَّع في حالتها في الأسبوع الماضي. وعلى الرغم من الآلام الشديدة في المعدة، إلّا أنها رفضت دخول المستشفى لإجراء التحاليل، وماتت في نهاية سبتمبر كما قرّرت.

هزّ الطبيب منيدكو رأسه، وقال بحزن بالغ: حان وقت التخلّي عن ممارسة المهنة. لم أعد طبيباً جيّداً. يجب أن أعترف بذلك".

17. دون جوفانيني بينزيمونيو يراقب المارّة ويتذكّر منولارا

شعر دون جوفانيني بينزيمونيو بإرهاق شديد بعد الجنازة. توقّف في النادي ليستريح قليلاً قبل مواصلة ارتقاء الطريق نحو البيت. كانت المقاعد موضوعة فوق الرصيف في الخارج، ومرصوصة بمحاذاة السور الخارجي. سقط فوق أوّل مَقعَد بدلاً من البحث عن مَقعَده المفضّل. كانت مقاعد "نادي الكونفرساتسيوني" مصنوعة من القشّ، وكانت تبدو متشابهة ظاهرياً، بيد أن كلّ عضو كان قد اختار له مَقعَداً، والويل لمَن يستولي على مَقعَد الآخر، وقد حَدَثَت مشاحنات كثيرة في الماضي حول هذا الأمر.

كانت الشمس ساطعة فوق أحجار الطريق والضوء يُبهِر الأبصار، فكانت عينا دون جوفانيني تجتهد في البقاء مفتوحة، فاستسلم للنعاس. أيقظتْهُ ثرثرة المارّة في الميدان، وبدلاً من العودة إلى البيت، كعادته لتناوُل القهوة، طلب من النادل تحضير القهوة، ليظلّ مستقيظاً، وبدأ يراقب المارّة.

كان مبنى "نادي الكونفرساتسيوني" متهدّماً، وكان يتكوّن من صالة كبيرة على طراز القرن الثامن عشر في الطابق الأرضي، مؤثّثة بمقاعد ومناضد صغيرة، وأربع غرف في الطابق الأوّل، يقال إنها كانت تُستخدَم لتبادُل أحاديث خاصّة وفاحشة مع نساء، كنّ يتسلّلنَ إليها في الخفاء، وقد أصبحت الآن مهجورة وممتلئة بأخشاب قِطَع أثاث قديمة. كان خادم عجوز يقوم بالأعمال الضرورية كلّها للنادي: الاهتمام بالنظافة، شراء المستلزمات، وأحياناً بوظيفة السكرتير والإداري. حتّى عام 1860 كانت الطبقة البروجوازية الغنية للبلدة الآخذة في التوسّع تتردّد على النادي، لكنها انتقلت بعد ذلك إلى نادي "أونيتا دي إيطاليا". ومنذ ذلك العهد بدأ تدهور "نادي

الكونفرساتسيوني"، فصار أعضاؤه ينتمون إلى الطبقة البورجوازية البسيطة في البلدة، والكثير منهم من أرباب المعاشات التقاعدية، وكان المبنى في حالة مزرية. وعلى الرغم من ذلك كان دون جوفانيني وبقية الأعضاء يتباهون بأن مقرّ النادي من أفضل الأماكن في المقاطعة. بالفعل كان قد شُيِّد في مكان واسع من الميدان، في الشارع الرئيس لروكاكولومبا، وبالقرب من الكنيسة الرئيسة ومن أرقى المتاجر في البلدة، وكان كذلك أمام المقهى الذي يتردّد عليه علية القوم. كان، بدون شكّ، أفضل المواقع لمشاهدة الميدان.

مع انخفاض درجات الحرارة، كانت الناس تتدافع إلى الميدان لمشاهدة الاحتفالات الرسمية؛ نشاط اجتماعي جيّد وصحّي ومهمّ جدّاً، وقد مارسه أيضاً دون جوفانيني للبحث عن زوجة، وللبحث عن عمل، وللمحافظة على العلاقات الاجتماعية، وليُظهِر للناس بناته الجميلات الطيّبات اللواتي بلغنَ سنّ الزواج، ولقضاء الوقت. لاحظ دون جوفانيني أنه على الرغم من التغيّرات التي حَدَثَت في الفترة الأخيرة وظهور التليفزيون، إلّا أن هناك الكثير من أهل البلدة، أغنياء وفقراء، يتنزّهون متأنّقين في الميدان. وكانت خادمات العائلات الغنية يتنزّهنَ أيضاً في أيّام الآحاد، إلّا أن منولارا لم تُرَ بينهنّ أبداً.

كان هناك العديد من الفتيات، وكنّ الغالبية بين المارّة. لاحظ أن كلّ أربع فتيات تتأبّطنَ أذرع بعضهنّ البعض. كنّ يذهبْنَ ويَجِئْنَ أمامه، يثرثرنَ كلّهنّ في وقت واحد، ويضحكنَ ملء أشداقهنّ، وينظرنَ حولهنّ، ثمَّ يَسِرْنَ بتمهّل أمام المقهى، مكان التقاء الذكور.

كان الرجال الجادّون يتمشّون قليلاً، وفي الغالب مع زوجاتهنّ اللواتي ترتدينَ الملابس الجميلة، وتبدو عليهنّ الدَّعَة بعد نوم القيلولة. أمّا الرجال،

فكانوا يفضّلون الاجتماع في المقاهي، ومنها ينظرون إلى الفتيات والنساء، والمتلصّصون الذين يسيرون خلفهنّ. وكان أوارتسيو الفاليبي واحداً من هؤلاء، فكان يتنزّه وحده في الساحة متتبّعاً أرداف النساء المتأرجحة.

عادت المجموعة نفسها من الفتيات الصغيرات للمرور أمام دون جوفانيني. واحدة منهنّ كانت صغيرة الحجم وقبيحة، ألقت لشابّ كان مستنداً بخفّة إلى شرفة المقهى بنظرة نارية. كانت أعينُهما تتلاقى بشكل خاطف في كلّ مرّة تمرّ فيها الفتيات أمامه، ثمَّ تدير الفتاة رأسها إلى الناحية الأخرى، وتواصل السير مبالغة في هزّ خصرها. شغل الأعضاءُ المقاعدَ المرصوصةَ كلّها بجوار السور صامتين متأهّبين لملاحظة هزّة نهد أو تمايل أرداف جميلة. كانوا يُعرُّون بأعينهم النساءَ القليلات ثريات المفاتن، اللاتي تجرؤنَ على ارتداء ملابس ضيّقة بصحبة زوج أو أب أو أخ. اتّجهت أفكار دون جوفانيني إلى الجسد الشابّ اليافع لمنولارا. كان يحتفظ بعينَيْه مفتوحتَيْن بصعوبة، فجفونه المرخية المجعّدة تسقط فوق حدقة العين وتغشي بصره. وكانت صور ومشاهد من الماضي تقفز أمام عينَيْه كما لو كان يشاهد فيلماً سينمائياً.

18. دون جوفانيني يتذكّر

كان دون جوفانيني مثمّناً أميناً للمحاصيل الزراعية. كان عمله يجعله يطوف بالأراضي الزراعية ممتطياً حصانه، وكان يستطيع التباهي بالمعرفة الجيّدة لأراضي المقاطعة كلّها. اعتاد ترك البلدة من الفجر والعودة إليها في المغيب. كان يشاهد الطفلة الصغيرة ذات الأربع أو الخمس سنوات، وهي تسير بجوار أبيها في الطريق الواسع في ضوء الفجر الخافت مستقيمة الجسد، معتزّة بنفسها. أبوها لويجي أينتسريللو رجل سيّئ الحظّ فقير بعد أن فَقَدَ عمله في المناجم بسبب مرضه. وعلى الرغم من علْمه بحال

رئتَيْه اللتَيْن دمّرهما المرض إلّا أنه عمل أجيراً في الحقول، ليعول عائلته. كان يصطحب الابنة الصغيرة معه، لأن زوجته كانت مريضة هي الأخرى. بينما كان الأب يكدح في الأرض، كانت الطفلة تجمع الحلزونيات والفاكهة وحبّات القبار وقِطَع الخشب، وكلّ ما تجده مناسباً للأكل أو لإشعال النار. وعند العودة إلى البلدة كان لويجي يجرّ قَدَمَيْه، وقد هدَّه التعب، بينما تسير الطفلة بجواره مرفوعة الرأس، على الرغم من جرابها المُثقَل بما جمعتْهُ، وكانت تحمل أحياناً فأس الأب أيضاً. كان دون جوفانيني يحجم عن دعوتها للصعود فوق فرسه، لأنه كان يخشى من وقوع الأب في الطريق دون مساعدة ابنته.

بدأت تعمل في سنّ السادسة في فِرَق قاطفات اللوز. كانت أصغرهنّ سنّاً، ولكنْ، أكثرهنّ مهارة.

كانت تعمل بتركيز وبمهارة، مستعدة لمساعدة الأخريات، والتعلّم منهنّ.

لم تكن تُفلت من بين أناملها الصغيرة حبّة لوز أو زيتونة أو حبّة فستق، وكأن لِبَنَان أصابعها عيون. كانت تعثر على حبّات الزيتون والفستق بين قِطَع الطمي في التربة الصلبة، بين الأحجار والنباتات الشوكية. حيثما مرّت تلك الأنامل الصغيرة الرفيعة، لم تكن لتترك حبّة أو ثمرة فاكهة، سواء في الأرض أو فوق الأشجار أو بين الأفنان.

كانت تتسلّق الأشجار العالية دون خوف، لتنزع حبّات اللوز العالقة التي لم تقع تحت ضربات العصي. بعد موت أبيها، وهي لا تزال في الثامنة من عمرها، كانت تعول أمّها وأختها. لم يكن هناك عمل ترفض القيام به، أينما كان وبأيّ أجر. كان شرطها الوحيد العودة في المساء إلى البلدة. كانت أصابعها تبدو كسيقان عنكبوت من شدّة النحول، ومن العمل الدؤوب في جمع اللوز، كأنما تنسج شبكة فوق الأرض، لذا

أطلقوا عليها اسم "منولارا" الذي لم يفارقها أبداً. كانت تعمل بسعادة تقريباً. كان دون جوفانيني يتذكّرها راكعة مستغرقة في العمل، ولكنْ، منتبهه لكلّ ما حولها: كانت تسمع اقتراب فرسه من بعيد، وكانت أوّل مَن يحيِّيه بصوت رنّان:

"بارك الله فيكَ، دون جوفانيني".

شاهدها تكبر وتصبح صبية متناسقة القَدّ ونحيلة بسبب الجوع الذي نشأت فيه. وجهها بيضاوي وعيناها ذاتا الأهداب الطويلة تشعّ منهما الحيوية، وابتسامتها الجميلة تكشف عن أسنان بارزة غير مستوية.

كانت تغنّي بصوت ساحر عندما كانت الفتيات تردّ بالغناء على أهازيج الأجراء، وكانت تغنّي بكلّ أحاسيس فتاة شابّة وشغفها.

كانت تمزح مع الصبيان، فلم تكن تخجل من الرجال. وقد تعلّمت لغة الذكور الفجّة القوية، والتي كانت تستعملها بشراسة إذا ارتكب أقرانها خطأ في حقّها، أو إذا شعرت بسوء معاملة أو إجحاف.

كانت تعرف كيفية التصرّف مع رؤسائها. وعندما كان الملاحظ الزراعي أو رئيسة العمّال يسيئون التصرّف معها، كانت تصمت ويتكدّر وجهها.

منذ صغرها كانت تشعر بعزّة نَفْس لا تتلاءم مع مكانتها الاجتماعية والاقتصادية. كانت تنظر مباشرة إلى العيون، وتسأل دون خبث أو وقاحة، وتنتظر الإجابة. وكانت بالفعل تتلقّاها.

لم تذهب إلى المدرسة، فقد كانت تعرف أن واجبها إعالة عائلتها والإنفاق عليها. وخلال استراحة الغداء كانت تبتعد بنصيبها من الخبز والغموس، وتستقطع منه دائماً جزءاً كبيراً لتحمله إلى البيت، وتحتفظ في جيبها بكسرات من الخبز الجافّ والفاكهة المجفّفة وقِطَع الجبن التي

كانت تلقطها من هنا وهناك، محتفظة بالطعام الأفضل للمريضتَيْن اللتَيْن تنتظرانها في البيت.

وكانت إذا ما وجدت وقتاً بعد انتهاء يوم العمل، تعود وحدها إلى الحقل، لتجمع الفاكهة والخضراوات التي تركها الفلّاحون بعد جمع المحصول. كانت تضعها في جرابها، وتعود إلى البلدة. لم تكن تخشى مخاطر الطريق أو مشقّة السَّيْر الطويل.

عندما بلغتِ الثالثة عشرة تركتِ العمل في الحقول. يقال إنها أحبّت أحدهم، وانتهت القصّة نهاية سيّئة. لم يتحدّث أحد عن تلك القصّة، لأن الشابّ كان ينتمي إلى عائلة ذات شأن.

لم يسأل دون جوفانيني، الذي كان بحكم عمله يرى كثيراً ويتكلّم قليلاً، عن هذا الموضوع أبداً. كلّما قلّت المعرفة عن تلك الأشياء، كان أفضل. وقد عرف بعد ذلك بوقت قصير أنها ألتحقت بالعمل لدى عائلة الفاليبي.

قابلها بعد عشرين عاماً تقريباً. كان قد سمع أنها بعد موت والدة المحامي، تولّت إدارة أملاك عائلة الفاليبي وأراضيها. وقد استدعتْهُ لتقدير محصول اللوز. تقابلا في البيت الريفي، حيث كانت تتصرّف كصاحبة الأملاك. لم تعد فتاة الماضي الجذّابة، وإنما متحفّظة ورجعية. كان دون جوفانيني قد ذهب إلى حقول اللوز ممتطياً حصانه. كان مستغرِقاً في أفكاره كعادته عندما يعمل، ولم يدرك أنها كانت تتبعه سيراً على القَدَمَيْن. وعندما لحقت به، لم تتركه لحظة واحدة. كانت تتوقّف عندما يقف لملاحظة محصول شجرة أو تشذيب فروع. لم تكن نظراتها تغادر وجهه، دون أن تنطق بكلمة واحدة. أحسّ دون جوفانيني بالضيق. وعندما رجعا إلى البيت الريفي، دخلت منولارا إلى حجرة الإدارة، وتركتْهُ ينتظر طويلاً، ثمَّ خرجت بعد ذلك ممسِكة بدفتر. استهلّ

دون جوفانيني حديثه بالمقدّمات المعتادة عن محصول السنة والأمطار، وما حرث من الأرض، وما ينبغي حرثه، ليصل إلى اللحظة المرتقبة؛ لحظة تثمين المحصول. كانت منولارا تستمع إليه، وقد وقفت أمامه بصمت. شعر دون جوفانيني بالحرج من صمتها، وكان العَرَق يسيل منه بارداً.

لم يكن يفهم تصرّف هذه الخادمة التي تأمر الآن. هل كانت تفعل ذلك لتُظهِر حسن الأدب أم إنها تريد أن تلفت انتباهه أن الأمور انقلبت؟ أو مَن يدري أيّ خطّة شيطانية كانت تدور برأسها.

كان واثقاً من شيء واحد فقط: كان يتعجّل العودة إلى البلدة.

حاول أن ينتهيَ من عمله بسرعة، وكان يوشك على النطق بتقديره النهائي، وبسعر المحصول، عندما أوقفتْهُ. حيث مدّت ذراعها اليمنى وكفّ يدها المفتوحة نحوه، قائلة:

"قبل أيّ حديث، دون جوفانيني، اقرؤوا من فضلكم التقدير الذي حسبتُهُ، إن كان يبدو لحضرتكَ صحيحاً"، وناولتْهُ الدفتر. لا يزال دون جوفانيني يشعر برجفة، كلّما تذكّر تلك اللحظة. ما كتبتْهُ كان بالضبط الثمنَ الذي حدّده.

ولدهشته أراد أن يعرف كيف استطاعت تحديد الثمن، ربمّا قرأت أفكاره؟ شرحت ببساطة الملاحظات التي جعلتها تصل إلى النتيجة نفسها.

سألها معجباً: "كيف استطعتِ تعلّم ذلك كلّه؟"

كانت إجابتها وجيزة:

"كنتُ أحبّ العمل في الحقول؟ هل تتذكّرون؟"

يكاد دون جوفانيني يُقسِم أنه رأى الدمع يترقرق في عينَيْها الغامقتَيْن.

ومنذ ذلك الحين لم تعد خدماته مطلوبة، ولم تحتج عائلة الفاليبي إلى مُثمِّن في أراضيها. كان دون جوفانيني يحدّث نفسه:

"كانت مختلفة كثيراً عن الآخرين كلّهم. مَن كانت تشبه؟ مِن أين ورثت ذلك العقل وهذا الحضور؟ بالتأكيد، لم ترثْهُ عن أبيها الذي لم يكن يتمتّع بدرجة كبيرة من الذكاء، ولم يكن يحبّ العمل، فمِمَّن؟"

وفجأة بدا له أنه لمح شخصاً في الكنسية يشبه دون فينشينسو أنكونا؟ انتفض للفكرة التي كانت تعبر ذهنه. تضايق وحدّث نفسه: "بعض الأمور من الأفضل حتّى عدم التفكير فيها."

فتح عينَيْه جيّداً، واعتدل فوق المَقعَد، وعاد لمشاهدة الميدان.

19. في البلدة، ليلة الجنازة

كانت روكاكولمبا تتحدّث قبل الجنازة، عن قرار عائلة الفاليبي بإقامة الجنازة لخادمتهم. كانوا يتحدّثون أيضاً عن المرحومة كما تقتضي التقاليد، ولكنْ، لم يكن هناك الكثير ليُقال، فضلاً عمّا كان واضحاً للجميع. كانت التعليقات بعد الحديث عن حياتها الخاصّة محدودة للغاية، نظراً لأنها عملت دائماً لدى العائلة نفسها، ولم يعطِ ذلك الفرصة للنميمية اللاذعة، على الرغم من أن أحاديث العائلات التي كانت تتردّد على عائلة الفاليبي لم تكن تخلو من التلميحات عن المغامرات العاطفية لأوراتسيو، وكانوا يفترضون بسخرية، لا تخلو من شكّ، في أن نزواته طالت الخادمة أيضاً.

افتراض كان لا يلبث أن يستبعد، حيث كان من المعروف ولع أوارتسيو بالنساء المتزوّجات الجميلات والمثقّفات.

لم يخبْ ظنّ أثرياء روكاكولمبا القليلين، الذين أجهدوا أنفسهم

بالذهاب إلى جنازة منولارا في الثالثة ظهراً من يوم الثلاثاء 24 سبتمبر، ليس لتقديم العزاء، ولا تقديراً للعائلة الفاليبي، ولكنْ، بدافع من الفضول لهذا الحدث غير المعتاد. فقد رأوا بأعينهم عدم الاكتراث من جانب أبناء الفاليبي لموت الخادمة التي تولّت تربيتهم، كما ظهر من تاج الورود الصغير والجنازة المتواضعة دون مسيرة يتيمات أو موسيقى. حاولوا تثمين التاج الكبير الذي أرسله أبناء شقيقتها، وتعجّبوا من عدم حضور أيٍّ منهم لجنازة خالتهم الوحيدة، إلّا إن كانت عائلة الفاليبي قد طلبت منهم صراحة عدم الحضور.

وهكذا اغتنم الحاضرون الفرصة لمشاهدة المشاركين في تشييع الجنازة، وإعادة رواية الواقعة في البيت والنادي والصالونات، مضيفين إليها من خبرة مَن شاهد الأحداث وعاصرها.

كم كان عدد الحاضرين في كنيسة لادولوراتا! بِغَضِّ النظر عن الشيوعيِّيْن الذين امتنعوا جميعاً عن حضور الجنازة، فقد شهدت الجنازة طبقات المجتمع وأطيافه كلّهم، بل يقال إن دون فينشينسو أنكونا ربمّا شرّفها بالحضور. للأسف لم يشاهدوه وجهاً لوجه، وإن لاحظ وجوده القليلون. لكن شائعة حضوره انتشرت في البلدة كلّها، فضلاً عن رؤية الأولاد الصغار الذين كانوا يلعبون الكرة أمام مدخل الكنيسة لسيّارة سوداء لامعة من ماركة جوليتا وصلت إلى الميدان الصغير بعد بداية القدّاس، وتوقّفت بالضبط أمام الباب الرئيس، حيث نزل منها أربعة رجال بصحبة رجل عجوز سمين ضخم، ودلفوا إلى الكنيسة، ليخرجوا منها بعد ذلك بفترة قصيرة، بينما كان القِسّيس لا يزال يتلو القدّاس، واستقلّوا السيّارة التي انطلقت بسرعة كبيرة، واختفت في لمح البصر.

منذ ذلك اليوم، منذ ظهيرة الثلاثاء، بدأ الناس يتحدّثون عن منولارا

بحرص واحترام، وإن كانوا قد سبروا غور حياتها في أدقّ تفاصيلها، حيث لم يكن هناك الكثير ليُقال.

كان الخوف الذي يثيره اسم أنكونا في روكاكولمبا كبيراً، لدرجة تجعل الجميع يخفضون أصواتهم عند الحديث، ولا يجرؤون على ذِكْر اسمه في الأماكن العامّة، أو في المحالّ أيضاً وفي ملتقى الميادين. من المعروف أن حتّى لجدران البيوت ولأحجار الطريق عيوناً وآذاناً تنقل الكلام لمَن يجب أن يعرفه، ومن الحكمة ألّا يحدُث ذلك.

كانوا يتعجّبون مرّة أخرى من نجاح منولارا الكبير، وارتقائها من خادمة إلى سيّدة أعمال، أدارت أملاك عائلة الفاليبي، وأنقذتْهم من الإفلاس، وسمحت للعائلة بأكملها أن تستمرّ في حياة السادة، بينما قنعت بعمل الخادمة التي تتولّى شؤون المنزل كلّها. لقد اضطرّوا بالتأكيد لقبول تصرّفها كصاحبة الأملاك، وتدخّلها في شؤون حياتهم، واحتمال استيلائها على بعض أموالهم، لكنها، على الرغم من كلّ شيء، كانت مخلصة للعائلة، واستضافت أرملة المحامي في بيتها، وقد رفعت بذلك عبء رعاية الأمّ عن كاهل الأبناء.

كان الرأي السائد حول منولارا أنها كانت امرأة جاهلة، ولكنها ذكية قادرة على التصرّف. امرأة سيّئة الطباع ومتسلّطة، لكنها كرّست حياتها كلّها لخدمة عائلة الفاليبي.

كان الأثرياء يُنكرون على عائلة الفاليبي سماحهم لها بالتدخّل في قرارات العائلة بشكل غير مسبوق وغير مقبول للناس العاديِّيْن، ولكن أفراد العائلة كانوا مختلفين عن الآخرين في ذلك أيضاً: لقد كانوا مستعدّين لبيع أرواحهم للشيطان في سبيل الحياة المريحة وراحة البال.

كان الفقراء يُنكرون على منولارا انحيازها لجانب السادة على حساب أبناء طبقتها بمَن فيهم أبناء شقيقتها، لتحصل في النهاية على جنازة متواضعة لقاء ما فعلتْهُ معهم.

أمّا تقدير دون فينشينسو أنكونا لها، فيظلّ، على أيّ حال، من الأمور الغامضة التي ليس لها ما يبرّرها، ولكنه أمر يفضّل الفقراء وأبناء الطبقة المتوسّطة، بكلّ حكمة، عدم التوقّف أمامه وتجاوُز التفكير فيه.

كان يمكن التحدّث بحُرِّيَّة عن هذا الأمر فقط في صالون البارونة تشفيليا، بحضور عدد قليل من الأصدقاء المقرّبين، لإظهار مدى احتقار الطبقات الراقية للمافيا. كان بينهم أشخاص من كاتنيا، ضيوف جاؤوا خصّيصاً لحضور حفل الزواج المزمع إقامته قريباً في بيت فاتسانو. كانوا يَروون الحكايات عن الخيانات الزوجية لأوراتسيو، وسماجة ماسيمو ليوني، وغطرسة ليللا، وحياء جاني.

تحدّثوا عن الوضع المالي لعائلة الفاليبي الذي سمح لخادمة أن تقوم بإدارة أملاكهم، وهم مَن أثروا في القرن السابق لإدارتهم أملاك الأمير برولي. كانوا محظوظين، لأن منولارا لم تُضاهِهِم في الجشع، واشترت مِن نقودهم بيتاً متواضعاً لها فقط. وهناك العديد من الحالات المماثلة لمَن قاموا بإدارة أملاك وحقّقوا ثروات هائلة من خلف ظهور النبلاء والسادة الخاملين. لذلك كان ما حَدَثَ عادلاً بشكل ما، وعند تدهور أحوال هذه العائلات، فمن المعتاد أن تلقى نهاية مماثلة. ولكنْ، ما لم يحدُث سابقاً أبداً أن تُدار الأملاك من قبَل امرأة، وخاصّة إذا كانت خادمة.

كانت قصّة عائلة الفاليبي غريبة ومثيرة للدهشة بسبب علاقة التبعية التي ربطت السادة بالخادمة، وكانت غير منطقية. لأنه وعلى الرغم من تمرّد الجيل الجديد من العائلة على استمرار هذه العلاقة المريضة، إلّا أنهم،

في الحقيقة، استمرّوا في اعتبار منولارا جزءاً من العائلة، لدرجة إعلان نبأ وفاتها وتشييع جنازتها كما لو كانت واحدة من الأقارب المقرّبين.

من ناحية أخرى، كان هناك سرّ ما في حضور دون فينشينسو للجنازة، وهو زعيم المافيا المعروف في المقاطعة، ووالد شخصية مهمّة تعيش خارج صقلية، رجل عصري محترم يساند الحكومة. كان حضوره مثيراً للدهشة والقلق وجديراً بالتأمّل. وبعد مناقشات حامية، بقيت نظريّتان، كلتاهما جريئتان وغير مقنعتان: الأولى أن دون فينشينسو هو والد منولارا الحقيقي الذي ورثت عنه الدهاء، والثانية أنه عشيقها السرّي في شبابها. وبذلك أصبح دون فينشينسو أنكونا، رجل المافيا الذي قَتل بوحشية دفاعاً عن المافيا، بل الذي قَتل زوج شقيقته أيضاً، لأنه تحدّث أكثر من اللازم، والأب لأربعة أولاد، والكاثوليكي الملتزم، شخصاً يتبع نزواته، وربمّا رومانسياً وضحية للمشاعر.

في بوّابة بناية تشفيليا كانوا يتحدّثون فقط عن الجنازة. لم يبلغ أيّ منهم سذاجة السادة ووقاحتهم، وتجرّأ على التفكير في أن نوروتسا أينتسريللو أو ابنتها كانتا عشيقتَيْن لدون فينشينسو أنكونا. واهتدت الحكمة الشعبية إلى افتراضَيْن: الأوّل أن منولارا تنتمي إلى المافيا، وهو من الأشياء الاستثنائية نظراً لأنها أنثى وفقيرة، والثاني إنها قدّمت لدون فينشينسو خدمة كبيرة، استحقّت بها ذلك التقدير بعد موتها. في الأحوال كلّها سرى التبجيل لمنولارا بين الحاضرين، بالرغم من أن دون ميليتيللو أراد التأكيد على أن الراحلة، على كلّ حال، كانت شخصية كريهة، ولم تكن تثق بأحد، وأنها انتقلت إلى صفوف السادة بعد أن دهست بقَدَمَيْها أبناء طبقتها.

telegram @
yasmeenbook

الأربعاء 25 سبتمبر 1963

20. لا يزالون يتحدّثون عن منولارا على خلاف التوقّعات، جاسبري ريسيكو يسيء معاملة كارميلا انتقاماً من عجرفة منولارا.

في صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من سبتمبر تكرّرت أحاديث النميمة على سَمْع القليلين الذين لم يعرفوا بها بعد، وقد أضافوا إلى الروايات وزيّنوها بعد ليلة من النوم الهادئ، وإن كانوا يتحدّثون بحرص دائماً.

اتّفق أهالي بلدة روكاكولمبا جميعهم، سواء ممّن يسكنون الطبقات العليا أو من حارسي البوّابات، على أنه لم يعد هناك ما يمكن مناقشته أو نقده أو كشفه حول منولارا والفاليبي، وقد سئموا الحديث في هذا الموضوع، الذي أُشبع بحثاً، وقُدّر له أن ينتهي تماماً منذ اليوم التالي. كان من المتوقّع أن يشغل خبر حفل الزفاف القريب لابنة موثِّق العقود الثري فاتسانو حيّز النميمة الذي يستحقّه، إلّا أن ذلك لم يحدُث.

كانت كارميلا قد قبلت بقلب واجف قرار عائلتها بأن تذهب إلى مكتب البريد لاستلام الخطاب المرسَل إلى منولارا، حيث إنها الوحيدة من العائلة التي لا تزال تعيش في بلدة روكاكولمبا، لذلك فهي شخصية معروفة ومحترمة.

وقد ناقشت مع الزوج حتّى ساعة متأخّرة من الليل أدقّ التفاصيل فيما

يتعلّق بهذه المهمّة: ماذا أرتدي؟ وإذا اتّهموني بمخالفة القانون؟ لأنه ليس قانونياً استلام خطاب خاصّ بشخص لا ينتمي لكَ بصلة قرابة، علاوة على أنها ميتة. ماذا أفعل؟ هل أذهب مع صديقة؟

قرّرت أن تذهب إلى مكتب البريد في فترة الظهيرة مرتدية ثياباً أنيقة، وأن تشرح للموظّف أنها فكّرت في المرور لاستلام رسائل لأمّها السيّدة الفاليبي، والتي تصل عادة باسم خادمتها الأمينة، كي تتمكّن من استلامها.

كانت كارميلا تشعر بالقلق، وبأنها مراقبة في أثناء ذهابها إلى مكتب البريد. كانت ساقاها ترتجفان، لكنْ، ليس بسبب الكعب العالي، وخطوتها غير الثابتة فوق الطريق المرصوف بالحجارة. كان العَرَق يسيل من جسدها كلّه، وكانت تشعر باليأس. نجحت في السيطرة على مشاعرها بإظهار الغطرسة الموروثة عن عائلتها، ووصلت أخيراً إلى مكتب البريد.

كانوا قد ظنّوا أن معرفة موظّف شُبّاك البريد بموت منولارا من الأمور الحتمية، إلّا أنها وجدت موظّفة جديدة.

نسيت كارميلا الحديث الذي حفظته تقريباً، وفعلت عكس ما كان ينبغي فعله؛ سألت بصوت متردّد إن كانت هناك رسائل باسم الآنسة ماريا روزاليا أينتسريللو؟ بالطبع، لن تكون سيّدة أنيقة مثلها ترتدي الحلي، ومن الواضح أنها متزوّجة، الآنسة أينتسريللو.

أدركت الموظّفة ذلك فوراً، وسألتْها دون أن تُراودَها أيّ شكوك، إن كانت تودّ استلام رسائل بالنيابة عن الغير.

لم يكن ذلك السؤال مقدّمة للرفض من جانب الموظّفة، فقد كان من المعتاد أن يذهب أشخاص لمكتب البريد لاستلام رسائل مُرسَلَة إلى أبناء عمومة أو آباء أو أبناء وأعمّام دون أيّ توكيل رسمي منهم، واستناداً إلى كلمتهم فقط.

تلعثمت كارميلا، ولم تنجح في الردّ على ذلك السؤال البسيط. استعادت بشكل عفوي كبرياءها العائلي، فردّت بعنف يُنبئ بتطوّر الأمر إلى مشاجرة، وارتفع صوتها بالصياح والتهديد للموظّفة المسكينة التي ظنّت أنها تسبّبت في ردّ فعل العميلة على هذا النحو.

اتّهمتْها كارميلا بالوقاحة، وأنها لا تعرف مَن تكون؛ ابنة المحامي أوراتسيو الفاليبي. أمرتها بتسليمها مراسلات أينتسريللو كلّها فوراً، دون إهدار وقتها، لأن لديها ما تفعله بدلاً من الانتظار على شُبّاك البريد، خاصّة وأنها تسبّبت في خَلْق طابور من العملاء.

وردّت على سؤال الموظّفة عمّا إذا كانت قريبة لأينتسريللو، بأن منولارا كانت خادمة لدى عائلة الفاليبي، وأنه يحقّ لها السؤال عن البريد العادي والمسجّل والمحجوز كلّهم في البريد، لأن مراسلات منولارا كلّها في الواقع تخصّ عائلة الفاليبي، وكان يجب على الموظّفة إدراك ذلك، وأنه في حال تقاعسها عن تسليم الرسائل، فإنها - كارميلا الفاليبي، حرم ليوني - ستتقدّم بشكوى بحقّها إلى مدير المكتب، الذي تعرفه شخصياً.

أمام رفض الموظّفة القاطع تسليم الرسائل، قرّرت كارميلا أن تحكي الحقيقة. فقالت بأنها جاءت بناء على طلب من عائلتها. وأن والدتها، السيّدة أدريانا الفاليبي، كانت تعيش مع خادمتها أينتسريللو في بيت الخادمة، التي تُوفّيت منذ يومَيْن بمرض السرطان. وأن السيّدة أدريانا تشعر بالحزن الشديد لفَقْدها، وليست في حالة تسمح لها بالذهاب إلى مكتب البريد لاستلام المراسلات التي تصل باسم أينتسريللو، بينما هي، في حقيقة الأمر، تخصّ عائلة الفاليبي. كان الأمر بسيطاً، وكان عليها العودة إلى والدتها بالمراسلات في الصباح.

لم تأتِ حكاية كارميلا بالنتيجة المطلوبة، فلم تصدّق الموظّفة روايتها

الحقيقية، وازدادت شكوكها، ممّا جعلها تتشدّد أكثر، وتتمّسك بموقفها الأوّل، بل إنها رفضت حتّى أن تخبرها إن كان هناك رسائل باسم الآنسة الراحلة.

كانت كارميلا تزداد إصراراً، وتكرّر الكلمات نفسها، وفي النهاية طلبت من الموظّفة بنبرة هيسترية أن تُخبرها عمّا إذا كانت هناك على الأقلّ رسائل محجوزة في البريد باسم أينتسريللو، مهدّدة بأنها لن تتحرّك من أمام الشُّبَّاك إلّا بعد حصولها على هذه المعلومة.

طلبت منها الموظّفة الانصراف، لأن هناك زحاماً من عملاء آخرين ينتظرون دَورهم.

عندئذ بدأت كارميلا في توجيه عبارات التهديد للموظّفة، مؤكّدة هذه المرّة أنه لا يهمّ إن كانت أينتسريللو مريضة أو بخير، حيّة أو ميتة. هناك مسائل عائلية ينبغي حلُّها فوراً، لذا يجب على الموظّفة أن تُخبرها فوراً عن وجود مراسلات لأينتسريللو، وإلّا ستحدُث مصائب للجميع. أسقط في يد الموظّفة حديثة التعيين، ولم تدرِ ماذا تفعل.

استدعت زميلة لها لمساعدتها. احتقن وجه كارميلا، وتصلّب جسدها، وكانت كمَن أُصيب بالشلل. لم يكن لديها أيّ نِيّة للانصراف، وثبّتت في مكانها أمام الشُّبَّاك. كان الموظّفون والعملاء يستمعون إليها بتعجّب وضيق من تعطيل الخدمة، وأيضاً بنوع من الفضول والشعور بالتسلية. ومَن يعرفها منهم كان يتمتّع بالمشهد، ويستمع إليها بنهم.

قرّر موظّفو مكتب البريد أن الحلّ الوحيد هو اصطحاب العميلة إلى الزميل الطيّب الذي اختار أن يعمل في مكتب شكاوى الجمهور، السيّد ريسيكو، وهكذا فعلوا. تطلّب الأمر تدخّل اثنتَيْن من الموظّفات لإقناع كارميلا بالابتعاد عن الشُّبَّاك. أحاطتا بها، وأمسكتا بذراعَيْها وهي لا تزال تهذي، وأدخلتاها إلى المكتب.

دعاها جاسبري للجلوس في المَقعَد المقابل لمكتبه، وقد سألها بنبرة في غاية اللطف والأدب:

- "أيّ خدمة، يا سيّدتي؟"

تسلّلت الموظفتان غامرتَيْن بأعين يقظة وهما تضحكان، كانتا تقدّران أسلوب ريسيكو، الزميل الشهم والفطن، فضلاً عن وسامته. .في أثناء ذلك، أمسك جاسبري بورقة وقلم، وكتب تاريخ اليوم بعناية.

كانت كارميلا تجلس أمامه وقد باعدت ظَهْرها عن مسند المَقعَد، وأثنت ساقَيْها بعصبية، مستعدّة لتهبّ واقفة في أيّ لحظة. أخيراً صمتت.

سألها ريسيكو عن بياناتها بصوت عذب، بهدف تحرير محضر الشكوى. أزعج هذا التصرّف كارميلا التي أمرتْهُ بعجرفة ألّا يكتب شيئاً. وأن يستمع إليها بهدوء وأدب لأنها ابنة المحامي أوراتسيو الفاليبي. كانت تودّ فقط استلام مراسلات الخادمة، وأضافت أنها تعرف مدير مكتب البريد جيّداً، وتتوقّع أن يتمّ حلّ المسألة بسرعة لمصلحة الجميع، بمَن فيهم السيّد ريسيكو.

عندما سمع اسم الفاليبي، لم يصدّق ريسيكو هذه المصادفة السعيدة، فقبل ذلك بدقائق كان مستغرِقاً في قراءة جريدة "سيشيليا"، وتضايق عندما اقتادت الزميلتان تلك الحمقاء إليه في غرفته. الآن يشعر بتحقّق أُمنيّته في تلقين درس لواحدة من عائلة الفاليبي التي وقعت بين براثنه.

كان ريسيكو يمتلك قدرة فطرية على ترك الآخرين يتحدّثون بحُرِّيَّة، ويُخرِجون كلّ ما في جَعْبتهم، ليُهاجمَهم في الوقت الذي يشعرون فيه بالاطمئنان الكامل، ويقودهم بذلك إلى الإقرار بصحّة ما يقوله، بل ويشكرونه على حسن معاملته، على الرغم من إخفاقهم في تقديم شكواهم.

كان ينجح في حلّ معظم المشكلات والشكاوى، ويعطي للعملاء انطباعاً

بأن هناك مَن يأخذ شكاواهم بجِدِّيَّة، ويشكرهم على مساهمتهم في تحسين خدمات مكتب البريد الحكومي. وبالطبع، لم تكن جاذبيّته تضرّه.

قرّر ريسيكو التظاهر بعدم معرفة أمور عائلة الفاليبي، وترك كارميلا تحكي له ما حَدَثَ في شُبَّاك البريد، متّفقاً معها على أن عملاء مكاتب الخدمات الحكومية يجب أن يعاملوا بكلّ احترام.

استطاع أن يصل إلى ما يريد الوصول إليه، وذلك بتوجيه أسئلة بسيطة مشجّعة، مستخدِماً لغة الإشارة، حيث بسط كفّي يدَيْه وثبّتهما نحوها، وفتح شفتَيْه بالكاد عن نصف ابتسامة. كانت المسكينة تكشف له، شيئاً فشيئاً، عن السبب الحقيقي وراء سؤالها عن مراسلات أينتسريللو. كان ريسيكو ينظر مباشرة إلى عينَيْها، ليرخيَ جفنَيْه متألّماً من الاتّهامات الموجّهة إلى الزميلة، ويهزّ رأسه مصدّقاً على حديثها، ويحثّها باحترام على الاستمرار في الحديث. أخيراً أقرّت البائسة أنهم كانوا ينتظرون رسائل مهمّة باسم منولارا، وأن هذه الرسائل تحوي أموالاً على الأغلب، وأنها كانت مستعدّة لتزوير توقيع أينتسريللو، لتتمكّن من استلامها فوراً. أضافت كارميلا أنه إن ساعدها ستقدّر تصرّفه وتذكّره بخير عند مديره.

كان صمت جاسبري يشجّعها على الاستمرار في الحديث، إلّا أنها كانت قد تحدّثت بشكل كافٍ.

ابتهج ريسيكو بصمت، وقال في نفسه: "وصلتِ حيثما كنتُ أريدكِ"!.

استقام فوق المَقعَد، بينما كان يشير اليها بالقلم وكأنه رمح، ثمَّ عنّفها بشدّة، واتّهمها بالسرقة وانتحال شخصية أخرى وتزوير توقيع ونصب وشهادة زور، وتزوير بيانات شخصية خاصّة بأشخاص آخرين أمام موظّف حكومي، وتهديد ومحاولة رشوة لمخالفة واجبات العمل. فضلاً عن أنها تجرّأت على شكاية موظّفة الشُّبَّاك التي لم تشكّك في روايتها، وخطّطت لإحكام محاولة النصب والإضرار بمصالح الوَرَثَة الشرعيِّيْن للراحلة أينتسريللو.

ثمَّ نهض بإباء، وأعلَمَها بوقار أنه سيحرّر مذكّرة، ويرسلها إلى المدير لسببَيْن سيشرحهما لها بالتفصيل.

وعند ذلك توقّف عن الحديث، ليشاهد ردّ فعل كارميلا، التي وجمت. كانت تحفر وجهها المنتفخ قطرات كبيرة من الدموع.

جلس ريسيكو من جديد، ليسرد أمامها السببَيْن. وقال وهو يهزّ إبهامه المصوّب نحوها:

"الأوّل إنني أتقاضى راتبي من الدولة لخدمة الجمهور، وسيادتكِ حضرتِ إلى المكتب لتقديم شكوى لعدم رضاكِ عن الخدمة التي نقدّمها. من حقّكِ أن آخذ شكواكِ على محمل الجِدّ.

الثاني: إن حضرتكِ أخبرتِني عن علاقة صداقة تربطكِ بمديرنا. وذِكْر هذه المعلومة بالتأكيد له مبرّر، وليس لاتّهام المدير بالرشوة أو الإهمال، لأنه شخص أمين ومحترم. ربمّا إذاً لتهديدي! وفي هذه الحالة، يجب أن ألجأ إلى المدير لاتّخاذ القرار النهائي فيما إذا كنتِ حضرتكِ محقّة في طلبكِ، ونحن مَن يرفض إعطاء معلومات وتسليم مراسلات يحقّ لكِ استلامها أم أن حضرتكِ لصّة أو محتالة تحاول الحصول على ما يخصّ الراحلة ماريا روزاليا أينتسريللو. أعتقد أنه ليس لكِ أيّ حقٍّ في استلام بريد يخصّ مواطناً آخر دون توكيل أو تفويض، كما ينصّ القانون ولائحة مكتب البريد. والأمرنفسه ينطبق على معلومات خاصّة بمواطن مُتوفٍّ".

تغيّر الوجه الجميل لكارميلا بشكل مخيف: همدت غُرّة شَعْرها، التصقت خُصلاتها الشقراء بجبهتها الغارقة في العَرَق بشكل سيّئ، كان ظلّ الجفون يتساقط فوق وجنتَيْها، وكان أحمر الشفاه الذي أطبقت عليه شفتاها بقوّة كي لا تنفجر بالبكاء يسيل مكوّناً هالة حول فمها.

كانت كارميلا في لحظة الخطر الداهم تتشبّث بكبريائها: حبست

دموعها، ورجت ريسيكو أن يتركها تنصرف، فهي لم تُحسن شرح الأمر، الذي ليس كما فُهم منها. لقد أسهبت في الحديث، لأنها حزينة جدّاً لموت منولارا. ومع عبارة:

"اعتبرْ أننا لم نتقابل أبداً، وإن كنتُ أجدكَ إنساناً مهذّباً جدّاً، وأتمنّى مقابلتكَ في ظروف أخرى ..." حاولت رسم ابتسامة مصطنعة جذّابة على شفتَيْها المنتفختَيْن بدون أحمر الشفاه.

ردّ جاسبري بقسوة الردّ الذي كرّره بفخر أمام زوجته تلك الليلة: "سيّدتي، سيّادتكِ تمثّلين الشعب الإيطالي الذي يعاني من تسلّط هيئات الدولة التي خُلقت فقط لخدمة المواطنين، وقد قدّمتِ شكوى مستخدِمةً حقّكِ كمواطن، وسيتمّ تحقيق العدالة. أنا أنوي القيام بواجبي".

بعد هذا القول، جمع ما كتبه من ملاحظات، واستأذنها باحترام شديد: "اسمحي لي". وانصرف تاركاً كارميلا عاجزة عن الكلام. ولكنْ، ليس لفترة طويلة.

21. ماسيمو ليوني يعاقب زوجته على حماقتها

يحكى أنه في ذلك الأربعاء وفي مكتب بريد روكاكولمبا، اضطرّوا لاستدعاء الموظّفة الحاصلة على شهادة في الإسعاف والمساعدة الطبّية، لتهدئة كارميلا ليوني، التي أُصيبت بنوبة هيستريا حقيقية، إلّا أنها لم تنجح. لذلك قام نائب مدير مكتب البريد الذي تمّ استدعاؤه، بالاتّصال بالزوج ماسيمو ليوني، ليصطحب زوجته خارج مكتب البريد.

ويبدو أن ماسيمو كان ينتظر تلك المكالمة. وصل بالسيّارة التي أوقفها أمام المدخل الرئيس للمبنى، ودلف فوراً للداخل سائراً وراء الموظّفين الذين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. وبمجرّد أن رأى كارميلا، أمسك بذراعَيْها

وضغطهما بقبضته خلف ظَهْرها، ثمَّ أجبرها على النهوض من المَقعَد الذي التصقت به.

أجبر ماسيمو زوجته على السير بدفعها إلى الأمام في ردهات المكتب، ممسِكاً بذراعَيْها اللذَيْن قيّدهما خلف ظَهْرها، وقد ضغط عليهما بقوّة حمّرت لحمها في لمحة بصر.

كان ماسيمو يدفعها من الخلف بركبته، بينما ينتفض جسدها وتجهش بالبكاء، إلى أن وصلا إلى صالة المكتب، وخرجا من المدخل الرئيس. وكانت الكلمات الوحيدة التي وجّهها ماسيمو لزوجته على حدّ قول الموظّفين جميعاً والمارّة المجتمعين حولهم: "امشِ! إلى الأمام!"، كما لو كان يسوق حماراً.

دفعها أمام الجميع داخل السيّارة الرياضية الجميلة، وبمجرّد أن جلست اندفعت إلى الأمام، وخرج من فمها نهر من القيء الأصفر. عندما فتح ماسيمو باب شُقّتهما كان جرس التليفون يرنّ. كان يمسك بكارميلا من ذراعها تحت إبطها. أحكم قبضته حولها حينما رفع سمّاعة التليفون، كانت ليللا قلقة، تنتظر معرفة ما حَدَثَ في مكتب البريد في الصباح.

أخبرها ماسيمو أنه لم يكن هناك أيّ رسائل، وأن كارميلا تعاني صداعاً نصفياً، وعلى وشك الخلود للنوم. أشار إلى الخادمة ميما التي كانت قد سارعت إلى التليفون عند سماع الجرس بالانصراف، ثمَّ دفع كارميلا داخل غرفة النوم ووارب الباب. انهال عليها بصمت ركلاً ولكماً فوق فخذَيْها وصدرها وظَهْرها. لن يرى أحد زرقة الجسم في تلك الأجزاء، فقد كان يعرف جيّداً كيف يضربها. لم يكن هناك داع لغلق باب الغرفة. فالخادمة ميما لم تكن لتسمع صراخاً أو نحيباً، فقط أنفاس ماسيمو المتلاحقة ووقع الضربات فوق جسد كارميلا التي سقطت مغشياً عليها فوق السجّادة. غسل ماسيمو يدَيْه، وصفّف شَعْره، ثمَّ جلس إلى المائدة، حيث قدّمت

له الخادمة ميما الطعام. بالتأكيد، لن تحكي ميما، الخادمة في بيت ليوني، لأحدٍ ما حَدَثَ. بعد الغداء، خرج دون أن يمرّ بحجرة النوم. لم يشأ أن يأخذ السيّارة، فقد كان بحاجة للتنفيس عن غضبه بالمشي. كان يشعر بالاستياء الشديد لتصرّف زوجته، فهي لم تلوّث السيّارة الجديدة من الداخل فقط، ولكنها أيضاً تصرّفت بشكل قد يسبّب فضيحة في البلدة، ومَن يدري أيّ مصائب أخرى. كان يشعر بندم شديد على زواجه منها.

تزوّجها تحدّياً لمعارضة عائلتها، بقيادة منولارا، بهدف الزواج وليس طمعاً في ورْثَة كبيرة كما كان يُشاع في البلدة. والآن يندم على زواجه من تلك المرأة التي لا تصلح لشيء. استمرّ في السير بخطوات واسعة في طُرُقات البلدة الخاوية، ثمَّ راودتْهُ رغبة البقاء وحيداً في الهواء الطَّلْق بين الحقول.

حافظ على خطواته الثابتة وقطرات العَرَق تتساقط منه تحت وهج شمس الخريف الساطعة، ودون أن يدري وجد نفسه في طريق المقابر، الطريق نفسه الذي سلكه بخطوات وئيدة في اليوم السابق وراء جثمان منولارا. شعر برغبة لا تُقاوَم في الدخول وتحطيم الجَدَث الذي بنتْهُ تلك المرأة بالضبط أمام كنيسة عائلة الفاليبي الصغيرة. كان باب المقابر مغلقاً. وظلّت يداه ملتفّتَيْن حول الحديد المطروق تحت وهج الشمس. كان الغضب يختلط بالعطش. شعر بالتعب، وقرّر أن يعود إلى البلدة.

في طريق العودة، لاحظ أن نوافذ بيت الدعارة مفتوحة، دخل وبقي هناك إلى ما بعد الظُّهْر. خرج مُنهَكاً، ولكنْ، دون إحساس التَّرَف المعتاد، فسألتْهُ القوّادة إن كانت الأجنبية قد نالت إعجابه، وبعد أن أخذت النقود، قدّمت له على استحياء العزاء في وفاة مينولارا.

لعن ماسيمو وأضاف: "ربمّا كانت تقيم علاقات جنسية مع رجال المافيا. لقد فُضحَت بعد موتها".

22. الأب أرينا يقوم بزيارة التعزية للسيّدة الفاليبي، ويوبّخ ليلا على اقتراحاتها غير المهذّبة.

كان الأب أرينا يكنّ مودّة للسيّدة الفالبيي. كانت قد تحمّلت بكبرياء صامت خيانات المحامي أوراتسيو، الذي ورث شهوانية والده، ولكنْ، بدلاً من مخالطة العاهرات، كان يفضّل إغواء سيّدات من عائلات طيّبة ومعروفة في البلدة والمقاطعة. ظلّت زوجة وفية صابرة بخلاف حماتها التي كانت تحتقر زوجها عَلَنَاً، وأفرغت رغباتها القليلة في التسلية المتاحة لسيّدة من طبقتها؛ في زيارات الصديقات ولعب الورق. وكانت سعيدة بترك العناية بالبيت لمنولارا، التي خدمتْها بالإخلاص والتفاني كليهما اللذَيْن خدمت بهما حماتها.

لم تكن تؤذي أحداً، كما أنها لم تقم بأيّ عمل طيّب. كان يقال عنها فقط إنها تُنفق ببذخ على شراء الملابس، وهذه خطيئة صغيرة في نظر الأب أرينا. فضلاً عن أنها متّعت بجمالها رجالاً كثيرين في أثناء شبابها، وهو واحد منهم، دون أن تقودهم إلى الخطيئة. كانت، على أيّ حال، سيّدة محترمة مثل سيّدات أخريات، وقد كشفت عن أنها غير تقليدية بشكل أدهش الجميع، عندما أقدمت لمرّة واحدة على القيام بتصرّف غير معتاد بالنسبة إلى سيّدة مثلها، فتركت بيت عائلة الفالبيي بعد موت الزوج، لتقيم في بيت منولارا.

في ساعة مبكّرة كما يليق بقِسّيس يؤدّي واجب العزاء، دقّ الأبُ أرينا جرسَ الباب الكبير لمنزل الفالبيي. دائماً ما كان هناك أحد في بوّابة البيت في الآونة الأخيرة، وحتّى وفاة أوراتسيو.

انتابت الأب أرينا هواجس حزينة حول مستقبل السيّدة أدريانا بعد هذا الفَقْد الذي يُعتبر بمثابة ترمّل آخر. وكان يأمل ألّا يكون الأمر عسيراً

بالنسبة إليها، وأن تستطيع التكيّف مع الحياة وحيدة في ذلك البيت الواسع الحزين، وألّا يتركها الأبناء ويعتنوا بها.

فتحت ليللا البوّابة واعتذرت عن تأخّرها، واصطحبتْهُ إلى الطابق العلوي. كانت درجات السُّلَّم من الحجر الأحمر تؤدّي إلى بسطة سُلَّم تضيئه كوّة من الزجاج متعدّد الألوان تطلّ على الفناء الداخلي، وبسطة سُلَّم أخرى تصل إلى الطابق العلوي، حيث يقع بابان من خشب الجوز الخالص: الأوّل كان المدخل الرئيس للبيت، والآخر كان يفضي إلى مكتب المحامي المكوّن من ثلاث غرف واسعة مؤثّثة بفرش جميل، كما يليق بمَن يدير أملاك أمراء بريولي. كانت ليللا تسبق القِسّيس في أثناء صعود السُّلَّم، ووقفت أمام النافذة الزجاجية لتنتظره. كانت أشعّة الشمس تتخلّل الزجاج وتُضيء شَعْرها الفاتح. كانت تشبه كثيراً أمّها في شبابها، وطابت نَفْس الأب أرينا كثيراً عند تذكّر أدريانا الجميلة واللطيفة، وتذكّرها عندما كانت عروسة شابّة.

قالت له ليللا:

"أبتاه، أريد أن أتحدّث مع سيادتكَ دقيقة على انفراد. أعلم أنكَ كنتَ تقابل منولارا كثيراً في الشهور الأخيرة. كما تعلم أعطى أبي لمنولارا حُرِّيَّة كبيرة في التصرّف، وفي النهاية كانت تدير أملاكنا كلّها. وعند موت أبي لم يتمّ توزيع الميراث كلّه علينا. واحتراماً لرغبة أمّي، التي كانت تحبّ منولارا وتَضعَف تجاهها، سكتْنا عن ذلك".

كان الأب أرينا ينظر إليها، وقد أدرك أمام نبرة صوتها الحادّ الواثق، أنها تشبه أمّها في الشكل فقط. وفي أثناء ذلك، كان يحاول أن يفهم ماذا تريد منه؟ القِسّيس المسكين.

أضافت ليللا وقد كشفت أخيراً عن نواياها:

"ينبغي أن أعود سريعاً إلى روما، لذا أحاول أن أعرف دون إبطاء ماذا فعلتْ بثروتنا وأين خبَّأتْها. أعتقد أن لدى سيادتكَ بعض المعلومات، فقد كنتَ تكتب لها الرسائل في الماضي، وظللتَ دائماً أباها الروحي".

ظلّ الأب أرينا واقفاً ينظر إليها، وقد شعر بالإهانة من طلبها غير المتوقَّع. لاحظتْ ليللا ضيقَهُ، وأدركت أنها أخطأت وصحّحت كلامها: "من المؤكّد أنه إذا حظينا بمساعدتكم، سنحفظ لكم هذا الجميل. وعندما تتحسّن الأمور أضمن لكم شخصياً أننا سنعبّر عن امتناننا عملياً"، ثمَّ أضافت متردّدة أمام صمت القِسّيس الطويل: "الأمر يتعلّق بمبلغ كبير من المال، يمكن أن يساعد، وحضرتكَ الآن في التقاعد".

ردّ الأب أرينا بغضب، متلعثماً وبلغة إيطالية أنيقة:

"حضرتكِ تعيشين منذ سنوات طويلة في الخارج، وربمّا قد نسيتِ أشياء كثيرة. ولكنْ، من المستحيل نسيان أن قِسّيساً لا يمكنه أبداً أن يخون أسرار الاعتراف في العالم الكاثوليكي كلّه. لقد شرّفتْني منولارا بصداقتها، وكان معروفاً للجميع أنني كنتُ أكتب لها الرسائل. لقد جهّزتُ لها مسوّدة ما تركتْهُ لكم، وأعلمتُ أبناء شقيقتها بوفاتها، وأستطيع أن أعطيَكِ عناوينهم إن أردتِ. ليس لديّ ما أقوله لكِ. وبالنسبة إلى عرض الأموال، إن كنتُ قد فهمتُ جيّداً، فاني أشكركِ، ولكني لستُ في تلك الحالة من العوز التي تجعلني أبيع كرامتي ومبادئي. وبالنسبة إليكِ، يجب أن تخجلي من تصرّفكِ الذي لا يليق بسيّدة تنتمي إلى عائلة الفالبيي". أشاح بنظره بعيداً عنها، واستمرّ في ارتقاء السُّلَّم قائلاً: "لنصعد الآن. قد جئتُ لزيارة والدتكِ".

استقبلت السيّدة الفالبيي الأب أرينا بالترحيب المعهود، وشكرتْهُ، لأنه ظلّ بجوار منولارا في أيّامها الأخيرة، وتبادلا ذكريات الماضي. كانت السيّدة تتذكّر: "كانت عنيدة، يا أبتِ. هل تذكر كم مرّة شجّعتَها، سيادتكَ، على الكتابة، ولكنها لم تشأ التعلّم أبداً رغم أن حماتي كانت تذكر أنها كانت

تعرف القراءة والكتابة؟". ثمَّ اتّجهت إلى ليللا وأضافت: "ربمّا لا تعلمين، ولكن الجَدَّة أرادت لها التعلّم. فبعد موت والدتها، عانت منولارا كثيراً، ولم تعد تتحدّث. ففكّرت الجَدَّة أنها ربمّا تجد سلوى في قراءة الصلوات، وأرادت أن يعلّمها الأب أرينا القراءة والكتابة".

أضاف الأب أرينا وقد حمستْهُ الذكرى: "كنتُ قِسّيساً شابّاً، وكانت السيّدة ليللا تغمرني بعطفها. كنتُ آتي إلى البيت لإقامة قدّاس يوم الجُمُعة، وأستمع إلى اعترافات أهل المنزل، وأبقى لتناوُل الغداء. وفي الظهيرة كنتُ أعطي دروساً لمنولارا. كانت تتعلّم بسرعة، وكانت تقرأ جيّداً، ولكنها لم تكن تعرف اللغة الإيطالية. وقد أهديتُها قاموساً إيطالياً - صقلياً، فتح لها عالَم الأدب. لا أعتقد أنها كانت تقرأ الكُتُب الدينية، بل أظنّ أنها لم تقرأها أبداً. ولكنها قرأت الكثير من الكُتُب الأخرى. لقد سمح لها المحامي أوراتسيو باستخدام مكتبته، وكانت، بعد استئذانه، تُعيرني كُتُباً من الأدب الحديث؛ فكافأتْني بذلك على ما قمتُ به من دروس قليلة منذ سنين مضت."

وعند ذلك وفي نوبة سخاء مفاجئ، عرضت أدريانا الفالبيي على الأب أرينا عرضاً، قبله بترحاب:

"هل تسمح لي، سيادتكَ، بإهدائكَ بعض الكُتُب؟ هناك الكثير منها، ولا أحد يقرؤها. فلتخترْ منها ما يحلو لكَ. كنتُ أودّ إعطاءها لكَ بعد موت أوراتسيو، ولكنْ، خشيتُ أن يُزعِج ذلك منولارا، فقد كانت تظلّ حبيسة تلك المكتبة لساعات طويلة في اليوم، وكانت تشعر بالغَيْرة الشديدة على التوافه كلّها التي كان يحتفظ بها أوراتسيو، كما تعرف حضرتكَ".

قالت ليللا وقد شعرت بحرج القِسّيس:

" إذا سمحتَ لي سيادتكَ، إن كنتَ تثق في اختياري، سأذهب فوراً وأُحضر بعض الكُتُب التي ربمّا توافق اهتمامكَ".

ردّ القِسّيس: "شكراً، يا سيّدتي، الكُتُب مرتّبة حسب الترتيب الأبجدي لاسم المؤلّف، فقد رتّبتْها منو بعد رحيل والدكِ".

انسلّت ليللا من بينهما، وتركت العجوزَيْن في أحاديثهما اللطيفة. ثمَّ عادت بعد قليل ومعها حقيبة مليئة بالكُتُب. لم يفتح الأب أرينا الحقيبة، مع أنه كان يشعر بالسعادة، فقد كان يشتري الكُتُب المستعملة، ويلتهمها. انصرف الأب أرينا بعد أن وعد السيّدة الفالبيي بالعودة لزيارتها، وتركها هادئة مبتسمة. عندما لحقت بها ليللا بعد توصيل الأب، قالت أدريانا: "إنسان طيّب".

قالت ليللا بنبرة حانقة: "لا أدري كيف يمكنكِ قول ذلك. تعلمين جيّداً أنه مَن ساعدها على كتابة الخطاب، وعلى إخبار أبناء شقيقتها بوفاتها".

أجابت الأمّ: "وما الضرر في ذلك؟! لماذا لم يكن ينبغي له فعل ذلك؟! ثمَّ أردفت: أيّ كُتُب أعطيتِها له؟"

أجابت بحدَّة: "أوّل مجموعة وجدتُها، كلّها لـ "دانونسيو". وبالمناسبة، كانت منو قد وضعتْها كلّها تحت حرف "أ". واضح أن الأب أرينا قد علّمها جيّداً الحروف الأبجدية".

كان ردّ فعل السيّدة الفالبيي مفاجِئاً:

"لقد تسبّبتِ في كارثة. هذه الكُتُب تركها أبوكِ لبيترو فاتا. وقد فكّرتُ في إعطائها له اليوم تحديداً! كانت رغبة أبيكِ واضحة، بل إنه كرّرها مرّات عديدة قبل موته. ولكن منو كانت قد اعترضت وأخبرتْني أنها كانت ستُسلّمها له. ربمّا تكون قد نسيت. وفي الأسبوع الماضي أوصتْني أن أعطيَ هذه الكُتُب لبيترو. كيف خطر ببالكِ إعطاء قِسّيس كُتُباً لدانونسيو وهي ممّنوعة من الكنيسة؟!". كانت السيّدة الفالبي تجهش بالبكاء مثل طفلة وتفرك يدَيْها "ماذا يجب أن أفعل الآن؟ يا لها من مصيبة!"

عند هذه اللحظة، فقدت ليللا أعصابَها وصرخت في وجه الأمّ بأن الكيل قد فاض بها من كلّ شيء، وكلّ شخص، وأنها تتشوّق للعودة إلى روما. انخرطت السيّدة في بكاء يائس. كانت قد حانت ساعة استقبال الزيارات، فاستعدّت الأمّ والابنة لاستقبال الناس. وهكذا وجدت عائلة لوداتو تشفيليا، التي حضرت لتقديم العزاء، السيّدة أدريانا الفالبيي في بحر من الدموع منذ بداية الزيارة، ولم تَبدُ بهذا الانهيار حتّى عند موت الزوج. بعد الزيارة كانت البارونة تشفيليا وابنتاها قد جهّزنَ التعليقات حول الفالبيي: "أدريانا كانت على حافّة انهيار عصبي، متألّمة وحزينة جدّاً. ليللا لا تساند الأمّ ولا تساعدها، وكانت تتجنّب النظر إليها كما لو كانت غاضبة منها. لم تستطع أن تخفيَ رغبتها في السفر وترك البلدة. كانت تتحدّث عن الراحلة دون أيّ مودّة. كان من الواضح أنها تريد أن تُعلِم الجميع أنها تسعى للحصول على معلومات عن الوضع المالي لمينولارا، وأنها بقيت في البلدة فقط من أجل هذا".

23. الأربعاء 25 سبتمبر، ظهيرة من اللقاءات البغيضة لبيترو فاتا

أزعجتْ زيارتي جيرولامو ميلي وليللا الفالبيي راحة القيلولة لبيترو فاتا. كان مدير مكتب البريد، والذي تعود أصوله إلى مدينة راجوزا، قد اتّصل تليفونياً قبل موعد الغداء طالباً تحديد مقابلة معه. لم يكن يعرفه جيّداً، وقد اندهش بيترو من طلبه، وقابله بمكتبه بشكل رسمي. كان ميلي أبيض البشرة مثل الشمع، ويتحدّث بسرعة، وينهض باستمرار من مَقعَده، ويسير في الحجرة متجنّباً الاقتراب من البلكونة المفتوحة، كما لو كان يخشى أن يكون مراقباً. حكى له عن المذكّرة التي كتبها موظّفه ريسكيو: "شابّ نشيط، ولكنْ، مع الأسف شيوعي. وأكثر من ذلك من أولئك المثاليِّيْن الشرفاء. وكان يقترح إبلاغ الشرطة، لأن هناك ما يريبه في تصرّفات كارميلا ليوني".

كانت عناصر مخالفة القانون متوفّرة، برأيه. ولأن القرار النهائي يعود إلى المدير ميلي، فقد قام بجَمْع بعض المعلومات بشكل متحفّظ عن مراسلات أينتسريللو. فقد كانت تتسلّم مراسلات بالبريد من طرود ورسائل مسجّلة بعلم الوصول. بالإضافة إلى طرود عديدة تبدو في ظاهرها مجلّات وكُتُب من إيطاليا والخارج. كان يعتقد أن تلك الطرود كانت تصل باسمها لتسهيل استلامها بدلاً من إزعاج أوراتسيو الفاليبي، ولا يزال بعضها يصل لاشتراكات لا تزال سارية أو ربمّا عروض إعلانية. وفي السنوات الأخيرة بعد موت المحامي، كانت تتلقّى مراسلات من بنك من مقاطعة لومبارديا، فرع أو مكتب لأحد بنوك زيورخ، وهو من البنوك التي تمتاز بعملاء من طبقة معيّنة. كان مدير مكتب البريد متأكّداً أن هذه المظروفات تضمّ نقوداً، وكانت تصل بشكل منتظم يوم 25 من كلّ شهر، ما عدا شهر سبتمبر. كما لو كانت المرأة حدست موعد موتها ونبّهتْهم ...

وهناك أيضاً أمر آخر، كان المدير يكاد يقسم بأن أحداً لم يشعر بتحرّياته، ولكنه أخطأ. فقد عُيّن في المكتب، عن طريق المافيا، موظّف من أولئك الذين لا يمكن المساس بهم أو الاقتراب منهم. حضر إلى مكتبه ونصحه ألّا يهتمّ بمراسلات أينتسريللو، فلن تصل أيّ رسائل أخرى. كان التحذير الأوّل الذي تلقّاه منذ عمله في روكاكولمبا، وكان يشعر بالخوف.

هناك أيضاً أمر حسّاس يريد أن يناقشه. على ما يبدو، إن ماسيمو ليوني مُثقَل بالديون، وله علاقة بأرباب السوابق، فضلاً عن أنه عنيف فظّ الطِّباع، وقد تورّط أكثر من مرّة في مشاجرات. كانت الموظّفات قلقات على كارميلا، ويخشينَ أن يؤذيَها زوجها في أثناء نوبة الغضب التي حاول أن يكتمها، إلّا أنها كانت ظاهرة في ذلك الصباح.

لذا شعر بأن من الواجب والضروري إخبار بيترو فاتا بذلك، وطلب مشورته، حيث إنه صديق وقريب لعائلة الفالبيي. فضلاً عن أنه شخص محترم ومعروف بحكمته وتصرّفاته الرصينة في روكاكولمبا كلّها.

لم يخذلْهُ الرئيس فاتا، وطلب منه ألّا يفعل شيئاً وينتظر. أكّد له ثقته التامّة في حسن تصرّفه، وشكره بحرارة على حضوره ولجوئه اليه. اتّفقا على تبادُل المعلومات عن تطوّرات الموقف (فكّر الرئيس .."ما لم يطلب الرجل نقلَهُ، فإنه يكاد يتغوّط في سرواله من شدّة الخوف").

عاد فاتا إلى الكُتُب آملاً أن يرتاح أخيراً، إلّا أن زوجته دخلت بوجه مقطّب قلق، لتُعلمَه بأن ليللا الفاليبي في الصالون، وتريد أن تُخبرَه بأمر عاجل.

لم يكن قد قابلها منذ عام، كانت أفضل الأخوة الثلاثة: ذكية حاسمة وأنيقة. روت له ليللا عن الوصايا التي تركتْها مينولارا بالنسبة إلى جنازتها، وكان واضحاً أن ذلك لم يكن هدف الزيارة. طلب منها فاتا أن تدخل فوراً في صلب الموضوع. شرحت ليللا الأمر، بلباقة كعادتها. قالت بعد حذف بعض التفاصيل التي شعرت بأنها محرجة: "بعد موت أبي، أرادت منو أن تستمرّ في إدارة الأملاك التي ورثتْها، إلّا أننا رفضنا. وأعتقد أنها قرّرت ترك الخدمة لإغاظتنا، وأجبرت أمّي على قبول الإقامة غير اللائقة في بيتها. ومن الواضح أنها كانت تدير أملاكاً أخرى، لم تشكّل جزءاً من الميراث، ربمّا لتجنّب دفع الضرائب. أعتقد أنها ربمّا استثمارات لأموال سائلة أو أسهم. لم تشأ أن تخبرنا عن الحسابات البنكية أو عن الأشخاص الذين يتولّون مراجعة تلك الاستثمارات. كانت تدفع لنا الفوائد في يوم 25 من كلّ شهر، حيث كانت الأموال تصل بالبريد. كنّا ننتظر معلومات عن ذلك عن طريق موثّق العقود فاتسانو، كما حَدَثَ للميراث، أو عن طريق أحد المختصّين أو شخص من ثقاة منولارا، كي نستطيع الحصول على هذه الأموال. ولكن أحداً لا يعلم شيئاً عنها. حاولت كارميلا أن تعرف شيئاً، فذهبت إلى مكتب البريد. ولكنْ، يبدو أن الموظّفين رفضوا تسليمها المراسلات الخاصّة بمنو .. أعلم أنها كانت تلجأ إليكَ بعد موت أبي، لتسألكَ النصيحة. هل تعلم شيئاً قد يفيدنا؟ أعرف أن الأب أرينا قد

ساعدها في كتابة الرسائل، ولكنه أخبرني بالقليل. ربمّا يمكنه التحدّث معكَ بحُرِّيَّة أكبر. ماذا تقترح؟"

تنفّس بيترو فاتا براحة. فقد خشي أن تحكي له ليللا عن عنف ماسيمو ليوني مع كارميلا. لقد بالغ ذلك المدير الأحمق. نصحها باللجوء إلى مهنيِّيْن آخرين في المقاطعة، كان يقدّرهم، وكانت تربطهم بمنولارا علاقات عمل. وأضاف:

"في الحقيقة، أنتِ تفاجئينني بقصّة وجود أموال للفالبيي تحت سيطرة منولارا. فحسب علمي، قد أطلعتكم على كلّ شيء. كانت دقيقة وأمينة. لو كنتُ في مكانكم، لاتّبعتُ تعليماتها بدقّة". تنهّدت ليللا بعمق وقد تكدّرت عيناها الفاتحتان، وأجابت:

"هل علينا أن نطيع أوامرها أيضاً؟". ونهضت لتعود إلى المنزل.

"لحظة، أين كاميلا؟"

توقّفت ليللا، وأجابت الإجابة المعدّة سلفاً:

"ماسيمو أخبرَنا أنها أُصيبت بصداع نصفي وبقيت في المنزل".

قال لها فاتا بنبرة آمرة:

"اسمحي لي أن أنصحكِ. اذهبي إلى أختكِ واسأليها ماذا حَدَثَ بالضبط في مكتب البريد".

فهمت ليللا وعادت لتجلس. حكت عن عنف ماسيمو وعن مشكلاته المالية. منذ شهر يناير الماضي، ومنولارا تسدّد نفقات كارميلا للدائنين مباشرة. بالطبع كانت تعلم وضعهم المالي. لم تكن ليللا تعرف ما الذي يمكن أن تفعله لحماية أختها. جاني لم يكن لديه الشجاعة ليتحدّث مع ذبابة، مَن يستطيع مواجهة ماسيمو؟

نصحها بيترو فاتا بما اقترحه على مدير البريد: "أن تنتظر وتنتبه لما حولها".

24. الرئيس فاتا يتأمّل

قضى الزوجان فاتا ما تبقّى من فترة ما بعد الظهيرة معاً في حجرة صالون السيّدة، ممّا أثار دهشة لوتيشيا عندما دخلت إليهما. انزعجت مارجريتا بشدّة ممّا حكتْهُ ليللا، وخشيت على سلامة كارميلا، واستمرّت في التطريز، وهي تتنهّد.

كان بيترو يجلس بجانبها فوق المَقعَد، يفكّر. وكلّ حين يتبادلان بعض الكلمات ذات المغزى فقط لمَن قضيا حياة طويلة معاً:

"أواه"

"بالضبط!"

"حقّاً، يا لها من دنيا!"

"يا لها من حياة!". "عالم مختلف"، "أشياء تُفقِد العقل".

كان زواجهما هادئاً ودوداً، إلّا أن بيترو لم يشعر أبداً بمشاعر حبّ جارف تجاه زوجته الطيّبة. ظلَّ زوجاً وفياً لها لخوفه من فَقْد سمعته كرجل محترم، والتي كان يحرص عليها مثل حرصه على التناغم الخفي للبيت. كان كلٌّ منهما يحترم الآخر، وكوّنا معاً عائلة جميلة. وكان يشعر بالامتنان الكبير لزوجته لذلك. كانت مارجريتا تبكي بصمت. هدّأ بيترو من روعها، ووعدها بأن الأمور كلّها ستسير على ما يرام، وأن ابنتا أوراتسيو تتصرّفان بشكل مسرحي. هدأت الزوجة، ومسحت بيدها فوق وجهه. أخذ يدَيْها، وطبع فوقها قبلة طويلة. كان واثقاً أنه عند موته ستسير الأمور بشكل مختلف.

بقي وحده أخيراً. استعاد هدوءه وتناول القهوة، الفنجان الأخير في اليوم، ولجأ إلى مكتبه. هناك حيث تقبع موسوعة تريكاني بشكل منظّم بجوار دفاتر الأرشيف الخاصّ بإدارة أملاك العائلة. شغلت مكتبة القرن التاسع عشر لأبيه حائطَيْن من الغرفة وقاعدة واسعة، اشتملت على فتحات لوضع مجلّدات وأوراق وملفّات، تعلوها خمسة رفوف من الكُتُب. أضاف بيترو قطعة واحدة جديدة إلى أثاث المكتبة، وكانت خزانة من الخشب الغامق لا يختلف طرازها كثيراً عن المكتبة، وقد صمّمها خصّيصاً لاحتواء جهاز أسطوانات لسماع الأوبرا.

وفي تلك الحجرة، كان بيترو يحتفظ بمجموعة للتسرية؛ مجموعة سرّية من الكُتُب القديمة والحديثة، كُتُب إيروتيكية وبورنو، كان يحتفظ بها في الرفوف المزدوجة التي صمّمها مع أوراتسيو. كانت تلك الكُتُب متعتة الصامته الوحيدة، فقد جرّب القليل من المغامرات الحقيقية في شبابه، ولم يمرّ بأيّ مغامرة بعد الزواج. كان أوراتسيو يُحضر له هذه الكُتُب مخبّأة في جريدة . في بعض الأحيان، كان يرسلها مع منولارا، والتي كانت الكُتُب تصل باسمها إلى مكتب البريد. وقد اتّفق أوراتسيو قبل وفاته مع كلَيْهما أن يطلب فاتا الكُتُب باسم منولارا، وأن تخبره هاتفياً بوصول الكُتُب وتُحضرها له في الوقت الذي يحدّده ويراه مناسباً، وكان في الغالب عند الظهيرة، في أثناء راحة القيلولة لإدريانا. كان التسليم يتمّ بسرعة. لم يشكّ حارس البوّابة أبداً في محتوى شنطة منو، التي كانت، في الغالب، ترسلها سيّدتها بالفاكهة ومنتجات الأراضي الزراعية إلى بيت فاتا. وكان بيترو قد أدمن قراءة تلك الكُتُب بخلاف صديقه الحميم أوراتسيو، الذي كان يخون زوجته، وبالتالي لم يكن لديه مثل تلك المشكلات. حتّى عندما أجبره والداه على العمل في مهنة المحاماة، كان يزاولها بشكل متقطّع، وبعدم اهتمام، لدرجة أنه عندما قرّر أن يكف عن ممارستها، لم يلحظ ذلك إلّا قليلون في البلدة.

وقد قبل الزواج من أدريانا مانجرشينا إرضاء لوالدَيْه، كما فعل بيترو

عندما تزوّج من ابنة خالتها. ولكن زواج أوراتسيو لم يجعله يتخلّى عن اهتمامه بالنساء وولعه بهنّ، أو يقلّل منه، وكان يسمّيه "رياضة الصيد". كان يتحلّى بروح الدعابة الكبيرة، وكان يؤكّد أنه يركّز طاقاته على زيادة عدد الرجال ذوي القرون وتحسين نسل روكاكومبا، التي يغلب عليها حالات زواج أقارب. وكان أوراتسيو يحسن التصرّف في تلك الأحوال، فلم يكن عشيقاً حصيفاً محترماً فقط، ولكنه استطاع أيضاً أن يحتفظ بعلاقات مودّة سرّية مع معظم السيّدات المتزوّجات، بطلات مغامراته العاطفية.

لم تكن هناك أسرار بين الاثنَيْن، كان أوراتسيو يحكي لبيترو عن نسائه، وكانا يخطّطان معاً للاستيلاء على قلب المرأة، من المغازلة إلى الإغراء. وكان بيترو يساعده بثقافته الواسعة الراقية. لقد عاش معه تلك القصص بسبب شدّة تلاحمهما وغزارة التفاصيل والأحاسيس التي كان صديقه يحكيها له. كان أوراتسيو أيضاً رجل واسع الثقافة ومتعدّد الاهتمامات. نشأ مدلّلاً من أمّه، وتعود أن تلبّي نزواته كلّها، وأن يكون دائماً محطّ الأنظار والاهتمام. وبفضل العلاقة مع أمراء برولي، كانت عائلة الفاليبي تتردّد صيفاً على طبقة النبلاء التي اعتادت قضاء الإجازة في الجبل، وكان أوراتسيو محبوباً ومقدَّراً نظراً لمنطقه الذكي واللطيف وثقافته المنتقاة. بالإضافة إلى أنه كان يحبُّ الموسيقى وخاصّة الأوبرا، وكان يهوى جمع الأشياء النادرة. كان يكرّس وقتاً قصيراً كثيفاً لجمع ما يثير حماسه، ثمَّ يتركه لمشروع جديد، كما كان يفعل مع النساء، منفقاً أمواله وميراثه. لم يكن يهتمّ بأملاكه أو بعائلته، ولولا حسن إدارة الأمّ، ومن بعدها منولارا، لكانوا قد أفلسوا وضاعت أموالهم مثل كثيرين غيرهم.

يبدو أنه، بموت منولارا، سينفرط عقد العائلة وتطفو حماقة أفرادها فوق السطح. كي يتسلّى، أمسك بيترو فاتا بكتاب صور، ثمَّ وضع أسطوانة الفصل الأوّل من أوبرا ريجوليتو - التي أهداه إيّاها أوراتسيو، ونسي روكاكولمبا والعالم بأسره، ولكنْ، ليس لفترة طويلة.

كانت جيلدا تغنّي وتقول لوصيفتها:

"جوفانا، أشعر بالندم ...
وفيمَ الندم؟
لم أخبره عن الشابّ الذي تبعني إلى المعبد.
ولمَ تخبرينه؟ هل تكرهين هذا الشابّ؟
لا، لا، إنه وسيم، وأشعر بالميل نحوه".

كان حبّ جيلدا الغرّ البريء يثير أعصابه، ومع ذلك كان الموسيقى والغناء يُلهيانه عن الصور الإباحية. تداعت إلى ذهنه أحداث ما قبل الحرب. كان متزوّجاً من مارجريتا حديثاً، ولم يكن يشعر معها بالحبّ. ذات ظهيرة كانت تنام القيلولة، وكان هو في المكتب ينتظر كتاباً حدّثه عنه أوراتسيو كثيراً، ويستمع إلى الفصل الأوّل من أوبرا ريجوليتو. اتّصل الحارس ليُعلمَه بصعود منولارا. استند بيترو إلى داربزين الدَّور الأرضي. كان ينتظر بنفاد صبر، بينما الموسيقى والغناء ينسابان في بئر السُّلَّم، ثمَّ يصعدان إلى المنور في هدوء بعد الظهيرة. ثمَّ رآها تحمل سلَّة ثقيلة. لم تكن متثاقلة الخطى، ولكنها كانت تصعد ببطء غير معتاد.

"الحبّ هو شمس الروح، هو الحياة نفسها
صوته نبض قلبَيْنا
الجاه والمجد والقوّة والسلطان
لا قيمة لهم أمام الحبّ
إنكِ تحبّيني، قوليها مرّة أخرى"

أطلّ بيترو من الدرابزين، وكانت منولارا في بسطة الدَّرَج. بدا أنها توقّفت. طالت اللحظة وكأنها أبدية. ثمَّ صدحت جيلدا:

"جولتير مالد .. الاسم الذي أحبّه كثيراً
محفور في قلبي الولهان

الاسم الذي أعشقه والذي
نبض له قلبي
وسوف تظلّ لحظات الحبّ الجميلة
في مخيّلتي
حبّي وشوقي لكَ دائماً
حتّى آخر رمق، ياحبيبي
سأظلّ لكَ"

رأى بيترو جيلدا تصعد إلى الترّاس حاملة معها المصباح. ظهرت منولارا فوق بسطة الدَّرج الأخير، وقد كانت تصعد بخطى وئيدة، تتقدّم وقد حفرت الدموع وجهها. ذهب بيترو إليها، وعرض مساعدتها.

ردّت بحرج: "لا، لا داعي لهذا. التين خفيف".

بدا هذا العرض غير المعتاد منه، وكأنه يُزيل الفارق الاجتماعي بينهما. نظرت إليه منولارا وقد أدركت هذا التغيّر في معاملته، وتحدّثت إلى الرئيس فاتا، وكأنه نِدّ لها: "لا أستطيع أن أتوقّف عن الاستماع. صعدتُ الدَّرج ببطء وساقَيّ ترتعشان. صوت جيلدا يؤثّر فيّ كثيراً ...".

وافقها بيترو قائلاً: "اعتراف رائع بالحبّ".

قالت وقد احمرّ وجهها: "حقّاً؟". وعندما وصلت إلى الطابق الأوّل أسندت كتفَيْها إلى الحائط، ونسيت ما حولها، ودندنت بصوت خفيض: ".. الاسم الغالي الذي يحبّه قلبي ..".

وعندما دخلا إلى المكتب، وبعد أن سلّمت الرئيس فاتا الكتاب، سألتْهُ منولارا دون خجل، أين ابتاع جهاز الأسطونات؟ وكم ثمنه؟ لأن صوته أفضل من جهاز أسطوانات المحامي الفاليبي.

دوّن بيترو المعلومات عن المحلّ بخطّ مشخبط.

ردّت منولارا رافضة أخذ الورقة من يده الممدوة نحوها: "ليس هناك داع، سأتذكّره".

سألها وقد أثار الأمر فضوله، أين تعلَّمتِ الغناء؟ وكيف عرفتِ ريجوليتو بهذا الشكل الجيّد؟

شرحت له منو أنها بعد مدّة قليلة من عملها لدى عائلة الفاليبي، اصطحبت السيّدة ليللا - رحمها الله - إلى مدينة إنا (قصريانه)، حيث كانتا في ضيافة إحدى بنات عمّها. وأضافت: "كانت هناك دار للأوبرا، كما اصطحبتاني أيضاً لحضور الـ "اترافيتا". شعرتُ أنني في عالم آخر، يمكن فيه لمَن مثلي أن يتقبّلها المجتمع. ومنذ ذلك الحين، أستمع إلى الموسيقى حين أستطيع وأين أقدر، وعندما أذهب لزيارة أختي خارج صقلية، نذهب لمشاهدة الأوبرا، فيردي لا مثيل له".

سألها بيترو: "وهل يعلم المحامي الفاليبي بذلك؟"

وجمت منولارا وأجابت: "المحامي الفاليبي يسمح لي في بعض الأحيان بالاستماع لأسطوناته الموسيقية". ثمَّ انطلقت قائلة: "أنا لديّ جهاز أسطونات في حجرتي".

25. ماسيمو ليوني يتصالح مع زوجته، ويتلقّى تحذيراً، والعائلة تأخذ قراراً مهمّاً

كانت كارميلا ليوني ترقد في سريرها في بداية ما بعد ظهيرة يوم الأربعاء 25 سبتمبر 1963، متألّمة، ولكنْ، مسرورة بزيارة شقيقتها غير المتوقّعة. فليللا التي كان يقتلها الفضول لمعرفة ما حَدَثَ في مكتب البريد، أسرعتْ بالذهاب بعد الغداء مباشرة إلى بيت أختها، بينما كانت أمّها تأخذ قسطاً من راحة القيلولة.

وفي البيت وجدتْ كارميلا فوق الأرض فاقدة الوعي تقريباً. استدعتْ بسرعة الطبيب منيدكو، الذي شخّص الحالة بكسور في العضلات وسحجات في أماكن متفرّقة من جسدها. وأوصى بالراحة لمدّة أسبوع على الأقلّ. بقيت الأختان وحدهما. بكت الشقيقتان معاً، وتحدّثتا طويلاً. وعلى الرغم من كآبة اللقاء إلّا أنه قرّب بينهما.

كانت العلاقة بينهما قد أصبحت فاترة ورسمية منذ زواج ليللا؛ فكان زوجاهما مختلفَي الطِّباع بشكل كبير، وكانت ليللا تشعر بالخجل من الملامح الريفية التي اكتسبتْها كارميلا أو التي احتفظت بها ببساطة. وللمرّة الأولى تحدّثت معها كارميلا بصراحة عن الوضع المالي شديد التدهور لماسيمو وعن عنفه، وأضافت أنها تحبّه، وتحتاج إليه على الرغم من كلّ شيء، وتتمنّى البقاء في البيت، وألّا يعلم أحد بما حَدَثَ، ولا حتّى جاني. ثمَّ استغرقت في النوم خائرة القوى.

أيقظَها الزوج. كانت الخادمة قد أخبرتْهُ بزيارات بعد الظهيرة، فدخل الغرفة متردّداً. أشارت إليه كارميلا بالجلوس على حافّة السرير، واعتذرت له، لأنها لم تستطع إخفاء الأمر عن ليللا. همهمت وقالت باكية:

"حضرتُ دون سابق إنذار". نكس ماسيمو رأسه، وغطّاه بذراعَيْه، رفع مرفقَيْه فوق رأسه، غرز ذقنه في الجزء السفلي من عنقه، وتشبّثت يداه بمؤخّرة رأسه، وأجهشا معاً بالبكاء.

سألها كاسراً الصمت: "ماذا يحدُث؟" كانت كارميلا قد رسمت خطّة في أثناء غفوتها: إذا سألت الأمّ، سيُخبرانها بأنهما تشاجرا، ولكن الأمور انتهت على خير. وبأن مظهرها غير المهندم يعود إلى حزنها على وفاة منولارا. لن يتحدّثا عمّا حَدَثَ في مكتب البريد. وقرّرا أن يتناولا العشاء في بيت الفاليبي، كي لا يثيرا الشكوك.

ساعد ماسيمو كارميلا على الاغتسال وارتداء ملابسها بحنو وحبّ كبير.

وعندما ارتديا ملابسهما، ذهب ليأخذ العربة، والتي كان قد ركنها في المكان المعتاد. بدت له السيّارة من بعيد منخفضة عن المعتاد، فكّر أنه ربمّا كان هو الآخر متعباً، وأن نظره بدأ يضعف. اقترب أكثر من السيّارة. كان قد ركنها عند الظهيرة باتّجاه الحائط في شارع ضيّق خلف البيت بعد أن أخذها إلى الغسيل، وكانت في هيئة ممتازة. الآن، الإطارات فارغة من الهواء، وبها قَطْع طويل وغائر. دار حول السيّارة بصمت وقد شعر بالخوف. لاحظه عجوز يقطن في قبو في الزقاق المقابل، وكان يجلس أمام مسكنه بوجه كستْهُ التجاعيد دون أن تبدو عليه أيّ تغييرات صامتاً تماماً. لم يكن الوضع يسمح بأن يسأل عن أيّ معلومات. فتح ماسيمو باب السيّارة، وأخذ الورقة الموضوعة فوق المَقعَد: "لا تتحدّثْ كثيراً، والتزمْ بشؤونكَ" وجدها مكتوبة بالحروف الكبيرة.

وعلى عكس المتوقَّع، لم تنفعل كارميلا عند رؤية هذا المشهد، واكتفت بقولها: "نحن مراقبان". وذهبا فوراً إلى أمّها بسيّارتها الصغيرة.

تناولوا جميعاً طعام العشاء في حجرة الطعام الكبيرة. كان ماسيمو قد تناول الطعام مرّات قليلة في منزل الحموَيْن، كي يتجنّب مقابلة منولارا. كانت أصونة السُّفْرة الضخمة ذات الألوان الغامقة الملتصقة بالجدران تبدو خيالات عملاقة مخيفة، كلّها آذان، وكانت أدوات المائدة من أطباق وكؤوس موضوعة في العارضات الزجاجية تهتزّ مُصدِرة صوتاً، كلّما مرّ أحد بالقرب منها، والضوء الضعيف للمصابيح ذات الفولت المنخفض كانت تخلق جوّاً مليئاً بالظلال السائلة. كان يُشتمّ رائحة زنخة تنبعث من الحجرات غير المسكونة، كما لو أن شبحاً يشعر بالإهانة يسكن البيت، ويريد أن يعاقب الحاضرين أو يحذّرهم. أكلوا قليلاً، ودون شهية. ناقشوا الموقف في أثناء تناوُل العشاء. كان جاني يشعر بالاضطراب وعدم القدرة على التفكير أو اتّخاذ أيّ مبادرة. كانت الأمّ تفكّر فقط في مشكلاتها الصحّية، فقد أجهدتْها زيارات بعد الظهيرة، لدرجة أنها لم

تنتبه أن كارميلا كانت تسير بصعوبة. كانت ليللا مُحبَطَة. ولكنهم كانوا يجب أن يتّخذوا قراراً.

ظنّ الجميع أن التحذير الذي وُجّه إلى ماسيمو جاء نتيجة ذهاب كارميلا إلى مكتب البريد، ولم يشأ أيّ منهم أن يتوقّف عند تفاصيله. من الواضح أن منو كانت لها علاقات بأشخاص من المافيا، ومن المحتمل أنها قد أعطت تعليمات لإهانتهم أكثر. كانت تلك طريقتها في الانتقام منهم، لأنهم لم يسمحوا لها بالاستمرار في إدارة ممتلكاتهم بعد وفاة والدها. كان الأبناء الثلاثة مقتنعون تماماً بذلك، ولكنْ، وبسبب غطرستهم، لم يجرؤ أيّ منهم على اقتراح ما كان واضحاً جلياً للجميع، ألَا وهو ضرورة إطاعة أوامرها وإعادة كتابة الإعلان.

تحدّث ماسيمو: "لا يهمّني أن يسخر منّا الناس، ولكني لا أريد أن تتمزّق إطارات سيّاراتكم أو يحدُث ما هو أسوأ. ليس أمامنا إلّا تصحيح إعلان الحائط ووضع النعي كما أعدَّتْهُ تلك المرأة. كما كتبتْهُ وفوراً". اتّفقوا جميعاً على ذلك.

26. تحليل الموقف في منزل ريسيكو

بعد العشاء، نزعت إلفيرا فنجان القهوة الفارغ من يد زوجها وسألتْهُ: "ما الشيء المهمّ الذي قد تحتويه رسائل خادمة؟". كانت إلفيرا تريد أن تعرف ما يحدُث.

بدأ جاسبري الحديث قائلاً:

"ماسيمو ليوني شخص سيّئ، وزِيْر نساء"، ثمَّ أضاف: "ويتردّد أنه قام باغتصاب غسّالة قاصر في شبابه. ابن وحيد لتاجر أخشاب صغير، وقد دفع بشركة أبيه في أعوام قليلة إلى حافّة الإفلاس. أنقَذ الشركة زوجُ أخته

الذي عيّنه بوظيفة وَهْمية فيها. كان زواجه بكارميلا الفالبيي ضربة حظٍّ كبيرة بالنسبة إليه. يُشاع في البلدة أن أينتسريللو كانت تعتبره غير كفء لكارميلا، ولم تشأ أبداً الاختلاط به ومعرفته. وقد تزوّجا في أثناء الصيف بينما كانت أينتسريللو تقضي الإجازة مع أبناء شقيقتها. ماسيمو يخون زوجته باستمرار. وأكثر من ذلك، يضربها".

قال متكدّراً ومصحّحاً من نبرة الأسلوب التأديبي الذي يحدّث به إلفيرا: "النساء لا تُضرَب. لا ينبغي ضرب النساء. يقال إن أبيه كان يُوسِعه ضرباً، ولكنْ، ما علاقة ذلك بضرب زوجته ..؟!" وبقي في مكانه هادئاً كما لو كان يعجز عن استيعاب الأمر.

من ناحيتها، كانت إلفيرا لديها أخبار جديدة مثيرة: ففي الظهيرة دخلت الآنسة أرتو إلى المكتبة، لتحكيَ للسيّدة بيكوريللا أن إحدى زبائنها قد روت أن أحدهم قد مزّق إطارات سيّارة ليوني الجديدة. وأيضاً هذا الصباح تحدّثت السيّدة بيكوريللا بحذر مع الأب أرينا عن شخص مهمّ ظهر في الجنازة، ولم تجرؤ على ذِكْر اسمه. وقد خفض القِسّيس بصره مُوافِقاً على كلامها.

وخمّنت إلفيرا: "قد تكون للمافيا علاقة بالموضوع؟" لم يكن جاسبري يودّ الحديث عن قساوسة أو عن رجال مافيا. وقال مستعيداً نبرة صوته المعتادة:

"لنحلّل الموضوع بشكل منطقي كما شرحتُ لكِ. حتّى موت أينتسريللو لم يكن هناك ما يريب في تصرّفات الفالبيي وليوني، على الرغم من غرابة الموقف. الأحداث اليومية فيها ما يثير الريبة. هناك شيء لا أفهمه. كانت أينتسريللو تتلقّى طروداً، مجلّات ورسائل، تتسلّمها من مكتب البريد. يمكن فهم هذا في إطار الواجبات التي كانت تضطلع بها، وكسل وخمول أفراد عائلة الفالبيي الذين كانوا لا يُرهقون أنفسهم حتّى باستلام المراسلات الخاصّة بهم. ولكن وصول الرسائل استمرّ بعد وفاة المحامي

الفالبيي، وهذا الشيء لا أستطيع تفسيره. كانت مجلّدات باهظة الثمن من مجلّات إيروتيكية وفنون وآثار. مَن يمكنه قراءة تلك الكُتُب والجرائد؟ إن استثنينا أينتسريللو نصف الأمّيّة، فمن غير المحتمل أن تكون السيّدة الفالبيي، السيّدة البرجوازية التافهة ذات الذكاء المحدود حسب رواية مَن يعرفها، والتي بالتأكيد ليس لديها اهتمام بالآثار .. إذن مَن؟ هل استمرّت الاشتراكات بسبب الإهمال والكسل، وكانت الطرود تظلّ مغلقة؟ أشكّ بذلك، نظراً لتقتير عائلة الفالبيي".

تدخّلت إلفيرا في الحديث وهي تنكمش تحت ذراع الزوج:

"وإن كانت المرأتان تقرآن هذه الكُتُب بصوت عالٍ كما نفعل نحن؟ في الأحوال جميعها، كانتا تعيشان في المنزل نفسه وليالي الشتاء طويلة ...".

همس جاسبري مداعباً خُصلات شَعْرها: "علاقة سحاقية ..".

اعترضت إلفيرا: "ماذا تقول؟! بين العجوزتَيْن؟!"

ردّ جاسبرا وهو يعذّبها بنزع خُصلة من شَعْرها: "القصّة تأخذ منعطفاً جديداً ومُعقّداً بزيارة كارميلا ليوني لمكتب البريد. كانت أينتسريللو تستلم خطاباً مسجّلاً يوم 25 من كلّ شهر. أتذكّر أنها اشتكت ذات مرّة لتأخّر وصول الخطاب يوماً واحداً فقط عن موعده. لقد دوّنتُ اسم المرسل، وهو بنك، وأنتظر تحرّيات من زميل. لكن الخطاب لم يصل اليوم. هناك مَن ينتظر ذلك الخطاب ويحتاجه، لذا كانت كارميلا تهدّد وتتوعّد، وكانت خائفة جدّاً. ماذا تحوي هذه الرسائل؟ وما الذي يهدّد عائلة الفالبيي؟ ولماذا؟"

استقامت إلفيرا، حرّرت رأسها من يد الزوج، ورفعت كتفَيْها كما لو كانت تريد أن تقول إنها لا تدري كيف تجيب.

قال لها جاسبري:

"ثمَّ عنصر المافيا؟ كيف يمكن تفسيره؟ الأمر غامض. إلفيرا، لنذهب للنوم ولنرَ ما سيحدُث غداً". همست وهي تُطفِئ المصباح: "مَن يدري؟! ربمّا يصل الخطاب متأخّراً عن موعده".

27. الزوجان فاتا يتحدّثان

كان من المعروف في بيت فاتا، أن الرئيس عندما يغلق باب حجرة مكتبه، لا يحبّ أن يزعجه أحد. كانت قاعدة، تكسرها دائماً الحفيدة الصغيرة ريتا، التي كان الجَدّ يسمح لها بكلّ ما تريد. وكانت مارجريتا فاتا تحرص على اتّباع عادات الزوج الثابتة واحترامها. ولكنْ، في تلك الليلة بعد عودتها من زيارة التعزية لأدريانا، اتّجهت مباشرة إلى مكتب الزوج، دقّت الباب ودخلت دون تردّد. جلست بجوار المدفأة فوق مَقعَد الفوتيه المقابل للزوج، الذي كان يقرأ ويستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية.

سأل بيترو وهو يرفع نظره من الكتاب ويغلقه ببطء:

"مارجريتا، ماذا حَدَثَ؟"

كانت رواية إيروتيكية، الأخيرة التي سلّمتْها له منولارا، المستلم البريء لمنشورات دارِ نشر خاصّة. كانت منولارا تحمل له الكُتُب طاعة واحتراماً لأوامر أوراتسيو حتّى بعد وفاته.

قالت له الزوجة باستحياء:

"أريد أن أخبركَ بمطلب لأدريانا وأحدّثكَ عن زيارتي لبيت الفالبيي كما سألتَني: كان البيت مليئاً بالأشخاص، الكثير منهم جاء بدافع الفضول، ثمَّ للنميمة بعد ذلك، ولكن أدريانا في حاجة للصحبة، فهي وحيدة تقريباً .. كارميلا غائبة وليللا قاسية مع أمّها. أدريانا لا تشعر بالراحة في بيتها، وتحنّ إلى أيّام إقامتها في بيت منو، كانت قد اعتادت عليها، وكان لديها كلّ

ما تحتاجه من الراحة. في أثناء الزيارة أخذتْني إلى حجرة نومها، لتُخبرَني بشيء على انفراد.

لن تصدّق، فكلّ ما كانت تريد حكايته هو أن الأب أرينا زارها هذا الصباح لتقديم العزاء، وقد أهدتْهُ ليللا كُتُباً من مكتبة أوراتسيو".

قوّس بيترو حاجبَيْه كما كان يفعل عندما يشعر بالفضول: الأمر يتعلّق بكُتُب.

استمرّت زوجته في الحديث:

"قالت لي أدريانا إن ليللا ذهبت إلى مكتب أوراتسيو، وأخذت كُتُب دانونسيو كلّها، ووضعتْها في كيس، وأهدتْها للأب أرينا. كانت أدريانا المسكينة تبكي، وكانت تبدو لي واهنة محطّمة الأعصاب. وعلى أيّ حال، يبدو أن أوراتسيو كان قد أوصاها بإعطاء هذه الكُتُب لكَ بعد وفاته، ولم تسمح لها منو بذلك، لأنها كانت تريد الاحتفاظ بالمكتبة كاملة. وكالعادة أطاعتْها أدريانا. يظهر أنها كانت الأُمنيّة الأخيرة لأوراتسيو. أكنتَ تعلم شيئاً عن ذلك؟"

أجاب بيترو متردّداً: "لا، لا. لم أكن أنتظر أيّ هدية منه، فقد كان سخياً معي في أثناء حياته".

"أدريانا جعلتْني أَعِدها أن أُخبركَ بأنها ترغب في أن تتحدّث أنتَ مع الأب أرينا، وتطلب منه إعطاءكَ هذه الكُتُب. وستسمح هي له باختيار كُتُب أخرى، لأن تلك الكُتُب كانت مخصّصة لكَ".

قال الزوج: "يجب أن أتذكّر التحدّث مع الأب أرينا في هذا الشأن عندما أراه".

- "لا، أدريانا كانت تلحّ بشدّة، وترغب في أن تتحدّث معه في أقرب

فرصة. الأب أرينا يعيش في الريف ويحضر إلى البلدة مرّات قليلة .. من فضلكَ افعلْ ما تطلبه منكَ، المسكينة، يكفي ما يشغل بالها من أفكار".

أراد بيترو فاتا تغيير الحديث، فقد كانت زوجته تثير أعصابه وسأل:

"ماذا يقال أيضاً؟"

"يبدو أن دون فينشينسو أنكونا حضر الجنازة. رآه قليلون، ولكن الشائعة سرت وانتشرت".

كان حضور العجوز القوي، زعيم المافيا لجنازة خادمة من أخبار النميمة التي لم تكن تهمّ فاتا على الإطلاق وقال: "ربمّا كانت منولارا على صِلَة به، ولكني لا أفهم لماذا يتكلّف عناء حضور جنازة خادمة؟! ربمّا فعل ذلك احتراماً لعائلة الفالبيي".

نبّهتْهُ مارجريتا:"ولكنه لم يحضر جنازة أوراتسيو".

لم يردّ الزوج. وقد زاد إلحاح زوجته من شعوره بالتوتّر.

استمرّت الزوجة في قَصّ ما حَدَثَ مطمئنّة إلى المهمّة التي أُسندت إليها:

"كانت الآنستان أروتسا تتحدّثان في محلّ الخردوات عن كارميلا وماسيمو. الجميع يعلم ما حَدَثَ. الناس تتحدّث كثيراً. بالإضافة إلى ذلك، يقال إن مجهولين قد مزّقوا إطارات سيّارة ماسيمو. هذا الشابّ على علاقة بأشخاص مشبوهين. ماريا جوزيه سليتو، والتي تشبه أمّها البارونة تشفيليا كثيراً، تُطلق أحاديث النميمة باستمرار، وكانت تحكي أنه بعد أن أوسع زوجته ضرباً ذهب إلى مكان سيّئ السُّمعة".

ابتسم بيترو، وتضرّج وجه زوجته بالحمرة. كانت محرجة، ولم تكن تستطيع نطق كلمة "بيت دعارة"، "وقالت للجميع إن منولارا كانت واحدة

من هؤلاء". ابتسم بيترو مرّة أخرى، ربمّا كانت مارجريتا من شدّة براءتها لا تعرف كلمة عاهرة. "وربمّا كانت على علاقة برجال المافيا. لم أسأل. كان الأمر يبدو لي شديد السوء. ولكنْ، قلْ لي يا بيترو، مَن يكون قد أخبر ماريا جوزيه بتلك المعلومات كلّها؟"

أجاب الزوج بصبر واستسلام .. لسذاجة الزوجة التي تقرّبها من الغباء:

"لا أدري. تصرّفات المهندس سالفاتوري سيليتو، الزوج الخائن لزوجته وغير الملتزم، كانت معروفة للجميع. أشكركِ. أعلم أنكِ كنتِ تفضّلين البقاء في البيت لِلَّعب مع الطفلتَيْنْ بدلاً من الخروج وسماع أحاديث النميمة، ولكنه كان أمراً ضرورياً. الآن يجب أن أنتهي من القراءة، لنتقابل على العشاء".

أنزَلَ بيترو فاتا عينَيْه على الكتاب الذي كان يضعه فوق ركبتَيْه بينما كانت مارجريتا تنهض من المَقعَد: أخيراً نجح في إبعادها.

28. ريتا بارينو تتأمّل في الماضي

لا تزال ريتا بارينو سكوتي، الابنة الوحيدة لموثِّق العقود بارينو وأرملة البروفيسور المعروف سكوتي، أستاذ الأدب الايطالي في جامعة باليرمو، شابّة، وقد عادت إلى روكاكولمبا لتعيش مع والدَيْها. امرأة جريئة جذّابة اختارت ألّا تتزوّج مرّة أخرى، وكرّست وقتها للفنون، وخاصّة الموسيقى.

أقامت العديد من العلاقات العاطفية المتّزنة، كلّها مع رجال متزوّجين، ومن بينهم أوراتسيو الفاليبي. لم تكن تحاول خطف الرجل من زوجته، وكانت مقتنعة أنها تُضفي سعادة على الحياة الزوجية لعشّاقها. وكانت الصداقة بينها وبين الزوجات المَخُونَات اللاتي كنّ يتردّدنَ على صالونها الموسيقي في بعد الظهيرة وكأنهنّ يشكرنَها، تؤكّد لها ذلك استمرار.

كانت ريتا تحتقر أدريانا الفاليبي ومنولارا، وتعتبرهما المسؤولتَيْن عن النهاية السريعة لقصّة حبّها مع أوراتسيو، التي كانت، دون شكّ، أكثر القصص عمقاً ومرحاً في سنواتها الناضجة.

كان من السهل بالنسبة إليهما التمتّع بالصحبة دون اللجوء إلى الحيل المعتادة، ودون التسبّب في أيّ فضيحة. كان يتقابلان في الريف في بيت ريتا الريفي، بحجّة أن أوراتسيو يهتمّ كثيراً بعلم النباتات، وكان يُعجبه البقاء في حديقة بارينو. كان أوراتسيو عاشقاً كريماً، مفعماً بالحيوية والخيال. حدّثها قليلاً عن عائلته، وبدا أن أدريانا كانت تتقبّل مغامرات الزوج وخياناته لها تقريباً بنوع من الارتياح.

شعرت ريتا بالفضول تجاه شخصية خادمة السيّدة، منولارا. في البداية راودتْها الشكوك بأن منولارا تحبّه سرّاً، وأن ذلك هو الدافع وراء طاعتها له. كان يعلّمها التعرّف على قِطَع الخزف القديمة وإعادة تشكيلها، وكانت تساعده في فهرسة القِطَع الأثرية. سخر أوراتسيو من شكوكها، ووضّح لها أنه يعرف منولارا منذ دخلت بيتهم للخدمة في الثالثة عشرة من عمرها، ولم تُبْدِ أبداً أيّ غَيْرة، ولم تطمح إلى ما تعرف جيّداً أنه لا يمكن الوصول اليه. فهي مَن خَدَمَ البيت، وتنتمي إليهم، لذلك كانت مخلصة له وللعائلة كلّها. كانت تؤدّي واجبها فقط. وقد تأكّدت ريتا من ذلك عندما علمت بأن منولارا أخذت على عاتقها بعض مسؤوليات أوراتسيو، لتترك له الوقت الكافي، ليقضيَهُ معها. كانت تخلق لأوراتسيو أحياناً أسباباً مقنعة للقيام برحلات عمل في إيطاليا، ولم يكن الأمر، في الواقع، سوى إجازاتهما اللذيذة التي يقضيانها معاً.

وكانت منولارا مَن تُوصِل لها رسائل وهدايا من أوراتسيو، كي لا تُثير الشبهات. كانت ريتا ترى منولارا امرأة متعطّشة للسلطة، نهمة وطاغية في طاعتها لعائلة الفاليبي، لدرجة أنها أقنعت أوراتسيو وأدريانا بالانضمام

إليها في رفضها لزواج كارميلا من ماسيمو ليوني. كان إنساناً تافهاً، ولذلك ربّما كان مناسباً لابنتهم!

لم تكن تلك العائلة تتّخذ قرارات دون موافقة منولارا.

وبعد عودتهما من رحلة سعيدة بشكل خاصّ، قام بها أوراتسيو بحجّة الاشتراك في مؤتمر عن الموسيقى. أراد أوراتسيو دعوة ريتا مع والدَيْها إلى بيته لمشاهدة إناء آيوني مهرّب من حفائر "بوسكو ليتوريو" في جيلا. كان ذلك حَدَثاً في بيت الفالبيي. فقد كانت منولارا لا تسمح بإقامة دعوات ليلا بحجّة أنها تشعر بالإرهاق، ولا يمكنها إقامة موائد، بينما كانت تبذل قصارى جهدها، وتتفنّن في تنظيم حفلات في الريف في أثناء الصيف، وحفلات الاستقبال المعتادة التي كانت تقام لصديقات أدريانا بعد الظهيرة.

لم يدع أوراتسيو ريتا سابقاً أبداً لزيارة مكتبه الذي أعاد ترميمه بنفقات باهظة كان يتباهى بذِكْرها، ولم يظهر لها مجموعاته. كانت الدعوة تمثّل مناسبة عظيمة. تبادلوا أطراف حديث ممتع على مائدة الطعام. كان الطعام ممتازاً، وخدمتْهم منولارا بصمت كما ينبغي. بعد الانتهاء من تناوُل الطعام، دعا أوراتسيو ريتا لزيارة مكتبه بعد تناوُل القهوة، بينما كانت أدريانا ستصحب والدَي ريتا إلى الصالون .. وفي تلك اللحظة عادت خادمة السيّدة إلى حجرة الطعام تحمل فناجَي القهوة فوق الصينية الفضّية، التي ألقت بها فوق المنضدة بجانب أدريانا بغضب شديد، جَعَلَ الفناجين كلّهم يرتجفون فوق أطباق البورسلين الصغيرة. قالت منولارا: "لن أخدم تلك العاهرة!" ثمَّ انصرفت وأغلقت الباب وراءها. وجموا جميعاً من الدهشة، وأظهرت أدريانا سرعة بديهة فقالت: "معذرة، لا أدري ما أصابها. لقد احترمتْني دائماً، ولا أدري لماذا تُهينني الآن أمام ضيوفي؟!". صمت أوراتسيو، وحاول الجميع التظاهر بأن شيئاً لم يحدُث. وبعد قليل استأذنت عائلة بارينو، ولم تزر ريتا مكتب أوراتسيو.

كانت ريتا واثقة من أن منولارا كانت تعنيها بكلماتها. وتأكّدت من ذلك في اليوم التالي عندما أرسل إليها أوراتسيو رسالة وداع: "حبيبتي ريتا، *أُدرك أن السعادة العائلية، والتي هي بالنسبة إليّ مصدر سعادة وحبور، تهدّدها قصّة حبّنا الغالي، ممّا يدفعني لاتّخاذ قرار صعب. الوداع، يا ملهمتي، مع عرفاني الدائم .. أوراتسيو*".

رأتْهُ بعد ذلك بأيّام قليلة في حفل موسيقي في عاصمة المقاطعة بصحبة أدريانا. وكانت أدريانا هي مَن اقتربت منها، لتعتذرَ لها عن تصرّف الخادمة قائلة "إنها مخلصة جدّاً .. ولكنها تتجاوز حدودها في بعض الأحيان .. كانت لديها بعض المشكلات .. ويبدو أنها غضبت منّي. أشعر بالخجل والأسف الكبيرَيْن. أسألكِ المعذرة مرّة أخرى". ظلّ أوراتسيو بجوار زوجته صامتاً لا يبدو عليه أيّ تعبير. كرهت ريتا أدريانا؛ شخصية مزيّفة عديمة المشاعر. لم تكن تلك الزوجة التافهة - كما كان يصفها أوراتسيو الغبي - بل كانت حَيّة، تتمتّع في المدينة بسمعة امرأة فاضلة، لقب لا تستحقّه. أمّا بالنسبة إلى منولارا، فقد أخطأت أيضاً في فَهْمها، فقد كانت امرأة تدافع عن منطقة نفوذها. لم تكن لتتنازل عن السلطة دون مقاومة. وغالباً خشيت أن ينتهيَ الأمر بانفصال الزوجَيْن، ممّا قد يدمّر مكانتها في بيت الفالبيي. المكانة التي لم تكن لتحتفظ بها إلّا والعائلة متّحدة، لذا انحازت إلى الزوجة ومعها مارستا تسلّطهما على أوراتسيو الضعيف.

ومنذ ذلك الوقت، طرأ على أوراتسيو تغيير جذري. كان يظهر فقط في الاحتفاليات الموسيقية، وليس في الحفلات ... كان يخرج مع عدد محدود من الأصدقاء الرجال. كان يحبس نفسه في البيت، يكرّس وقته كلّه لهواية اقتناء التحف وجمعها.

كان يُشاع في البلدة أن تصرّفه هذا جاء بسبب المرض الذي أدّى إلى وفاته بعد ذلك بأعوام قليلة.

عندما ترمّلت أدريانا اختارت أن تعيش مع منولارا في بيتها. فهمت ريتا لعبتهما أخيراً. لم تكن أدريانا تُعجَب بالرجال كثيراً، ويبدو أن الخادمة كانت تُرضي رغبات سيّدتها لتحقيق مصلحتها أو لهوى في نفسها. لم يكن لدى ريتا أيّ شكّ أن المرأتَيْن ارتبطتا بعلاقة سحاقية من قبل، وكان ذلك حَلّ اللغز.

كانتا تظهران بمظهر ضحيّتَيْن لأوراتسيو: الأولى ضحية لخياناته الزوجية، والثانية للمسؤوليات التي أثقل كاهلها بها. وهما، في الواقع، قد أخرجتاه من الحياة العائلية، وكانتا تعيشان في علاقة تكافل شاذّة.

كانت المسكينتان تخشيان أن يدمّر أوراتسيو وريتا تلك العلاقة الخفية في قصر الفالبيي. الشرّيرتان، لو كانتا تعلمان أنها على الرغم من حبّها لأوراتسيو لم تكن لتضحّي بحُرِّيَّتها أبداً من أجل رجل.

أخفت ريتا عن الآخرين نظريّتها والاحتقار الشديد الذي تُكنُّه لهاتَيْن المرأتَيْن. الآن بعد موت منولارا، كانت تشمئزّ من سماع عبارات المدح والثناء عليها، ومن حديث الناس عنها باحترام وإعجاب. كانت تودّ البحث في ماضيهما، لتكتشف اهتماماتها الخاصّة. وكانت لتفعل الشيء نفسه عند موت أدريانا.

29. في الصالون الموسيقي في بيت بارينو، بعد الظهيرة لم يستمعوا إلى الموسيقى، وإنما تحدّثوا عن عائلة الفاليبي ومنولارا

كانت صالونات بارينو تزدحم، ليس فقط بالسيّدات، وإنما أيضاً بأزواجهنّ، وهي ظاهرة غير مألوفة. كان الرجال في الغالب يصطحبون زوجاتهم، ثمَّ يعودون لأخذهنّ بعد الظهيرة عند نهاية الصالون الموسيقي. بدعة جديدة في المناسبات الاجتماعية، ابتدعتْها ريتا بارينو التي كانت لا تزال تحتفظ بلقب عائلتها.

كانت السيّدات يحاولنَ الالتزام بالقواعد المنظّمة لهذه اللقاءات، ولكنهنّ لم يستطعنَ. لم يكن الرجال يُبدون أيّ نِيّة في الانصراف، فضلاً عن أن الضيوف كلّهم كانوا لا يهتمّون بالموسيقى، بل يتجمّعون في حلقات لمجموعات صغيرة أو كبيرة، حسب أهمّيّة الأخبار وما تحويه من نميمة عن أحداث غير عادية حَدَثَت في منزل الفالبيي.

كانوا يشبهون طفيليات الأميبيا، التي تذوب ثمَّ تتشكّل عند استشعار أوّل فرصة للنميمة اللاذعة أو الأحاديث المشابهة للنميمة. وعلى الرغم من أن الأحداث المَروِيّة لم تكن مُسلّية، بيد أنها كانت مرحة، فقد كان أهالي روكاكولومبا يشعرون بجفاء يصل إلى حدّ البغض تجاه عائلة الفالبيي، التي استغلّت إدارتها لأملاك أمراء برولي لتحقيق ثروة باقتناء أراضٍ شاسعة بأسعار زهيدة، ثمَّ تعالت عليهم بعد ذلك.

كانت متعة النميمة المتأصّلة فيهم تتغلّب على متعة الاستماع إلى موسيقى "فاجنر"، التي أصبحت مجرّد خلفية موسيقية لأحاديثهم. لمح البعض كارميلا ليوني عند الظهيرة وهي تهبط من السيّارة أمام بيتها. كانت ترتعش وتتحرّك بصعوبة وقد لوّثها القيء. كان ماسيمو يسندها حتّى باب البيت بوجه غاضب. مَن يدري ماذا حَدَثَ لها؟

البارونة تشفيليا، التي نادراً ما تزور صالونات البلدة والتي تظاهرت في بادئ الأمر بالترفّع عن رواية مثل تلك الحكايات السيّئة، تتباهى الآن أمام جمع غفير بأنها عرفت من مصادر موثوق بها أن ماسيمو ليوني ضرب زوجته كارميلا، وقد وجد بها الطبيب منديكو بعض الكسور في الضلوع. أغفلت البارونة ذِكْر "المصدر الموثوق به" ألَا وهو بوّابة بيتها إنزا ميليتيللو التي عرفت بتلك الأخبار عن طريق زوج الكوَّاءَة في بيت ميندكو، والتي بدورها نجحت في معرفتها باستراق السَّمْع على حديث الطبيب منديكو

وأخته السيّدة دي بريما، وحكت كلّ شيء لزوجها عندما ذهب ليصطحبَها إلى البيت.

قالت السيّدة ميمي بوماريتو متعجّبة، وقد ألهت بقية الضيوف دون قصد عن البارونة: "منولارا كانت مثل كاسندرا في التنبّؤ بالمستقبل! فقد تنبّأت بذلك كلّه. لقد حكت لي خادمتي أنها كانت ضدّ زواج كارميلا، لأنها كانت تعلم بعنف ماسيمو ليوني حتّى مع أمّه التي صفعها. كانت محقّة في رفضها له!

كانت منولارا تودّ فقط الخير لعائلة الفالبيي. لو كانوا استمعوا إليها ....".

أهمل الضيوف، وقد سحرتْهم هذه المعلومة، توجيه أسئلة أخرى إلى البارونة. شعرت البارونه بالإهانة، ولم تشأ الثناء على تعليق المدرسة بوماريتو، باعتبارها سيّدة من أصول متواضعة كانت تعتقد بسذاجة أنها تستطيع تثقيف نفسها بالتردّد على صالونات بعد الظهيرة في بيت بارينو. تلك الصالونات التي يتمّ تنظيمها كما يعلم، الجميع لاستعراض فضّيات موثّق العقود، وليس حبّاً في الموسيقى.

حرصت البارونة على سلب النصر المباغت الذي حقّقتْهُ بوماريتو، وقالت بازدراء: "يجب عدم تصديق ما يقوله الحُثالة والخَدَم وما يُقرّرون إخبارنا به، فهم ليسوا أهلاً للثقة. بالتأكيد ماسيمو ليوني كسر ثلاثة ضلوع لكارميلا المسكينة، ولكنْ، لم يكن لخادمة أن تستغلّ الثقة التي منحتْها إيّاها الفالبيي، وتتدخّل في أمر زواج ابنة سادتها، فهذا قرار ربّ الأسرة أوراتسيو. ولكنه، كما هو معروف، كان ضعيف الشخصية أمام بعض النساء، وكان القرار النهائي دائماً للخادمة".

بعد أن أحسّت البارونة بالسعادة وقد أصابت هدفَيْن بعبارة رصينة، نظرت بسرعة إلى ميمي بوماريتو التي تضرّج وجهها بالحُمرة بعد أن شعرت بالحرج منصاعة للدَّرس الذي لقّنتْهُ لها البارونة في الذكاء الاجتماعي والرُّقِيّ.

ثمَّ صوّبت عينَيْها إلى وجه ريتا بارينو، عشيقة سالفاتوري سيلتيو، زوج ابنتها منذ فترة قصيرة، والسبب في الشقاق والألم في بيت الابنة ماريا جوزيه.

استمرّوا في اغتياب عائلة الفالبيي والتحدّث عن غطرستهم ونقاط الضعف عند الرجال، بدءاً من النَّهَم الجنسي للمحامي جاني.

وقبل انصرافها، رمت البارونة بسهمها الأخير مباشرة نحو ريتا: "من المعروف أنه في العائلات التي يكون الرجال فيها ضعاف الشخصية، فإن خادمة مثل منولارا يمكنها أن تصبح السيّدة الآمرة. في الحقيقة عاش أوراتسيو دائماً تحت سيطرة أمّه، ومن بعدها منولارا. على الأقلّ أنقذت منولارا العائلة، وحافظت على وضعها الاجتماعي، وكانت مخلصة وأمينة، ولم تأكله حيّاً كما فعلت صديقاته اللاتي حصلنَ على هدايا ورحلات كما يقال!". ومرّة أخرى جذبت البارونة الاهتمام إليها. شحب وجه ريتا بشكل واضح، ونظرت إليها نظرة نارية ردّت عليها البارونة بنصف ابتسامة مستمتعة بضيقها، وانصرفت إلى مجموعة أخرى من الضيوف.

هنّأ المَدعوُّون أصحاب البيت على نجاح الظهيرة الموسيقية. وعندما بقيت ريتا وحدها مع والدَيْها، شَكَتْ من صداع شديد، وذهبت إلى غرفتها.

ذهبت الأمّ إلى المطبخ، لترى إن كانت الخادمات قد غسلنَ وجففنَ أدوات المائدة الفضّية كلّها، لتعدّها بعد ذلك، وتضعها في دولاب الحائط، الذي تُغلقه بالمفتاح.

بقي موثِّق العقود بارينو وحده، فقد لاحظ الإهانات التي لحقت بابنته من كلام البارونة اللاذع، وكان يفكّر في طريقة للانتقام منها، بينما كان يتمشّى في الرَّدْهَة بخطوات واسعة ثقيلة ورأسه منكس ويداه معقودتان بعصبية خلف ظَهْره، ولم يلاحظ نظرات الخَدَم التي كانت تتسلّى بمشاهدته وتُدهش لحركاته. وكي ينسى ما حَدَثَ، ذهب إلى النادي.

30. الرجـال يتحدّثـون عـن الصفقـات في نـادي أونيتـا دي إيطاليـا

كسب بيترو سانساردا، السمسار الذي أصبح حديثاً صاحب شركة إنشاءات، مباراةَ البوكر، وكان يقدّم الشراب لزملائه الخاسرين. كان يحيط بهم أعضاء آخرون يثرثرون حول مصائب عائلة الفالبيي.

صرّح المحامي العجوز إيتوري مانسيللو بثقة وبشكل مسرحي، أن ريسيكو، شخص سيّئ من الشيوعيِّيْن، قد قدّم بالفعل بلاغاً ضدّ كارميلا، وأن أركان الاتّهام متوفّرة: سيؤدّي ذلك إلى الدمار الحقيقي لسمعة العائلة. وأضاف: "أفراد عائلة الفاليبي مجانين. عمّ يبحثون في مراسلات تلك الخادمة؟ نحن أتراب أوراتسيو نعلم جميعاً أنه كان يطلب بعض المجلّات الإباحية من باريس باشتراك خمس سنوات يدفعه مقدّماً، ويرسل منولارا إلى مكتب البريد لاستلامها وتسليمها إلى منزل فاتا، خشية أن تكتشف المرحومة والدته الأمر. كان يمكن لكارميلا أن تتسلّم تلك المجلّات إذا كان الاشتراك لا يزال سارياً. أتمنّى أن أصبح ذبابة لأرى وجوه أبناء الفاليبي عند فتح تلك الطرود. الحقيقة أن الأبناء لم يَقنعوا بالميراث الذي تركه لهم المسكين أوراتسيو، ولم يثقوا بإدارة منولارا لأملاكهم، والتي كانت أمينة، حسب ما شاهدتُ".

شرب كأسه الصغيرة من الخمر، واستأذن قائلاً: "أراكم بعد قليل". ثمَّ نهض تاركاً المنضدة ومتّجهاً إلى صالة أخرى من النادي.

بيترو سانساردا كان صديقاً لعائلة ليوني، لذلك كان يدافع عن تصرّف عائلة الفالبيي: "منولارا كانت لا تزال تدير ممتلكات أدريانا الفالبيي، والأبناء محقّون في سعيهم لمعرفة إن كانت ممتلكات العائلة ستَؤول إليهم، وليس لأبناء شقيقه منولارا. وإن كانت كارميلا قد تصرّفت بتهوّر في مكتب البريد، فتصرّفها له ما يبرّره .. كَمُّ القلق والأفكار التي تدور برأسها جعلها تبالغ.

هكذا هنّ النساء؛ ضعيفات عقل. يحدُث ذلك للكثيرات. ولكن زوجة ماسيمو ليوني كانت محقّة في الذهاب إلى مكتب البريد وفي السؤال والتحرّي. فقد كانت تلك الخادمة تتصرّف في ممتلكات العائلة، وإن كانت الآن في رحمة الله، فهي لم تعطهم نصيبهم كلّهم. وإلّا فلتفسّروا لي كيف تأتّى لها امتلاك شُقّة، واستضافة سيّدتها مجّاناً؟! كانت ابنة فقراء معدمين وتعيش براتب خادمة. ونعلم جميعاً أن آل الفالبيي لم يتميّزوا أبداً بالكرم مع مَن يعملون لديهم". قال ذلك وهو ينظر حوله، ثمَّ .. عصر كتفَيْه وبسط ذراعَيْه، وأردف:

أيُّها السادة: "الحساب لا يتأتّى هكذا".

قال موثّق العقود فاتسانو:

"بيترو، لقد نسيتَ قصّة بيع الأراضي في بوليري. لقد حصلتْ منولارا على نسبتها الخمسة بالمائة، وهي النسبة التي تستحقّها كوسيط في البيع. فقد نصحت الإخوان الفالبيي بعدم البيع وبالانتظار لمدّة عام. وقد كسب أوراتسيو وفينشينسو الكثير بعد اتّباع نصيحتها. ففي خلال العام، تحوّلت هكتارات كثيرة من الأراضي الزراعية في بوليري إلى أراضي بناء. بعد ذلك أسند أوراتسيو إدارة أملاكه كلّها إليها. على عكس فينشينسو الذي ركبه الغرور، ولم يشأ ترك الأمر لها، وتشاجر مع أخيه. فلولا منولارا، لباع الإخوان تلك الأرض التي أصبحت منجم ذهب للعائلة فيما بعد. لقد كتبتُ عقود البيع والتقسيم، وأعرف ذلك جيّداً".

لم يكن سانساردا مقتنعاً وردّ: "كانت مجرّد خادمة، ولا يمكن لبعض المعلومات أن تصل إليها. كانت محظوظة. ثمَّ مَن يجزم بأنهم كانوا عازمين على بيع أرض بوليري ولم يرغبوا في الانتظار؟ مَن يمكنه الوثوق بتصرّفات عائلة الفالبيي؟" لم يستسلم فاتسانو، وواصل حديثه: "أؤكّد لكَ ذلك. كانوا غارقين في الديون، وكان فينشينسو الفاليبي في أمسّ الحاجة إلى

النقود، وأوراتسيو، كما نعلم جميعاً، كان يجيد فقط إنفاق الأموال. وقد كلّفني الإخوان بكتابة عقد البيع الابتدائي مقابل عشرين مليون ليرة، وهو مبلغ ضخم في الخمسينيات. وذات يوم استدعاني أوراتسيو في منزله. أتذكّر جيّداً ذلك اللقاء. وكانت منولارا حاضرة في المكتب. كانت تُلمّع بعض الأواني التي اشتراها أوراتسيو، فخّار قديم كان يضيّع أمواله في شرائه، وبقيت منولارا بالحجرة ممّا بدا لي في غاية الغرابة. أُقسم لكم، لم أرَ أوراتسيو أبداً يتكلّم بذلك التصميم والثبات. أخبرني أن البيع لن يتمّ، وأن عليّ إخبار المشترين بذلك. لم يكن يريد عروضاً أخرى حتّى بضعف الثمن، وكانت تلك تراقبه من بعيد بنظرات خاطفة".

لم يستسلم سانساردا: "ولكنْ، إن كانت بوليري والأراضي التي حولها قد تحوّلت إلى أراضي بناء، فما دخل منولارا بذلك؟ لا يمكن أن تخبرني أنه كان لها دَخْل في ذلك، أو أنه حصل بسبب صداقاتها في البلدية أو المقاطعة؟ كيف تسنّى لها أن تعرف؟ لا أعتقد أنه كانت لديها مصادر تُخبرها بذلك، ومَن هم؟ فكما تعرف زوجاتنا بالأخبار من الخادمات، تفعل الخادمات الشيء نفسه مع سيّداتهنّ، ولكن تلك المعلومات لا تعرفها زوجاتنا أو الخَدَم الآخرون. كانت محظوظة، محظوظة جدّاً، وقد حصلت على عمولة كبيرة من عائلة الفالبيي في صفقه البيع دون أن تستحقّ تلك العمولة".

كان موثّق العقود بارينو يستمع باهتمام، ومنذ تلك اللحظة تدخّل قائلاً:

"تذكّروا أن المدينة الجديدة كان ينبغي أن تُشيَّد في الناحية الأخرى من الجبل، في بايامونتي. لم يتوقّع أحد أن تُشيَّد في بوليري. لا أحد على الإطلاق. وقد دُهشتُ لذلك، وخسرتُ أموالاً، وقد اشتريتُ بالفعل أراضي في بايامونتي، وبقيت لزراعة الشعير والأرز".

قال بيترو مانسويلا: "اللعنة!"، ليُظهر تعاطفه مع الاستثمار المتهوّر الذي قام به موثّق العقود بارينو. بيد أن الأخير لم يُعِرْهُ أيّ اهتمام، واختتم بسرعة: "تلك المرأة كان لديها مَن يحميها وينصحها جيّداً. وبالتأكيد ليس الخَدَم الآخرين".

المهندس بومياتشي، مستشار المقاطعة وشخصية سياسية بارزة من حزب اليمين، قليل الكلام ومستمع جيّد قال: "تضيّعون وقتكم في التخمين. كانت محظوظة. أحياناً ذلك يحدُث".

كان المحامي مانسيللو، قد عاد لتوّه من صالة اللعب، وانضمّ إلى المحادثة ضاحكاً: "محظوظة منولارا، ومحظوظ جدّاً أوراتسيو. عقب تلك الصفقة الموفّقة، كان يثق فيها تماماً، ولم تفعل ما يجعله يندم على ذلك، ولم يحدُث له ما حَدَثَ مع فينشينسو، الذي باع إرثه كلّه مقابل أموال قليلة. ففي ديسمبر 1950، قبل صدور قانون الإصلاح الزراعي وكي تتجنّب منولارا استقطاع أراضي عائلة الفالبيي، جعلتْني أعمل مثل البغل لحَلِّ منازعات قديمة وحديثة لإرث مشترك مع أفراد آخرين من العائلة، كي يتمكّنوا من عمل عقود هِبَة وبَيْع صُورِي. عقود بَيْع صحيحة قانونياً. استطاعت دائماً أن تحتفظ لعائلة الفالبيي بأفضل الأراضي، فقد كانت تعرف أراضيهم شبراً شبراً مثل خبير. كان بيتراري يبيع لأولئك الفلّاحين المساكين الذين كانوا يشترون دونمات قليلة، معتقدين أنهم أصبحوا بالفعل أصحاب أراضٍ زراعية، وأنهم سينسون مشقّة العمل والجوع".

كان الآخرون يستمعون إليه غير مصدّقين، لم يكونوا ليتخيّلوا أن منولارا كانت على هذا القَدْر من الكفاءة وتحمّل المسؤولية.

قال سانساردا: "لا أصدّق. أنتَ بالتأكيد تخلط بينها وبين أشخاص آخرين".

كان مانسيللو لا يستسلم بسهولة:

"ماذا تقول؟! أنا عجوز حقّاً، ولكني لم أفقد عقلي بعد! فلنسأل أنجيلو فاتسانو ... لقد قمتُ بكتابة العديد من العقود لعائلة الفالبيي في ذلك الوقت. هل صحيح ما أقوله أم لا؟"

أرخى موثّق العقود فاتسانو جفنَيْه، وأخفض رأسه مرّتَيْن بوجه غامض، ففهم الجميع.

أشعل تأكيد انجيلو فاتسانو حماسه، وواصل إيتوري مانسيللو الكلام بصوت عالٍ: "كان أوراتسيو يعيش حياة عازب خالي البال. كان يكرّر لي ذلك دائماً ويسخر من نفسه. كان يقول إن منولارا عفريتة في استثمار الأموال. كانت تقوم بكلّ شيء في البيت، في الريف، وفي استثمار الأموال.

ما كان يضايقه فقط هو حتمية تدخّله في بعض المواقف، عندما كان يتعيّن عليه الحفاظ على المظاهر والتصرّف وكأنه مَن يتّخذ القرارات. ففي بعض الأحيان، يحتاج الأمر إلى رجل، فطبقة معيّنة من الناس لم تكن تقبل أن تتعامل مع أنثى أُمّيّة. كان أوراتسيو يهتمّ فقط بالحصول على الأموال للتسلية وشراء أشياء لا فائدة منها، ولإنفاقها على نفسه وعلى النساء. لقد أنفق ملايين على مَن يُسمَّينَ ببنات العائلات، أكثر ممّا كلّفتْهُ العاهرات!"

قطع مانسيللو حديثه، فقد أدرك وجود جوفاني بارينو، والذي بقي جامداً، ولم يَبدُ على وجهه أيّ تعبير، فقد كان رجلاً متّزناً. ابتعد بارينو عن مجلسهم، واقترب من منضدة لعب أخرى. عندما تأكّدوا أن موثّق العقود بارينو لم يسمع حديثهم، استمرّوا في الضحك والسخرية حول الموضوع نفسه، حتّى إن فاتسانو حكى: "كان أوراتسيو يؤكّد أن الحياة لا معنى لها دون نساء، وأن الأموال التي تُنفقها من أجلهنّ ليست ضائعة. من سخرية القَدَر أنه استطاع التمتّع بالنساء بفضل عمل خادمة، بل وعانس".

اتّخذ الحديث نبرة لاذعة عن الخدمات الخاصّة التي تقوم بها بعض الخادمات الشابّات لأسيادها حقّاً. أردف مانسيللو: "يمكن التأكيد أن

منولارا قدّمت لأوراتسيو ولعائلة الفالبيي كلّها خدمات خاصّة، بل من نوع نادر. كانت حماراً يُخرِج نقوداً. وفي الحقيقة، لو كانت في الفراش بالبراعة نفسها التي كانت عليها في أعمال البيت والإدارة، لكان أوراتسيو من أسعد الرجال حظّاً. ولكن المرء لا يمكنه الحصول على كلّ شيء في هذه الحياة، وقد وهبت الحياةُ الكثيرَ لأوراتسيو".

قال فاتسانو:

"وكنتُ أحسده على منولارا، فقد كانت خادمة ماهرة ومخلصة وأمينة لا مثيل لها".

عاد الموثّق بارنيو إلى الصالة. كان يتظاهر بمتابعة اللعب على المنضدة القريبة، ولكنه، في الواقع كان مُنصِتاً لحديثهم، بينما كان يفكّر في ابنته الحبيبة وفي الألم الذي سبّبتْهُ لها منولارا. اقترب من المجموعة وقال:

"أنثى تجيد العمل، نعم. ولكنْ، أمينة، لا أعتقد. بالتأكيد رجل ذو مكانة لن يذهب إلى جنازة خادمة أيّاً كانت، لجنازة عشيقة ربمّا .." وبعد أن قال ذلك، استأذن منهم بتحية تصبحون على خير، وأدار قَدَمَهُ، وخَرَجَ من المنتدى محيِّياً مَن يقابله من الأعضاء في الطريق بأدب، دون التوقّف للحديث معهم كالمعتاد، وإنما عاد إلى بيته مباشرة.

بهت الحاضرون من المزحة الصريحة لرجل معروف بالتسامح واللياقة، ثمَّ عادوا إلى ثرثرتهم بحبور، وقد شعروا بالحُرِّيَّة في الحديث والنميمة أكثر عن مغامرات ريتا بارينو. تفرّع الحديث وتشعّب إلى الأحاديث التقليدية المُملّة ذات التلميحات الصريحة عن مغامرات الأرامل داخل الإطار الأخلاقي واحترام التقاليد وبالطريقة اللائقة. وعن تصرّفات ابنة بارينو، وتسامح الوالدَيْن معها بشكل تعدّى حدود اللياقة الاجتماعية.

وفي ساعة متأخّرة، ترك الموثّق فاتسانو النادي بصحبة المهندس

بومياتشي، وقطعا معاً جزءاً من الطريق سيراً على الأقدام. كانا صامتَيْن. وعند مفرق الطريق وعند تحية كلٍّ منهما للآخر، قال له بومياتشي: "لو كنتُ صديقاً لعائلة الفالبيي، لقلتُ لهم بأن يعتنوا بأمورهم، وألّا يفكّروا في أشياء قد تجلب لهم المصائب. ولو كنتُ صديقاً لبارينو، لنصحتُهُ بأن يتحدّث أقلّ. لقد تحدّث كثيراً هذا المساء، وعليه أن يحترس لما يقوله. ونظراً لأنني صديقكَ، يا عزيزي أنجيلنيو، فإنني أقول لكَ إنه من الأفضل عدم الحديث بالخير أو بالشرّ عن بعض الراحلين".

صافحه فاتسانو مصافحة طويلة، ضغط فيها على يده، وعاد إلى بيته راضياً بالثقة التي أظهرَها له المهندس بومياتشي، الرجل الذي يترقّى في السياسة الإقليمية، لذلك فهو صديق من المهمّ الاحتفاظ بصداقته.

خلال الليلة بين الأربعاء 25 الخميس 26 سبتمبر، تعرّضت حديقة منزل بارينو الريفي لخسائر كبيرة على يد مجهولين.

شاءت المصادفة أن تكون السيّدة ريتا أوّل مَن يكتشف ذلك، عندما ذهبت في صباح يوم الخميس ببعض أبصال الزينة لزراعتها لموسم الربيع القادم، فوجدت الحديقة وقد تمّ تخريبها بالكامل. كانت نباتات وشجيرات قد اجتُثّت من جذورها، وكانت أحواض النباتات قد امتلأت بالقاذورات. أُزيلَت النباتات أوّلاً بالفأس، بشكل دمّر الزهور الجميلة الموجودة في الأحواض، ثمَّ غُطّيت بالحجارة والجبس. تهشّمت الآنية الفخّارية الجميلة، واجتُثّت كذلك النباتات المزدهرة من جذورها، ثمَّ هُرست بالأقدام، في حين شَوّهت ضرباتُ الفأس الأشجارَ الناضجة، وجَرحت جذوعها. قُلبت التماثيل والمقاعد الحجرية فوق الأرض وقد قُطعت رؤوس التماثيل. حوض الحوريات ذو المياه الرائقة الشفّافة، والذي كان مثار فخر لريتا، صار مملوءاً بالوحل الطري ذي الرائحة الكريهة. الأسماك الصغيرة الملوّنة طافية فوق الطمى، ميتة، والأسماك الأخرى ذات الأحجام الكبيرة ممزّقة البطن متدلّية

الأحشاء، وقد وُضعت بعناية في صفّ فوق أحجار البراكين التي تمثّل مقاعد حول الحوض. أقسمَ الفلّاح، حارس الفيلّا، بحياة أولاده ورحمة أبيه، أنه لا يعلم شيئاً. ففي الليلة السابقة كان قد روى الحديقة وتركها معطّرة مزدهرة وكأنها الجنّة، ولم يسمع أيّ ضجّة أو صوت في أثناء الليل. وهذا ما أكّدتْهُ أيضاً زوجته وأولاده.

في ذلك الصباح، تغيّب عن الحديقة وذهب ليعزق في أرض بعيدة بينما زوجته التي كانت تبقى في الغالب في البيت ذهبت إلى البلدة لزيارة أمّها المحتضرة. شاء الحظّ العاثر أن يحدُث ذلك في أثناء غيابه مع عائلته. حضر أولئك الأوغاد ودمّروا الحديقة بهذا الشكل. وهم في أغلب الظنّ من الأولاد المشرّدين الذين يصلون إلى روكاكولمبا بسهولة من الطريق السريع، ويتجوّلون في الأراضي الزراعية. أردف وهو يقلّب كفّه من الحسرة أن أكثر ما يؤلمه أن السيّدة ريتا اكتشفت ذلك الدمار قبله، وأنه لم يتّسع له الوقت لتنظيف الحديقة وإزالة آثار الدمار والأفنان المجتثّة والنباتات المنزوعة والأسماك كريهة الرائحة، كي يُجنّب السيّدة ريتا، التي يحبّها كثيراً مثل ابنته، الحزن عند رؤية حديقتها المحبوبة على هذا النحو.

الخميس 26 سبتمبر 1963

31. الأب أرينا يقابل المحامي مانسيلا وطبيب الأسنان كوبولا ثم يتناول الجرانيتا مع الرئيس فاتا في الميدان

كان الأب أرينا يخرج من مكتبة بيكوريللا، ويرتقي الطريق محمّلاً بالكُتُب، ويتصبّب عَرَقاً.

هبّت رياح الخريف التي لا تزال حارّة، فبعثرت خُصلات شَعْره، ولم تُنعشه. كان سعيداً بأنه انتهى ممّا ينبغي عمله سريعاً، ليعود إلى الريف في الصباح. كانت رغبته في الرحيل عن روكاكولومبا تستعر ويستشعر لذّة قراءة الكُتُب التي بدّل بها الكُتُب المُهداة له من أدريانا الفاليبي. كان يرى نفسه جالساً في حديقته الصغيرة وحوله زهور الخريف. خلفية رائعة يريح بصره بالنظر إليها كلّ حين في أثناء القراءة. كان المحامي مانسيلا وطبيب الأسنان كوبولا يمشيان وراءه. رأياه وأسرعا الخطى لِلّحاق به.

صباح الخير، سيّدي الأب:

هزّه الصوت، ثمَّ ابتسم عندما رأى أنه صوت إيتوري مانسيللو، أحد رعايا الكنيسة المحترمين. بادره المحامي:

"بالأمس كنّا نتحدّث عن منولارا، وقالوا إنها كانت امرأة شجاعة وحريصة، ولكن الطبيب كوبولا لا يظنّ ذلك. لتستمع حضرتكَ إلى ما قاله، فقد كنتَ تعرفها جيّداً".

نظر الأب أرينا إلى الطبيب نظرة استهجان وقال: "كنتُ، ولا زلتُ، أعتقد أنها كانت شجاعة".

قال كوبولا موضّحاً:

"تعرّفتُ إليها في عيادتي عندما جاءتْني مريضة: كان لها ضِرْس نَخَرَهُ السوس. وفي أثناء الكشف كانت عصبية وتتحرّك فوق المَقعَد باستمرار. وعندما شعرت بوهج الضوء أمام عينَيْها، صاحت: ابتعد عنّي! وبدأتْ تصرخ وهبّتْ من فوق المَقعَد بعد أن دفعتْني أنا والممرّضة بعيداً عنها. ركضتْ إلى الشرفة المُطلّة على منحدر الوادي وفتحتْها وهي تصرخ: لا، لا! كما لو أنني كنتُ أريد ذَبْحها، وانفجرتِ الممرّضة بالبكاء. أمّا منولارا، فواصلتِ الصراخ وقد ألصقت يدَيْها بداربزين الشرفة، وكأنها بصدد إلقاء عِظَة: ابتعدْ، ابتعدْ عنّي! وبعد أن بُحَّ صوتها، تكوّمت على الأرض باكية مغمغمة بكلمات غير مترابطة: الجُبن، كنتُ أريد فقط بعضاً منه! وكان يتخلّل عباراتها حرف "لا" بصوت مرتفع وكلمة "ابتعدْ، ابتعدْ"! اضطررتُ إلى صرف المرضى في صالة الانتظار، وكانوا قد استمعوا إلى صراخها كلّها، وأصبح الأمر محرجاً، وطلبتُ من الممرّضة البقاء إلى جانبها "فقد تحاول إلقاء نفسها من الشرفة"، ولكنْ، بعد نصف ساعة من البكاء والصراخ نهضتْ أينتسريللو، سوّت تنّورتها وانصرفت.

في اليوم التالي وجدتُ في صندوق البريد مظروفاً، فيه عشرون ألف ليرة، وكان مبلغا كبيرا في ذلك الوقت، وبطاقة كُتب عليها "اعذرني" بخطّ معوجّ، وبحروف كبيرة مثل خطّ الأُمِّيِّيْن. ولم ترجع إلى العيادة بعد ذلك أبداً".

انتهى كوبولا من سرد حكايته، ونَظَرَ حوله برضا، وسَكَتَ.

سأل مانسيلا الأب بحميمية الصداقة التي تربط بينهما منذ سنوات طويلة:

"أب أرينا، ما رأيكَ في هذا التصرّف؟"

قال الأب: "يُدهشُني! ولكنكَ تعرف جيّداً أن الخوف من أطبّاء الأسنان من الأمور المعتادة، وخاصّة بالنسبة إلى النساء ..."، وسكت الأب أرينا.

في أثناء ذلك، كان كوبولا قد استدار وابتعد وتبادل نكتة مع نائب رئيس النقابة الذي كان يمرّ في تلك اللحظة .

انتهزّ المحامي مانسيلا الفرصة، وهَمَسَ بسرعة: "تصرّفتْ مثل امرأة تخشى اغتصابها ...". رفع الأب أرينا بصرَهُ، كانت السُّحُب تشقّ السماء بسرعة، حَدَّقَ بها بإعجاب، ثمَّ هَبَطَ بنظره نحو بلاط الرصيف وقال:

"هذه الأشياء تحدُث، وإن كان ينبغي ألّا تحدُث".

أرخى المحامي عينَيْه كما فعل الأب، ونظر هو أيضاً إلى بلاط الرصيف، وردّد كلمات القِسّيس:

"لا ينبغي أن تحدُث". وفي تلك اللحظات دقّت أجراس كنيسة "لادولوراتا". استأذن الأب أرينا بالانصراف بحجّة أن الحافلة على وشك الرحيل.

هزّه صوت الرئيس فاتا قائلاً:

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

"تحيّاتنا، أب أرينا".

أجاب الأب أرينا:

"تحيّاتي، يا حضرة الرئيس".

أضاف الرئيس فاتا بنبرة احترام وحسم لمَن لا يتوقّع رفض طلبه:

"هل أستطيع دعوة سيادتكَ إلى شراب؟"

وجد الأب أرينا نفسَهُ جالساً إلى منضدة مقهى "إيطاليا" بصحبة بيترو

فاتا، الذي يعرفه منذ سنوات عديدة، ولم يكن بينهما أيّ حميمية، ونحّى جانباً أمل اللحاق بحافلة الصباح.

بمجرّد ابتعاد النادل بالطلب، شرح بيترو فاتا له سبب الدعوة:

"أعتذر عن تطفّلي، ولكني علمتُ بأن لديكم كُتُباً لدانونسيو، اختارتْها ليللا الفاليبي من مكتبة أرواتسيو. أخبرتْ أدريانا زوجتي أن أوراتسيو كان يودّ إعطاء هذه الكُتُب لي. بصراحة لا أدري لماذا؟! فهي كُتُب لكاتب قديم، وقد قرأتُها كلّها عند صدورها، وليس لديّ نِيّة إعادة قراءتها. ولكن أدريانا مصمّمة على ذلك، وأريد إرضاءها. هل يزعجكم استبدالها كُتُباً أخرى؟"

شعر الأب أرينا بالاضطراب. فلم يكن دانونسيو يُعجِبه. غمغم بكلمات مضطربة. توقّفت الجرانيتا بحلقه، وكادت تسيل على ذقنه. احتاج إلى شرب رشفة مياه. لم يكن بإمكانه إيجاد إجابة تجنِّبه الخجل من الإفصاح عن أنه قد استبدل بهدية السيّدة الفاليبي الكُتُب الموجودة في الكيس الذي يكاد يغطّيه طرف ردائه الكهنوتي والمُلقى عند قدمَيْه. خَفَضَ عيناه ونَظَرَ اليه، وتمنّى أن ينحشر في ذلك الكيس، أن يُسحقَ ويتحوّل إلى ورقة لا يلاحظها أحد، ويهرب من مخالب الرئيس الناعمة.

ظنّ بيترو فاتا أن القِسّيس لا يريد التنازل عن هذه الكُتُب. فقد ارتكب الأب أرينا الكثير من المغامرات في أثناء شبابه. ربمّا كان يودّ معرفة دانونسيو منذ وقت طويل، وطلبه هذا يحرمه من الفرصة الوحيدة الحصول على هذه الكُتُب بطريقة بريئة.

ضمّ شفتَيْه لإخفاء ابتسامة ساخرة، ثمَّ قال: "لا يُساور سيادتكَ القلق، لتحتفظ بهذه الكُتُب، فهي مهداة لسيادتكَ. ولكنْ، هل تسمح لي بتصفّحها سريعاً؟ كان أوراتسيو يكتب بعض الملاحظات على النصوص. أعدكُ بإعادتها خلال الغد".

عندئذ رفع الأب أرينا بصره بنظرة كلب مطارد، وشرح متلعثماً بعزّة نَفْس وتحفّظ أنه أيضاً لا يُعجِبه دانونسيو وأن كُتُب أوراتسيو معروضون للبيع في مكتبة بيكوريللا، في قسم الكُتُب المستعملة.

كان يحبّ القراءة كثيراً، ولكنه لم يكن يستطيع شراء الكُتُب الجديدة، وكانت السيّدة بيكوريللا تسمح له باستبدال الكُتُب التي قرأها كُتُباً جديدة تُعجِبه. أضاف بحرج كبير أنه لا يريد أن يجرح السيّدة الفاليبي ويثق في حصافة بيترو فاتا. ابتسما، وقد اتّضح الأمر وأصبحا شريكَيْن فيه.

كان المحامي مانسيللو قد دخل لتوّه إلى المقهى، بصحبة زوجته هذه المرّة. وقد لمحهما في تلك اللحظة المهمّة، لكنه أساء فَهْم تصرّفهما. اقترب من طاولتهما، وقال بصوت مرح: "أُراهن أنكما تتحدّثان عن إعلان الوفاة الثاني لمنولارا، إنها حقّاً مسرحية!" الأب أرينا وبيترو فاتا ردّا في الوقت نفسه بالتعبير الشائع بين الصقليِّيْن: جعّدا جبهَتَيْهما، وزمّا شفتَيْهما المغلقتَيْن إلى الخارج قليلاً.

أطلعَهُما مانسيللو على الموقف: إعلان الحائط تمّ ترقيعه بإضافة بعض عبارات الثناء البليغة عن منولارا. وظَهَرَ إعلان وَفَيَات آخر في جريدة "جورنال دي سيشيليا". وَضَعَ يدَيْه فوق المنضدة الصغيرة، منتظِراً أن يتمّ دعوته للجلوس معهما، ولكن نداء زوجته أجبرَهُ على اللّحاق بها، وقد شعر الأب أرينا وبيترو فاتا بالارتياح لذلك.

بعد أن بقيا وحدهما، شربا بصمت وبرشفات كبيرة بطيئة كلّ ما في كأس الماء، قال بيترو فاتا:

"هناك أشياء ليست على ما يرام في منزل الفاليبي، أيُّها الأب. وذلك الأمر يُقلقُني. أنا أيضاً كنتُ أشعر بالمودّة لمنولارا، وأريد أن أتحدّث معكَ عنها في منزلي. هذا المكان مزدحم بالناس. هل يمكنني دعوة سيادتكَ إلى تناوُل الغداء؟"

كان الأب أرينا يريد الهروب من البلدة، لذلك لجأ إلى كذبة، وقال إن لديه ارتباطاً بالفعل، ولكنه اضطرّ للموافقة على زيارة فاتا يوم الاثنَيْن القادم في الرابعة ظهراً.

وعلى العكس، ذهب بيترو فاتا مباشرة إلى مكتبة بيكوريللا، وهو يأمل ألّا يجد في تلك الساعة من النهار، ابنه عمّ زوجته. إلّا أنها كانت هناك، ثرثارة سخيفة كالعادة.

كان يعلمان أن النفور بينهما متبادَل، ولكنْ، في حين كان فاتا يحرص على تجنّبها كانت روزاليا بيكوريللا تتحيّن الفرص للدخول معه في أحاديث ومناقشات سخيفة مليئة بالتلميحات.

وعدتْهُ بأن تجد الكُتُب بمجرّد أن ترتّبها الموظّفة، فقد كانوا في مجموعة من الكُتُب المستعملَة في المخزن. قال بيترو: "أستطيع أن أنتظر، أشكرك، ونهارك سعيد". وكان على وشك الانصراف. ولكن بيكوريللا أوقفتْهُ بـ "انتظرْ، يا بيترو، ماذا يحدُث في بيت أدريانا؟ أسمع أشياء مقلِقة .. يبدو الأمر مسرحية هزلية، ولكني لا أودّ أن تتحوّل إلى تراجيديا". تعامله قريبة زوجته بشيء من عدم الكلفة، لا تبرّره القرابة البعيدة. تضايق بيترو وقال بعصبية "تقرئين كثيراً عن المآسي. ليس في الأمر أيّ ظلّ للتراجيديا. الأمر يتعلّق فقط بموت امرأة في منتصف العمر".

تعجّبت السيّدة بيكوريللا، وشَعَرَتْ بالإهانة، فرَفَعَتْ صوتها:

"أنتَ مَن يقول هذا ....؟! وهل هذا ما حَدَثَ أيضاً مع كارميلا والتحذير الذي تلقّاه ماسيمو؟! ورجال المافيا الذين حضروا الجنازة! بل يتحدّثون عن شكوك حول وفاة منولارا، وأنتَ تعتقد أنني أُبالغ!"

ألقى إليها بيترو فاتا بنظرة باردة، ورفع قبّعته وخرج مردّداً: "نهارك سعيد، مرّة أخرى".

عاد إلى بيته، وقد اختار السُّلَّم الذي لا يرتاده الكثيرون، كي يتجنّب مقابلات أخرى.

التفتت السيّدة بيكورللا نحو إلفيرا ريسيكو، وقالت لها:

"لا تشغلي بالكِ بالبحث عن تلك الكُتُب الآن، يمكنكِ البحث عنها يوم الاثنَيْن. ذلك المغرور زوج ابنة عمّي يمكنه الانتظار. لولا زوجته لما تعامل معه أحد من روكاكولمبا من شدّة غطرسته".

32. نعل حذاء الأب أرينا ينفصل عن حذائه، ويلزقه الإسكافي ديكو.

سار الأب أرينا بقلب واجم. لم يشترِ الجريدة متعمّداً، ولم يرد الانضمام إلى الفضوليِّيْن الذين تجمّعوا لقراءة الإعلان والتعليق بصوت مرتفع على التعديلات الملصقة فوقه. اتّخذ الطريق المدرّج الصاعد نحو دَيْر "سانتو سبيريتو"، وهو إحدى الطُّرُق المتعدّدة التي تتقاطع مع طريق روكاكولومبا الرئيس. طريق يشقّ الجبل ويعبر الأحياء المهجورة التي لم يبقَ بها إلّا العجائز والفقراء وبعض أصحاب المحالّ الصغيرة. كانت بعض الدرجات منزوعة وبلاط الأرصفة غير مثبّت، وقد نمَتْ عليه أعشاب هنا وهناك. بعض بسطات السُّلَّم في مداخل البيوت والمحالّ كانت آيلة للسقوط. سار الأب أرينا بخطوات سريعة على الرغم من شعوره بالإرهاق، فكان يريد الابتعاد عن البلدة بسرعة، لدرجة أن خطوه كان يتعثّر، فانفصل نعل حذائه. استعاد توازنه ولم يسقط، بالرغم من شعوره بالألم في إبهام القَدَم وإعاقة الجزء المنفصل من النعل لحركته. ساعده أحد المارّة، وقاده إلى دكّان ديكو الإسكافي. كان الأب أرينا يعرفه، فهو زوج المرحومة ماريا ابنة عمّ منو من الجيل الثاني، والتي ماتت بالتيفوئيد منذ عشرين عاماً. وبينما كان ديكو يلصق النعل، جلس الأب أرينا على المَقعَد المخصّص للزبائن، وعاد بذاكرته للوراء.

كانت عائلة ديكو فقيرة وقد رعت منولارا، ابنة العمّ وأولادها الخمسة، وكانت أعمارهم بين ثلاثة إلى اثنَي عشر عاماً، لفترة طويلة بإخلاص وكرم. كانت تذهب إليهم في أثناء راحة الظهيرة، لتُنظّف البيت وتطهو الطعام الذي أحضرتْهُ، وتأخذ الملابس والمُلاءَات المتّسخة لتغسلَها وتُعيدَها نظيفة مَكويّة في المرّة التالية. بعد أسابيع قليلة من وفاة ماريا، طَلَبَ ديكو من منو الزواج، وأن تصبح أمّاً لأولاده اليتامى، كما جرت العادة بين أمثالهم من الفقراء، ولكنها رفضت، فلجأ ديكو عندئذ إلى الأب أرينا، ليتحدّث إلى منو، وأفهمه أنه قد حَدَثَ بينهما "شيء".

تحدّث الأب بسلامة نِيّة إلى منولارا، وذكّرها بأنها اقتربت من الأربعين وأن زواجها من ديكو سيُحرّرها من أفراد عائلة الفاليبي الذين يُثقلون كاهلها بالعمل والمسؤوليات، ولا يُظهِرون أيّ امتنان لما تفعله، فهم يستغلّونها. غضبت منو وقالت: "أنا لستُ بالزوجة المناسبة لإسكافيٍّ أُمّيٍّ وأرمل! أيُّها الأب أرينا، أنتَ تعرفُني منذ سنوات كثيرة ... كيف يمكن أن تقترح شيئاً كهذا؟"

أجاب الأب أرينا: "بالضبط لأني أعرفكِ. ديكو رجل طيّب وأبناؤه يحبّونكِ، كما تحبّينهم أنتِ أيضاً. سوف تكونين أمّاً رائعة لهم، وسوف تعلّمينهم الكثير لتحسين أحوالهم والخروج من الفقر مع بقائهم في روكاكولومبا. ولن يضيركِ ترك عائلة الفاليبي، وبصفة خاصّة المحامي. فهو يطلب منكِ الكثير".

أجابتْهُ منولارا بغضب: "يُعجِبُني ما أفعله لديهم!". أردف الأب أرينا: "سيكون لكِ عائلة هنا في روكاكولومبا، وزوجٌ لن يخذلكِ، وستعرفين معه متع الزواج"، وأضاف دون تحفّظ "كما تعلمين".

سألتْهُ منو بلهجة عدائية: "ماذا قال عنّي ديكو؟"

فهم الأب أرينا أنه تحدّث كثيراً.

"سوف أقول لكَ شيئاً" واصلتِ الحديث بسرعة قبل أن يتمكّن من الردّ: "ولا تنساه. أنا أنتمي إلى المحامي الفاليبي. أنتمي إليه، هل تفهم؟ أنتمي أيضاً إلى عائلته حتّى وإن كانوا حمقى. حَدَثَ شيء مع ديكو، نعم. ولكنه كان بدافع الشفقة، وليس الإحساس أو العاطفة". كانت منو تنظر في عينَيْه بثبات. أردفت منولارا: "الحقيقة أني سمحتُ له بما سمحتُ من جسدي، وليس روحي. هل تريد أن تعرف السبب؟ كان جائعاً، وحضرتكَ تعرف لأيّ شيء، وكان يائساً ... أحبّ ماريا حتّى النهاية، ولم أشأ أن يستهدف بناته البريئات ... كانت الكبرى تشبه ماريا - رحمها الله - كثيراً. كانت ابنة عمّي ستتفهّم ما فعلتُهُ بكامل إرادتي. لا أخجل ممّا فعلتُ. بنات ديكو سوف تذهبنَ للعيش عند أختي. لا أخجل ممّا فعلتُ، ولا أحتاج إلى الاعتراف. فعلتُ الصواب".

33. روكاكولمبا متحيّرة من إعلانات وفاة منولارا

دُهش أهالي روكاكولمبا، ولكنْ، ليس لمدّة طويلة، عندما أدركوا أن إعلان الحائط عن وفاة ماريا روزاليا أينتسريللو قد حَدَثَتْ به بعض التصحيحات. وقد ألصقت أسفل بيانات الراحلة قصاصة من الورق، كُتب فيها: "*مديرة أملاك وعاملة في منزل الفاليبي. تنعيها عائلة الفاليبي بكلّ الأسى وتعبّرعن خالص الحزن لمصابهم الأليم وخسارتهم الفادحة*". وشريط آخر صغير في أسفل الإعلان: "*عاشت في منزل العائلة الفاليبي منذ سنّ الثالثة عشرة. خدمت بإخلاص العائلة التي تبكيها بحرارة*".

نُشر الإعلان أيضاً، وبشكل كامل، في جريدة "جورنال دي سيشيليا"، متضمّناً تاريخ مراسم الجنازة، والذي أصبح تاريخاً فائتاً.

ظنّ القليلون الذين لا يعرفون الفاليبي ومنولارا أن الأمر يتعلّق بخادمة محبوبة جدّاً من سادتها الذين لم يتّفقوا على نصّ النعي بسبب اضطرابهم عند وفاتها، لذا أرادوا تعديله بشكل رسمي، وإن بدا الأمرغريباً.

أمّا مَن كانوا يعرفونهم، ولهم علاقة مباشرة مع عائلة الفاليبي، فكانت دهشتهم مضاعفة.

لم يتوقّعوا نعياً آخر وإضافة كلمات مديح أخرى إلى الراحلة بعد مشاهدة تصرّفاتهم في أثناء الجنازة وزيارات العزاء، وإنما إعلاناً، تُحذف منه بعض كلمات المدح والثناء، أي عكس ما حَدَثَ.

وكان السؤال الأوّل الذي طرحه أهل روكاكولمبا: لماذا هذه الإعلانات كلّها؟ وكان تفسير الأمر في غاية البساطة: أبناء الفاليبي أُصيبوا بالجنون. وكان السؤال الثاني: ما الذي أفقدَهُم رُشدهم؟ ولهذا السؤال البسيط المحدّد، لم ينجحوا في إيجاد إجابة منطقية مُقنِعة.

وكان ردّ فعل الأصدقاء والمعارف كما هو متوقَّع: الذهاب إلى بيت الفاليبي مستغلّين العُرْف الذي يقضي بأن زيارات التعزية، يمكن القيام بها دون دعوة، وأحياناً دون أخطار. استقبلت أدريانا الفاليبي التعزية بالعرفان والأدب المعهود. كانت تبدو حزينة شاردة تجهش بالبكاء بسهولة وبكثرة. كانت الزيارات متعدّدة، لدرجة أنه لم يتسنّ لأحد الفرصة لسؤالها عن سبب تكرار إعلانات وفاة منولارا.

في الحقيقة لم تكن أدريانا الشخص الذي أتعبوا أنفسهم لرؤيتة وتقديم العزاء له، وإنما الأبناء، ومحاولة فَهْم دوافعهم من خلال تصرّفاتهم أو من خلال الإجابة عن بعض الأسئلة الملتوية غير المباشرة التي تُسأل في مثل هذه الظروف.

ويبدو أن الأبناء قد خمّنوا ذلك، فعاد جاني مسرعاً إلى كاتنيا، وكارميلا ظلّت مع الأمّ لفترة قصيرة قبل أن تعود إلى البيت لشعورها بصداع نصفي. ولكن الجميع كانوا يعلمون أنها لا تزال تعاني من آثار ضرب الزوج.

أمّا ليللا، فقد كانت مشغولة جدّاً باستقبال الأشخاص العديدين

الذين توافدوا على بيتهم وتوديعهم، ونجحتْ دائماً في تجنّب الأسئلة المباشرة عن إعلانات الوفاة، إلى أن حضرت ابنتا الخالة أورتا فجأة في ساعة الغداء.

ماريلا وتانينا أروتا عجوزتان عانستان ترتبطان بصِلَة قرابة بعائلة الفاليبي. لم تكونا ثريَّتَيْن، فقد تزوّج جَدُّهم من خادمة، وبسبب هذه المخالفة للتقاليد حُرم من الميراث. كانتا تعيشان من إيراد محلّ الخرداوات الذي تملكانه، وكانتا محبوبتَيْن في البلدة لطيبة قلبَيْهما، ولأنهما لا تتحدّثان بسوء عن أحد، وتساعدان الجميع.

وكانتا تتمتّعان بخَصلة أخرى محبّبة في البلدة كلّها؛ فعلى الرغم من أنهما لا تتحدّثان بسوء عن أحد ولا تحبّان النميمة، غير أنهما لا تحفظان أيّ سرّ.

كانتا تكرّران كلّ ما يقال لهما، وتحكيان كلّ ما تشاهدانه. ليس فقط دون مبالغة أو تجميل، ولكنْ، أيضاً دون أيّ تعليقات سلبية. كانتا تلغراف البلدة اللاسلكي.

طلبت ماريلا من أدريانا أن تُريَها بعض القِطَع المطرّزة، وذهبت المرأتان إلى صالون العمل. بقيت ليللا وحدها مع تانينا أروتا التي سألتْها بصراحتها المعهودة: "يجب أن تُخبريني لماذا غيّرتُم إعلان الوفاة. لقد سألني الكثيرون عن ذلك في المحلّ، أريد أن أُجيب بالحقيقة، وإلّا سيظنّ الناس بِكُم السوء؟".

كانت ليللا قد جهّزت مع جاني تفسيراً يُقال للناس، وانتهزت فرصة عدم وجود كارميلا لإذاعته: "الذي تقرؤونه ليس الإعلان بعد تغييره، وإنما هي النسخة الحقيقية لإعلان الوفاة. يؤسفني قول ذلك، ولكن الخطأ خطأ ماسيمو، فقد عرض أن يقوم بنشر الإعلان الذي أعددناه معاً. تعلمين جيّداً أن أمّي كانت متعلّقة جدّاً بمنو، وأمام إصرار أمّي قمنا بكتابة خبر الوفاة

كما أرادت منو. لستُ أدري كيف ولماذا، ولكن الإعلانات التي ظهرت يوم الثلاثاء لم تكن كاملة. ماسيمو نسي بعض العبارات، أو ربّما لم يقرأ جيّداً المسوّدة التي أعدَدْنَها. لا أدري بالضبط، ولكن الحقيقة أن أمّي استاءت جدّاً. وقرّرنا أن إرضاء والدتنا أهمّ لدينا من انتقادات الناس. أخيراً سيقرأ الناس النصّ الحقيقي الكامل".

أمّا ماسيمو وكارميلا، فقد حكيا الأمر بطريقة مختلفة بعض الشيء: "لا أحد يدري كيف، ولكنْ، سواء عامل الطباعة أو التحرير في جريدة "جورنال دي سيشيليا" فقد حذفا بعض الكلمات من النصّ الأصلي. وقد اعترض ماسيمو على ذلك، شارحاً الألم الذي سبّبه الحذف لحماته. لذلك قرّرا تصحيح الإعلان على نفقتهما".

الآنستان أروتا بذلتا جهدهما كلّه لنشر القصّة كما حكتْها ليللا، ولكنهما وجدتا أشخاصاً قليلين مستعدّين لتصديقها. أمّا حكاية ماسيمو وكارميلا، فقد كذّبها عامل الطباعة.

34. ليللا تحاول فَهْم ما يحدُث. تتذكّر أحداث الماضي، وتقتنع بأن منولارا كانت محقّة

في صباح الخميس 26 سبتمبر تحدّثت ليللا مع زوجها محادثة تليفونية طويلة، وكان الزوج غاضباً لنشر الإعلان الثاني بجريدة "جورنال دي سيشيليا". سألها جان ماريا عن تفسير معقول لما حَدَثَ، وكان ذلك مستحيلاً، لأنه لا يوجد. أجهشت ليللا بالبكاء، وحَكَتْ لزوجها عن حضور رئيس المافيا للجنازة، وخدش سيّارة ماسيمو، الرسالة التي تحمل بوضوح طابع المافيا، والتي تُرجعها إلى رفضهم نشر النعي كما أرادتْهُ منولارا.

اعترفت بالخوف، كما لو كانت منولارا قد تحوّلت إلى روح شرّيرة، تحلّق فوق عائلتها، ولن تهدأ حتّى ينفّذون أوامرها كلّهم. كانت مقتنعة

أنهم يراقبونها في البلدة، وكانت تخشى على حياتها وحياة ابنتها. أمرَها الزوج أن تعود للبيت في اليوم التالي.

هدّأ التأكّد من العودة إلى روما من رَوعها، وجَعَلَهَا تتحمّل بصبر عبء زيارات التعزية. وفي تلك الليلة بعد أن أصبحت وحدها، بدأت في إعداد الحقيبة، واستطاعت أن تتأمّل بهدوء. لم تكن هناك أيّ إشارات أو تحذيرات أخرى، وكادت تشعر بالخجل من تصرّفها الهيستيري في الصباح، والذي عزتْهُ إلى كرهها لروكاوكولمبا ولعائلتها.

كانت ليللا تعود إلى البلدة بسعادة لزيارات قصيرة في أثناء حياة أبيها. قرار الأمّ أن تنتقل للعيش في منزل الخادمة جَعَلَت زياراتها غير محتملة، وكان هذا أيضاً بسبب منو، والتي ساءت علاقتها بها بعد وفاة والدها.

بدأ الأمر عندما مرض أبوها. صمّم والداها ومنو على عدم استدعاء ممرّضة، وأن تقوم منو بتمريضه. وافق الدكتور منيدكو على هذا الحلّ، ومنو التي كانت قد مرضت أمّها من قبل ثمَّ جَدّتها، تحمّلت هذا العبء وأظهرَت أنها ممرّضة ممتازة.

كانت ليللا قد عادت إلى روكاكولمبا قبل موت أبيها بأيّام قليلة، وسرعان ما شَعَرَتْ بالتغيّر في سلوك منولارا. وعلى الرغم من عدم إهمالها لواجباتها، كانت، في الغالب، غائبة عن حجرة أوراتسيو خلال النهار عند وجود أقاربه بجواره، وكانت تظلّ بجواره في الليل. كانت تقول إنها ينبغي أن تراعي الأرض والأعمال الأخرى، ولكن ما حَدَثَ أنه عند موت أوراتسيو كانت منو خارج المنزل. غابت في أشدّ اللحظات حاجة إليها. وعند عودتها عبّرت عن ألمها بشكل متحفّظ، ثمَّ غرقت في أعمال المنزل والتحضير للجنازة.

وذات ليلة، بعد وفاة أبيها بأيّام قليلة، كانت العائلة مجتمعة لتناوُل طعام العشاء، ما عدا ماسيمو الذي كان خارج البلدة.

لم توافق منو على زواج كارميلا. وعندما كان ماسيمو يزور حموَيْه، كانت منو تحبس نفسها في حجرة الخَدَم، وكانت ترفض خدمة تقديم الطعام في المرّات النادرة التي تناول فيها ماسيمو طعام العشاء في بيتهم، تاركة هذه المهمّة لسانتا، الخادمة الأخرى.

وعلى الرغم من أن ليللا أيضاً لم تكن راضية عن هذا الزواج إلّا أنها كانت تعتبر تصرّف فرض الرأي من جانب منو غير مقبول، وكذلك خضوع والدَيْها لها ومسامحتهما لها على التصرّف بهذا الشكل.

وفي تلك الليلة قامت منو بالخدمة وتقديم الطعام، كما في الأيّام الخوالي. وفي نهاية العشاء وَضَعَتْ طبق الفاكهة في منتصف المائدة، ثمَّ أحضرت أحد المقاعد المستندة إلى الحائط وجَلَسَتْ معهم. كانت هذه عادتها منذ أن بدأت في إدارة أموالهم، فكلّ حين كانت تجلس معهم لمناقشة أحد الأمور المهمّة. تحدّثت قائلة:

"أنا مَن خَدَمَ عائلة الفاليبي، وعندما دخلتُ إلى بيتكم، وعدتُ السيّدة ليللا - رحمة الله عليها - أن أخدم ابنها أوراتسيو طوال العمر، وقد حفظتُ الوعد وأدّيتُ واجبي. الآن أنا متعبة وعظامي تؤلمني، وحان الوقت لأستريح. أُخبركم أنني لا أريد الاستمرار في العمل". رفعتْ يدَيْها من فوق المائدة ووَضَعَتْهما فوق مريلتها البيضاء. كانت يداها صغيرتان مشرّبتان بحُمرة الشمس، والغريب أنهما رقيقتان خاليتان من أيّ نتوءات جِلْدية غليظة. نظرتْ بعينَيْها السوداوَيْن إلى كلٍّ منهم. توقّفتْ برهة عند كلّ شخص، دون أن تشيَ بأيّ إحساس. بل بقيت ثابتة في انتظار إشارة منهم.

وهو ما لم يحدُث، فأردفت منو قائلة: "لقد اشتريتُ بيتاً بالقرب من هنا، مكوّن من غرفتَي نوم. وقد أثّثتُهُ بالكامل، وبه تدفئة مركزية وتكييف هواء. سأظلّ بخدمتكم لمدّة شهر آخر، لأساعدكُم في تقسيم ميراث والدكم. وإن أردتُم يمكنني إدارته لكم دون مقابل، ثمَّ سأترك قصر الفاليبي، وأذهب إلى بيتي".

"ماذا تقولين، يامينو؟ أتتركينا الآن؟" الآن بعد أن رحل أورتسيو؟" كان صوت أدريانا خافتاً ضعيفاً، والدموع تتساقط فوق قشر الفاكهة في طبقها.

قال جاني بنبرة سلطوية في محاولة مزرية لتأكيد دَوره الجديد كربّ للعائلة:

"لا يبدو لي أن الوقت مناسب للحديث عن تغييرات مفاجِئة وكبيرة".

ردّت منولارا:

"بل على العكس. بعد مرور أسبوعَيْن من زيارات التعزية سيعود كلٌّ منكم إلى بيته وحياته، وسيبقى كلّ شيء كما كان. ولكنْ، ينبغي أن تُدركوا أن الأوضاع تغيّرت بالنسبة إلى أمّكم. هذا البيت واسع جدّاً، ولا يوجد به تدفئة مركزية، ويجب إنفاق أموال طائلة لجعله مريحاً. أنا وأمّكم نشيخ يوماً بعد يوم. سيأتي اليوم الذي لن أستطيع خدمتها كما تعوّدتْ وكما تستحقّ".

صَمَتَ الجميع. فقد كانت إجابة منو لا تسمح بالمناقشة.

وعند هذه اللحظة، رفعت الأمّ عينَيْن مستعطفتَيْن وسألت: "منو، مَن سيعيش معكِ؟"

أجابت منو وقد خفضتْ صوتها: "لا أحد، فليستْ لي عائلة في روكاكولمبا".

ردّت أدريانا:

"هل أستطيع العيش معكِ في بيتكِ؟ لن أُزعجَكِ. أنا لا أستطيع أن أعيشَ وحدي وأنتِ تعلمين ذلك". التفت الأبناء، ونظروا إليها مندهشين، بينما كانت دموعها تتساقط بغزارة.

بقيت منو جامدة، ولكنها لم تتأخّر في الردّ "إن وافقتُم جميعاً، لا

مانع عندي. ولكنّ الشروط ينبغي أن تكون واضحة: سأخدمها في بيتي كما كنتُ أفعل دائماً، ولكنْ، جلسات لعب الورق والزيارات ستكون في بيت الفاليبي. سأقوم بتنظيف الصالون وغرف النوم لكم عندما تأتون إلى روكاكولمبا، ولكنْ، للنوم والطعام ستظلّ في بيتي ضيفة مكرّمة".

كانت كارميلا أوّل مَن تحدّث: "حقيقة لا أفهم ماذا أصابكِ، يا منو. تقولين ذلك الآن! لقد تُوفيّ والدي منذ وقت قصير. ألَا تستطيعين الانتظار لأيّام قليلة؟ لم أتحدّث مع ماسيمو في ذلك الأمر. أعلم أنكِ لا تريدين رؤيته، ولكنه زوجي ولا أستطيع اتّخاذ قرارات بدونه. يمكن أن تنتقل أمّي لتعيش معي في بيتي، أو ربمّا يمكن إيجاد حلّ آخر". وانخرطت في البكاء، مخبّئة وجهها بفوطة المائدة.

بقي جاني وليللا صامتَيْن. كان أنين الأمّ فقط يقطع الصمت، وكذلك نحيب كارميلا الخافت المكتوم بفوطة المائدة.

ارتفع صوت منو بازدراء: "أنتِ غبية!" خاطبتْها بأنتِ، كما لو كانت لا تزال طفلة، "غبية. وكنتِ غبية عندما وافقتِ على الزواج من صياد الدوطة. ألَا تفهمين أن حلاًّ مثل هذا يحفظ ماء وجهه أمام البلدة كلّها، لأن أمّكِ تستطيع استقباله في قصر الفاليبي عندما تريد؟ يمكنه أيضاً النوم في هذا المنزل".

تحتّم على ليللا التدخّل: "هل يمكن أن نؤجّل هذا النقاش على الأقلّ إلى مساء الغد؟ أتخيّل أن أبي كان يتمنّى ألّا نصل إلى الشجار. ثمَّ إن أمّي تبكي".

أجابت منولارا:

"أنتُم على حقّ! إلى الغد إذن. ولكنْ، ليكن واضحاً أنني سأعمل لمدّة شهر واحد فقط، وأنتظر إجابة سريعة". نهضتْ منو عند قول ذلك، وبدأتْ في رفع الأطباق عن المائدة بصمت.

وفي تلك الليلة، تشاجر الأبناء مشاجرة عنيفة مع أمّهم للمرّة الأولى، وقد عرضت كارميلا أن تستضيفَها في بيتها، بينما اقترح الآخران بقاءها في قصر الفاليبي، والعثور على خادمة أخرى، فقد حان الوقت للتخلّص من منو التي ستصبح طاغية حقيقية الآن، خاصّة بعد وفاة الأب الذي كان يمكنه السيطرة عليها. أكّدت ليللا لأمّها أن زوجها، الذي يبغض تدخّل منو في شؤون العائلة وطريقتها الفجّة في الحديث باللهجة والألُفة الزائدة إزاء العائلة، لن يسمح بأن تعلم ابنته أن جَدّتها تعيش في بيت الخادمة. وأنه غالباً سيمنعها من اصطحاب الطفلة معها إلى روكاكولمبا. أمّا أدريانا الفاليبي، فقد بدت سعيدة بالذهاب للعيش في بيت منو، أيّاً كان وفي أيّ وضع، ولم تعتبر ذلك التصرّف مخزياً أو شاذّاً.

استمرّ الجدل بين الأمّ والأبناء في الأيّام التالية دون الوصول إلى اتّفاق. واستمرّت منو في العمل بصمت، ولم تَعُدْ للحديث في ذلك الأمر.

وفي أثناء ذلك، أخبرها الأخوة الثلاثة أنهم سيديرون ميراثهم بأنفسهم دون الحاجة إلى مساعدتها. أجابت بأنهم مخطئون، وباستعدادها لمساعدتهم إن احتاجوا إليها.

وهكذا انتقلت السيّدة أدريانا في نهاية الشهر للعيش في شُقّة منو المتواضعة، رغم اعتراض جاني وليللا اللذَيْن باعدا بين زياراتهما، ولم تعد ليللا بعد ذلك إلى روكاكلومبا. وأصبحت الجَدّة ترى حفيدتها فقط في روما عندما تذهب إليها في أثناء الصيف. أمّا كارميلا وعلى العكس منهما، كفّت عن الاعتراض على إقامة أمّها مع منولارا، لأن ذلك كان مريحاً لماسيمو الذي خشي من تحمّل عبء إقامة حماته معه.

قابل الأخوة الثلاثة، نظراً لعدم خبرتهم، العديد من المشكلات في إدارة أملاكهم. واضطرّوا كارهين لطلب المساعدة من منولارا. وعندما ساعدتْهم في حلّ مشكلاتهم، كرّرت عرضها بالإدارة. وأمام رفضهم أبلغتْهم أنها لن

تساعدَهم مرّة أخرى، ممّا أثار حفيظتهم، وأشعرَهُم بالإهانة. طلبوا من أمّهم أن تعفيَ منو من إدارة أملاكها، إلّا أنها رفضت، ممّا وتّر العلاقات بينهم.

بعد قدّاس الذكرى الأولى لموت أبيهم، والتي أُقيمت في روكاكولمبا، طلبت منو مقابلتهم على انفراد، وقدّمت اقتراحاً أدهشَهم: "إن السيّدة ليللا وأباكم - رحمة الله عليهما - كانا ليحزنا كثيراً لو علما بندرة زيارتكم واتّصالاتكم التليفونية لأمّكم: يجب أن تحترموا أمّكم أكثر من ذلك. يؤلمني أن أرى تباعُدَكم وانصرافكم عن والدتِكُم، وأفهم أن ذلك بسببي، بسبب شجاركم معي. لا أطلب منكم المصالحة، لأنني مقتنعة بحُسن تصرّفي، وأنتُم أيضاً، وقد تحدّثنا في ذلك كثيراً. ولكن السيّدة أدريانا تعيسة، لأنها لا ترى أبناءها كثيراً، ولا يُعجبني ذلك. وأودّ أن تتحدّث ليللا وجاني معها في التليفون أسبوعياً، ويزوروها مرّة في الشهر، بينما تزورها كارميلا أربع مرّات شهرياً. لقد استثمرتُ أموالي جيّداً، ولديّ دَخْل جيّد. لذا أعرض عليكم الآن: سأُعطي لكلٍّ منكم نصف مليون ليرة كلّ شهر، ولكنْ، يجب أن تحضروا إلى منزلي لتأخذوها. ستكون النقود جاهزة في يوم 25 من كلّ شهر. وإن لم تزوروا أمّكم كما اتّفقنا، ستفقدون المبالغ".

قبل الأخوة الثلاثة الاتّفاق. وعاشت أدريانا سعيدة في منزل منو. وكان أهل البلدة يمتدحون ليللا، الابنة المحبّة التي تزور أمّها كلّ شهر، ولا تتغيّب أبداً عن زيارتها.

أقرّت ليللا بأن منو، ورغم إهاناتها لهم، كانت محقّة بشكل عامٍّ في القول بعدم خبرتهم في إدارة ميراثهم من أبيهم، وفي رفضها لزواج كارميلا. الآن بعد وفاة منولارا، تشعر ليللا بخسارة المبلغ الذي كانت تأخذه شهرياً، بل تشعر بالوَحْدة. الأخ والأخت مختلفان عنها، وقد اختارا أسلوباً للحياة يختلف تماماً عن أسلوبها.

الأمّ كانت حاضرة معها بجسدها في أثناء فترة الطفولة والمراهقة، إلّا

أنها كانت بعيدة عنها بمشاعرها، أمّ في غاية الأنانية. عانت في طفولتها من تفضيل أمّها الواضح والصارخ لجاني، ولكنها فهمت الآن أن ذلك كان عبئاً إضافياً لشقيقها، ضحية حبّ أمّه الخانق. وكارميلا كانت أنانية، تافهة مثل أمّها، وبعد الزواج انحدر وضعها الاجتماعي.

بثّ أبوها فيها حبّ الفنّ، ولكنه لم يكن موجوداً عند الحاجة إليه. وقد أهمل كثيراً جاني وكارميلا أيضاً. عاش والداها تحت سقف واحد حياتَيْن مختلفتَيْن، فكان كلٌّ منهما يعطي الأولوية لاحتياجاته بالنسبة إلى الطرف الآخر والأبناء. وعلى الرغم من خيانات الأب المتكرّرة، إلّا أنه يمكن القول أن زواج والدَيْها كان زواجاً ناجحاً: لا تتذكّر ليللا لحظة عاطفة بين الأبوَيْن أو نحو الأبناء، كما لا تتذكّر كذلك حدوث شجار أو نزاع.

لقد عملت منو كثيراً لحفظ التوازن والاستقرار المادّي للعائلة. ربمّا يجب أن يشعروا بالامتنان لها على ذلك. وبينما كانت ليللا تفكّر في رحلة العودة إلى روما، نامت هادئة.

الجُمُعة 27 سبتمبر 1963

35. البريد يحمل أخباراً جديدة، تبثّ الأمل في نفوس أفراد عائلة الفاليبي

كانت الساعة الثامنة صباحاً. كانت السيّدة الفاليبي وليللا تتناولان القهوة في غرفة نوم السيّدة قبل أن تستعدّ ليللا للعودة إلى روما. دائماً ما يمثّل وداع الوالدَيْن لحظة صعبة، ولكنْ، في تلك المرّة بدا الأمر سهلاً وخالياً من الانفعال. بل لم يخلُ من شعور بالراحة، فقد أنهكت أحداث الأسبوع الأمّ والابنة تماماً. دخلت سانتا إلى الحجرة قلقة، فهناك ساعي بريد يطلب التوقيع لتسليم خطاب مسجّل. نزلت ليللا وعادت إلى الأمّ ومعها خطاب. كان العنوان مكتوباً على الآلة الكاتبة، وكان قد أُرسل من عاصمة الإقليم. فتحتْهُ ليللا بنفاد صبر، كان مؤرّخاً بتاريخ اليوم السابق 26 سبتمبر. الخطاب كان مكتوباً بخطّ منو، وبالأحرف الكبيرة، ولم يكن مذيّلاً بإمضاء.

قرأتْهُ ليللا بصوت عالٍ:

"لم تفعلوا كما قلتُ لكم. ولكنْ، الآن وقد نشرتُم الإعلان في جريدة "جورنال دي سيشيليا" كما أريد، فأنا أسامحكم، بشرط أن تفعلوا ما أقوله لكم.

اذهبوا إلى مكتب والدكم. في المكتبة، خلف موسوعة "تريكاني"، هناك رفّ سرّي. ارفعوا مجلّدات الموسوعة،

سترون نافذة كبيرة، افتحوها. في الخلف هناك ثلاثة رفوف، ستجدون ثلاث علب مغلقة. لا تفتحوها. تحتوي العلب على مزهريات قديمة، أريد أن تحملوها بالسيّارة اليوم أو غداً إلى متحف الإقليم الأثري، واحذروا أن تكسروها. قودوا السيّارة ببطء. إن كُسرت تلك الآنية (الآنيات)، ستكون كارثة.

وفي المتحف، اطلبوا مقابلة الدكتور بالميري، الذي ينتظركم. وسيكون في انتظاركم. أخبروه أنكم من طرف منولارا، وعرّفوه بأنفسكم، واطلبوا منه شهادة أثرية للمزهريات، وأخبروه بأنكم الثلاثة المالكون لها. لا تبحثوا ولا تلمسوا أشياءَ أخرى في البيت.

بعد الحصول على الشهادة، انتظروا خطاباً آخر منّي، وتذكّروا تنفيذ ما أقوله لكم".

وضعت ليللا الخطاب فوق المنضدة، وقالت:

"لنذهب إلى المكتب". نهضت المرأتان. لم تكن هناك حاجة لكلمة أخرى. سارتا بعد أن عبرتا غرف الصالون، صالة البلياردو، الرَّدْهَات والغرف الفاصلة. وصلتا إلى المكتب من الباب الداخلي متدثِّرَتَيْن بِروْبَيْن مذيّلَيْن. كانتا تتحرّكان بخفّة ورشاقة فوق الأرضية الموزاييك التي يعلوها الغبار، تفتحان الغرف المظلمة ذات النوافذ المغلقة بالمتاريس، والتي غدت مهجورة، ثمَّ تُغلقان الحجرات خلفهما بحرص. تُضيئان وتُطفئان المصابيح الكهربائية لكلّ مقصورة، الواحدة تلو الأخرى، في أثناء سيرهما إلى حجرة المكتب. كانت إحداهما تضي حجرة والأخرى تُطفئ مصابيح الحجرة السابقة، بإيقاع ووقفات زمنية، وكأنها رقصة باليه دون موسيقى.

أخيراً بلغتا المكتب، وهناك توقّفتا.

سألت السيّدة الفاليبي وهي في حالة تأهّب:

"الآن ماذا سنفعل؟"

تفحّصتْها الابنة باستهانة. فأمّها التي كانت تشكو دائماً من التعب والألم عند أيّ تغيير في نظامها اليومي الصارم والخامل، تبدو مستعدّة للعمل والمشاركة.

أجابت الابنة: "لا أريد أن أفتح النافذة، فقد يرانا الناس. سنرفع الكُتُب، ولنرَ إن كان الأمر كما قالت".

كانت ليللا قد ألقت بمجلّدات من الكُتُب فوق الأرض، عندما دخلت لاختيار كُتُب لإهدائها إلى الأب أرينا، بينما ظلّت حجرة المكتب الفخمة كما هي مليئة بالغبار، ولكنها منظّمة. كان ينبعث منها تلك الرائحة الخاصة التى تفوح بالمكان المغلق، ذلك المزيج من تراكم الأتربة والرطوبة ورائحة العفونة الخفيفة للأوراق التي التهمتْها حشرة العُثّة، رائحة الحجرات المهجورة لمدّة طويلة، كأنها تعاقب أصحابها الذين اعتنوا بها يوماً ما، ثمَّ هجروها.

كانت ليللا قد صعدت فوق السُّلَّم الأنيق ذي العجلات، وكانت ترفع المجلّدات الثقيلة المجلّدة بالجِلْد، وتناولها للأمّ التي كانت تأخذها الواحد تلو الآخر، وتكوّمها على الأرض فوق بعضها، مكوِّنة أعمدة من الارتفاع نفسه.

بعد أن رفعت المجلّد الأخير، نزلت ليللا إلى الأرض، مسحت يدَيْها المملوءتَيْن بالغبار في جانبَيْها، ووقفت أمام الرفوف.

اقتربت منها الأمّ، وظلّتا واقفتَيْن الواحدة بجوار الأخرى، وقد تبعثر رُوْبَا النوم من الحركة غير المعتادة، فانسابا فوق الجسدَيْن المتماثلَيْن في تناغم وتموّج فاتنَيْن، بينما كانتا تنظران إلى المكتبة.

ثمَّ قالت ليللا: "لنفتح!" وأدارات مقبض الباب السرّي الذي انفتح مُحدِثاً صريراً.

كانت هناك ثمانية صناديق متماثلة، مرصوفة بالترتيب في مخبئها، ملفوفة بالورق، ومربوطة جيّداً بلفّات عديدة من خيط الدُّوبَارة الغليظ. كانت جاهزة للنقل إلى المتحف.

أصاب المرأتَيْن إحساسٌ بالرفاهية والراحة وهما تنظران إلى الصناديق، مبهوتَتَيْن.

قالت السيّدة الفاليبي:

"سترين، سيمضي كلّ شيء على ما يرام".

أجابت الابنة:

"أتمنّى ذلك"، وأضافت:

"يجب الاتّصال بجاني. يمكنني حملهم إلى المتحف، ولكنْ، يجب أن يصحبنى أحد رجلَي العائلة. الصناديق هشّة. لنترك كلّ شيء في مكانه الآن، ونغلق الباب بالمفتاح".

عادتا أدراجهما بالطريق نفسه عبر البيت، بقلبَيْن فرحَيْن. عندما اقتربتا من غرفة النوم، سمعتا صرخات سانتا الفجّة، التي ذهبت لأخذ صينية القهوة ولم تجدهما، فبحثت عنهما في كلّ مكان دون جدوى. ولم تتخيّل أنهما ذهبتا إلى حجرة مكتب المحامي. كانت سانتا قد خشيت أن تكون السيّدة قد فقدت الوعي أو حَدَثَت مصائب أخرى. بحثت عنهما في الحجرات كلّها التي تسكنها العائلة، بل نزلت أيضاً إلى البوّابة، وفي الفناء الداخلي، والمخازن، تناديهما بأعلى صوتها. اضطرّتا لتحمّل مشهد مسرحي للمرأة التي فقدت أعصابها وأُصيبت بالتوتّر وارتمت فوق مَقعَد السيّدة

طالبه رشفة ماء. بعد أن بلّلت ريقها، لامتْهما كما لو كانتا زميلتَيْن لها من طبقتها نفسها، لأنها أُصيبت بالفزع بسببهما. أحجمت ليللا عن تعنيفها، وتذكيرها بأن ذلك ليس الأسلوب الأمثل لمعاملة سادتها، وقد قرّرت أن تفعل ذلك في الوقت المناسب: ينبغي طرد سانتا. تعتقد أن من حقّها التصّرف مثل منو. ولكنها على العكس، تركتْها تُنفّس عن غضبها، وشرحت لها أنهما ذهبتا إلى أحد الصالونات في آخر المنزل لأخذ بعض الأشياء التي تحتاجها في روما.

عندما بقيتا وحيدتَيْن، اتّصلت ليللا بالزوج والأخوَيْن. وبالجِدِّيَّة والاقتصاد في الحديث أنفسهما نظّموا نقل الآنية إلى المتحف في الصباح. كانوا سعداء وواثقين، وإن كانوا يحسّون بالحَيْرَة من عناية منو وحضورها في حياتهم. ظلّت السيّدة الفاليبي سعيدة هادئة طوال اليوم. وعند وداع ليللا ونَقْل الآنية (الآنيات) قالت: "منو تحمينا من السماء. ينبغي أن نفعل ما تقوله لنا .. تذكّروا أنها في السماء تفكّر في مصلحتنا".

وفي خضمّ ذلك الاضطراب، لم يفكّر أيّ فرد من عائلة الفاليبي في فتح أحد الصناديق لرؤية محتواها، أو تساءل عن مصدر تلك القِطَع، والذي هو بالتأكيد غير شريف وغير قانوني. ولم تحلّ مشكلتهم الأساسية في معرفة مصدر الدَّخْل الشهري، بل إن ما حَدَثَ كان تعقيداً آخر ذا طبيعة مشكوك فيها، لم يمرّ بخاطر أيٍّ من الفاليبي. يكفي أن منو اتّصلت بهم. لا يهمّ كيف ولماذا، ولم يكن لديهم شكّ في عودة الأموال السائلة مرّة أخرى إلى أيديهم.

تضاعفت زيارات التعزية بعد تصحيحات إعلانات الوفاة. وجد أهالي روكاكولومبا عائلة الفاليبي هادئة، تستقبلهم بترحاب، مع الكثير من عبارات الثناء والمدح التي كان يقولها الأبناء عن منو: إنسانة غير عادية، كرّست نفسها لهم تماماً. كانت بالنسبة إليهم أمّاً ثانية. كانت حتّى تشجّعهم على

الدراسة. كانت تحبّ التعلّم، واستطاعت الحصول على قَدْر من الثقافة - من المفهوم طبعاً أنه بالقَدْر الذي يمكن لخادمة أن تتعلّمه - كانت تتبع الأب في ولعه باقتناء التحف. ذُهل الزائرون من ذلك التحوّل المفاجِئ، وحرصوا على إبلاغ الآخرين أن الجنون تمكّن من عائلة الفاليبي، وأن منولارا لم تعد ملعونة، بل غدت ملاكهم الحارس وسيّدة الثقافة.

استقبل الدكتور بالميري ليللا وجاني بحفاوة. ووعد بفحص محتوى الصناديق بسرعة ودون إبطاء مضيفاً: "بلّغوا تحيّاتي إلى السيّد منولارا، الخبير الشهير الذي ثقّف نفسه ذاتياً في مجال فنّ الخزف اليوناني".

لم يعد هناك ما يُدهش أولاد الفاليبي، ولا حتّى فكرة أن الدكتور بالميري الأثري بالمتحف، يعتقد أن خادمتهم رجل، والأكثر من ذلك رجل خبير في الفنّ. ليللا وجاني، مطيعَيْن لأوامر منولارا واثقَيْن بأنهما مراقبان، لم يطرف لهما رمش. ابتسما وحَيّيا وانصرفا.

36. ليللا الفاليبي وذكرياتها اللطيفة مع منولارا

كانت ليللا تركب الطائرة المتوجّهة إلى روما. لم يكن يُعجبها أن تتذكّر أيّام صباها في روكاكولومبا. ولكنْ، داهمتْها في ذلك اليوم بعض من صور الطفولة، كانت تظنّ أنها نسيتْها أو ربمّا نحّتْها فقط عن الذاكرة.

كانت تلك الفترة هي فترة نزول الحلفاء في أثناء الحرب عام 1943. وكانت العائلة قد تفرّقت في بعض أملاكها النائية في الوديان العالية في الداخل. كانت ليللا تشاهد وهي مستندة إلى ساق والدها صور أحد كُتُب الفنّ، والذي كانا يقرآنه معاً، وهما جالسان تحت أكمة ياسمين وارفة. وكانت هي سعيدة أن استحوذت على انتباه أبيها بالكامل. أحسّت بأن أحداً ما يراقبها، فرفعت عينَيْها. كانت منو تحت الشجرة أيضاً ومعها أشغال الإبرة؛ كانت تراقبهما برقّة معجبة بما ترى، ويداها مسترخيتان في

حجرها تاركة الكرة الخشبية التي كانت تضعها داخل الجورب الذي ترتقه. ابتسمت ليللا لها، فانغلقت شفتا منو المكتنزتان البارزتان على ابتسامة اتّفاق وتفاهُم.

كانت تلك الفترة من الفترات المحبّبة على وجه خاصّ بالنسبة إلى ليللا، رغم طبيعة الأحداث التي كانت سبباً فيها. كانوا يعيشون في بيت ريفي مختبئ بين الأشجار بالقرب من جدول ماء. كانوا قد لجؤوا لهذا البيت مع الأبَوَيْن والجَدَّة، خشية حدوث ما هو أسوأ، ولم يصحبوا معهم من الخَدَم سوى السائق دون باولينو ومنو. لم يكن الأبناء على وعي بحدوث غزو للجزيرة، مع أنهم كانوا يعرفون أن الحرب مستمرّة، مستمتعين بإجازاتهم الريفية التي كانت تبدو لهم خالدة لا نهاية لها. كانت منو قد اقترحت على الأب أن يواجه غياب الأولاد عن المدرسة بتعليمهم ما يمكن أن يسمح به الريف، وهكذا كان أوراتسيو، عندما تخلد الأمّ والزوجة للراحة، يصطحب أطفاله إلى الحقول بصحبة منو. ولم تكن ليللا في وقت من الأوقات أقرب إلى أبيها من تلك الفترة.

وخطرت على بالها ذكرى أخرى جميلة: كانوا تحت شجرة خَرُّوب ضخمة، والأب يُمسِك بالأوراق المتدلّية، ويثنيها منطلقاً منها إلى درس علم النبات. فشرح الرحلة الطويلة لِلحاء النبات، ومعجزة حبوب اللقاح، مع التعريف على الطفيليات التي تصيب أوراق الشجر. كانت منو تُنصت إلى الدَّرس بكلّ تركيز، وكانت، في الغالب، تنشغل في أثناء الدروس بجمع الحصى والتوت والحيوانات الصغيرة، وتحملها إلى أوراتسيو كما لو كانت تلميذة هي الأخرى. كان هو يتلقّاها منها واحدة واحدة بكلّ رقّة بين أصابعه الجميلة، التي كانت ليللا تحبّها جدّاً، ثمَّ يقدّم عنها شرحاً ساحراً فاتناً. كانت منو تُنصت، ثمَّ تقدّم هي الأخرى مساهمتها التي استقتْها من خبرتها في الحقول. وأحياناً ما كانت تصحّح له معلوماته. كانت تعرف الخصائص الطبّية للأعشاب خير معرفة، وكانت

تعرف الجرعات المضادّة للدغات الحشرات والحيوانات وعاداتها في أثناء فصول السنة المختلفة.

ومضت في ذهن ليللا لمحة من ذكرى ذلك اليوم: كان أبوها ومنو يفحصان قرون الخَرُّوب الطويلة، وكانا يضحكان معاً، وهما يتبادلان النظرات.

وأحسّت ليللا بأنها تشاركهما، وأنها مستثارة بشيء قوي كانت لا تفهمه على أيّ حال. ولكنْ، سرعان ما أصبحت منو معلّمتهم الوحيدة في الدروس الريفية، بعد أن استولت على الأب مغامرة غرامية مع سيّدة كانت هي الأخرى هاربة من الحرب في مكان قريب منهم، فَفَقَدَ اهتمامه بالدروس. كانت تصبحهم في الحقول جميعها، ثمَّ تتوقّف فجأة، وتُصدر إشارة تعني الأمر بالصمت: عند رؤيتها طائراً غريباً على الشجر، أو أرنباً مذعوراً، أو حجراً له شكل غير مألوف، أو جسيماً مهجوراً. كانت تلحظ كلّ شيء قبلهم. وكانت تشرح حياة الحيوانات، كما تفهمها، وتأثير التشذيب على الأشجار، وعجائب تطعيم النباتات التي تحوّل الكمّثرى إلى خوخ، وكيف تتحوّل يرقة الدودة إلى فراشة. كانت ليللا تستمتع. كان يبدو لها أن العالم كلّه في تحوّل رائع، وكانت تشعر بالحُرِّيَّة. كانت منو تُعدّ الوجبات اللذيذة بالقليل الذي كانت تستطيع العثور عليه في زمن الحرب، مثل سندوتشات العجّة بالبصل والزيتون، والسردين المملّح بالزيت والليمون، وكانوا يأكلون هذه الأطعمة تحت الأشجار. وإذا كانوا وحدهم كانت تخلع في ساعات الحَرّ القائظة الجوارب السميكة التي كانت ترتديها في الصيف وفي الشتاء، وتمضي حافية القدمَيْن، وتتمدّد على الأرض شاخصة بصرها إلى السماء بسعادة. وعندما كانت تهبّ ريح قوية تُبعثر كعكة الشَّعْر خلف جِيْدها، كانت تفكّها وتترك شَعْرها سائباً. كانت منو تقول: "في الأحوال كلّها تنتصر الرياح دائماً"، وكان شَعْرها ينتفش وكأنه لا يزال أسير التسريحة، ثمَّ يكوّن خُصلات متموّجة غزيرة، كأنها عُرْف فَرَس ينسدل فوق كتفَيْها. كان بها مسحة من جمال. وعندما انقضت فترة التهجير عادوا إلى

البلدة. كانت الجَدَّة في حالة صحّية سيّئة، كما كانت هناك مشكلات مالية. استأنفت ليللا الحياة الرتيبة القاهرة التي اتّسمت بها طفولتها. كانوا قليلاً ما يرون أباهم، الذي كان طيلة الوقت مأخوذاً باهتماماته خارج العائلة. وكانت الأمّ تقضي الظهيرة كلّها تلعب الورق. كانت أوقاتاً عصيبة، وكان التغيير يمضي دائماً نحو ما هو أسوأ. كان الحديث المتداوَل في البيت عن ضرورة بيع بعض الممتلكات حتّى ينفقوا من ثمنها حفاظاً على الحياة. وتقرّر أيضاً أن تهتمّ منو بالمطبخ، لتقليص عدد العاملين في المنزل. أراد الوالدان أيضاً تشغيل فتاة تحمل مؤهّلات حتّى تعتنيَ بالأولاد. فالأُلفة مع منو، التي تتحدّث بالعامِّيَّة فقط، قد منعتْهم من تعلّم اللغة الإيطالية الفصحى. كانت ليللا على وشك أن تصبح في سنّ الزواج، وكانت الجَدَّة، وكذلك الوالدان، يخشيان على الفتاتَيْن أن تعتادا السُّوقيّة من كثرة مخالطتهما للمرأة التي كانت تعتني بكلّ صغيرة وكبيرة في حياتهم، وترعاهم دراسياً على طريقتها. ومن الواضح أن منو لم تكن على علْم بهذه الهواجس، فحزنت جدّاً لهذا القرار الذي يُعتبر تدخّلاً لا مبرّر له في اختصاصاتها، وصرّحت بذلك. ولكن عائلة الفاليبي لم تتراجع عن قرارها. كانت ليللا تتذكّر أن تلك الفتاة، والتي كانت أيضاً ثقيلة الظلّ، قد تمّ الاستغناء عنها، توفيراً في المرتّبات، وهكذا لم يتبقّ من الخَدَم سوى اثنَيْن: دون باولينو ومنو، تساعدها بين الحين والآخر خادمات بنصف يومية. عادت منو لتصبح مسؤولة عن الأطفال. اختلفت عمّا كانت عليه: كانت تخدمهم بدقّة عالية. ولكن ليللا أحسّت أنها ابتعدت عنهم، وأنها تكاد تتحوّل إلى عدوّ لهم. بعد وفاة الجَدَّة بقليل كانت هي التي تولّت إدارة الأراضي الزراعية. مُثقَلَة بالعمل والتفكير، أصبحت صارمة قاسية، تفرض إرادتها على البيت والأسرة، وتعطي الأولوية لطلبات الأمّ، ورغبات الأب ونزواته، فيما كان الأولاد هم آخر مَن يخطر على تفكيرها. ومنذ ذلك الوقت أصبح لديها شيء غامض لا يمكن التكهّن به. شيئاً فشيئاً أصبحت

خادمة - سيّدة، يتوجّه إليها الوالدان والأبناء طلباً للمال، مع أنها كانت لا تزال تفخر بدورها كمدبّرة منزل بارعة، وتقوم على خدمتهم كالمعتاد. لم تكن تريد أن تتعلّم ليللا الطهي أو القيام بالأعمال التي تعجب الفتيات مثل التطريز. كانت هي التي تفعل كلّ شيء. لم تكن تأخذ إجازات سوى أسبوعَي الصيف اللذَيْن كانت تقضيهما مع ابنَي شقيقتها. وكانت تحافظ على التواصل الطيّب معهم، وكانت تملي رسائلها لهما على ليللا. كانت لحظة راحتها تحلّ بعد الظهر، ما بين الساعة الثانية والساعة الرابعة. كانت تنسحب إلى غرفتها أو المكتب المجاور لمكتب المحامي، لكي تُنهيَ حساباتها، ولم يكن أحد يجروء على إزعاجها. حتّى هو كان يستأذن حتّى يستطيع أن يدخل مكتبه خلال هاتَيْن الساعتَيْن، ولم تكن تعطيه الإذن دائماً. لم يكن لدى ليللا ذكريات أخرى ممتعة. كانت على وعي مؤلم بمغامرات أبيها الغرامية خارج نطاق الزوجية، والتي لم يكن يبدو أنها تُزعِج أمّها. كانت الحياة في روكاكولومبا خانقة، وقد باعت عائلات كثيرة بيوتها الريفية، وانتقلوا للحياة في المدينة. كانت ليللا قد بادلت جرّاحاً من لومبارديا الحبّ بكلّ حماس، وتزوّجت صغيرة جدّاً، سعيدة بترك عائلة بلا روح وبلد بلا مستقبل. ووافقت منو على هذا الاختيار، ما دام أنها سوف تواصل دراساتها الجامعية، وحفّزت والدَيْها على إقامة حفل زفاف كبير لها.

في المساء، وصلت ليللا المنزل أخيراً، وروت لزوجها أحداث الأسبوع غير العادية. كان حادث الآنية هو الأهمّ لما أظهره من نظام معقّد لمراقبة والتحقّق من تصرّفات عائلة الفاليبي. خطّطت له منو بمساعدة مجهولين، وتمّ تنفيذه بواسطة أشخاص متعدّدين. ربمّا كان ذلك الإعلان في الصحيفة رسالة مشفّرة ليس إلّا. لم تكن الدوافع والغرض من وراء مثل هذه الآلية المعقّدة واضحَيْن، لذا كان ضرورياً معرفة المزيد عن منولارا، فقرّرا أن يتّصلا بابن شقيقتها تليفونياً.

الأحد 29 سبتمبر 1963

37. التقت ليللا الفاليبي وزوجها جيرلاندو مانكوزو ابن أخت منولارا

قالت ليللا موجّهة كلامها لزوجها: "إنه يُشبهنا"، وهي تتّجه نحو مجموعة الكراسي في غرفة الفندق، حيث كان ينتظرهم المهندس مانكوزو. كانت قامته متوسّطة وبشرته داكنة، وقد اختار ملابسه بدقّة: سترة بمربّعات صغيرة من الصوف، حذاء رياضياً جميلاً، ساعة معصم أنيقة. انشغل في قراءة الصحيفة ريثما يصلان. بعد بعض المجاملات الأوّلية قدّمت له ليللا التعازي الواجبة. شعرت بالتحرّر، فلم تعد بعد قادرة على تلقّي التعازي.

أجاب: "ينبغي أن أُعزّيكِ أنا، يا سيّدة ليللا. فقد كانت الخالة روزاليا تحبّكم أنتُم كأولادها، بينما كانت تحبّنا نحن كأبناء أخوة. ومن المؤكّد أن هذا الحبّ كان يُقابَل بالمِثْل. على أيّ حال، هي عاشت دائماً في بيتكم، وكانت لا تقضي معنا سوى أسبوعَي إجازة كلّ عام" .. لم تكن ليللا تتوقّع مثل هذه المقدّمة، وأدرك مانكوزو هذا، فخجل عندما أحسّ أنه تحدّث بشكل غير لائق. أجابت ليللا: "شكراً، ولكنْ، الآن أودّ أن تحكي لي عن خالتكَ .. فقد كانت شخصية غير عادية ومتحفّظة، وخاصّة فيما يتعلّق

بحياتها الخاصّة. أودّ أن أفهمها بشكل أفضل". وكانت ليللا غير قادرة على إضافة المزيد.

أجاب مانكوزو: "معكِ حقّ، وليس من السهل تعريفها. لا شكّ أنها كانت موهوبة ثقافة وذكاء على نحو متشابك ومعقّد. كنّا في البيت نضحك من غموضها: والدي، الذي كان يعمل في سلاح قوّات الأمن، كان يرى أنها لو كانت قد وُلدَت ذَكَرَاً، لأصبحت زعيمة مافيا، وكان يُسمّيها بالمرأة الكتوم".

كان جيرلاندو مانكوزو يتكلّم لغة إيطالية جميلة، يتميّز بها سكّان البرّ الإيطالي، بِلُثْغَة في الراء، لكنه قال الكلمات الأخيرة بلهجة صقلية قحّة. ألمح جان ماريا إلى ذلك ببراعة. "لسوء الحظّ نحن وُلدنا ونعيش دائماً في الشّمال. أنا لا أعرف صقلية، ومع ذلك كان علينا الاحتفاظ باللهجة للتواصل مع خالتنا روزاليا، التي كانت ترفض بعناد أن نتكلّم الإيطالية الفصحى. أعتقد أنها ربمّا كانت تخجل من أنها لم تتعلّم، ومن معرفتها المحدودة بلغة الحديث الراقية". ومرّة أخرى يدرك مانكوزو أنه يتحدّث بشكل غير لائق، بإعطاء الانطباع بأن لهجة صقلية غير راقية. فأضاف، متوجّهاً إلى ليللا: "اسمحي لي أن أقول لكِ، يا سيّدتي، إن لُكْنَتَكِ الصقلية تبدو لطيفة محبّبة في ثنايا لغتكِ الإيطالية السليمة". كانت ليللا تكره أيّ شيء له صلة بالجنوب، ولهذا ابتسمت ودخلت فوراً في هذا الموضوع الذي كان قريباً إلى قلبها: "لا بدّ أنكَ تعرف بالتأكيد أن خالتكَ كانت تدير أملاك العائلة حتّى وفاة الوالد، ثمَّ واصلت إدارة تَرِكَة الأمّ. وقد تركَنا رحيلها المفاجِئ في حالة اضطراب حول مختلف جوانب الإدارة. تُوفّيت قبل الأوان، فلم يكن لديها الوقت الكافي لترتيب أعمالنا وأعمالها ... وربمّا تركت لكَ بعض التدابير أو السجلّات أو الوصية؟". ردّ مانكوزو:

"كانت خالتي تناقش أعمالها معي، حيث إنني أكبر أولاد أختها، ولكنها لم تترك معي شيئاً لكم، ولا هي أرادت أن تترك وصية على حدّ علْمي. ولم أكن أتوقّع منها ذلك، فقد خصّصتْ لنا في الماضي هِبَات كبيرة، وكانت في غاية السخاء معنا. ولم نكن ننتظر منها ميراثاً. سوف يذهب كلّ ما كانت تملكه إلى عائلة الفاليبي، أنا واثق من هذا. لقد ناقشنا ذلك في أغسطس، خلال زيارتها الأخيرة. أعربت عن سرورها لتنظيمها كلّ شيء مع البنك. وكانت كلماتها الأخيرة: ‹سأموت مطمئنّة، لأنني فعلتُ واجبي تجاه الأحياء والأموات›. كانت بعيدة النظر، ولا بدّ أنها نظّمت كلّ شيء حتّى تتجنّب ضرائب التَّركات. ولذلك فإن تَرِكَتَهَا، يا سيّدتي، سوف تَؤُول كلّها إليكم، يا آل الفاليبي". عجزت ليللا عن الكلام، وتدخّل زوجها: "إن آل الفاليبي يجهلون ذلك، كانوا يتلقّون من خالتكِ مبالغ مالية كلّ شهر. كانوا يتسلّمونها عن طريق البريد، وربّما تكون قد ضاعت أو سُرقت. ألَا يبدو لكِ ذلك معقولاً؟". ردّ ابن الأخت: "نعم، هذا هو السلوك النموذجي لخالتي. كانت تفعل ذلك معنا نحن أيضاً، حتّى بدأنا نعمل، ولم نعد بحاجة للمساعدة. وكان عيبها الوحيد أنها تريد أن تفعل كلّ شيء بنفسها، وأن تحافظ بعناد على أسرار حياتها الخاصّة وصحّتها. كانت تخشى الذهاب إلى طبيب الأسنان، وفي الوقت نفسه كانت مذعورة مِن فَقْد أسنانها، لذا كانت تبالغ في تنظيفها والعناية بها، وتطلب منّي ومن أخي أن نحذوَ حذوَها". ثمَّ أردف قائلاً: "كانت حريصة أيضاً في المسائل المالية. كان اللغز بالنسبة إلينا كيف أنها استطاعت أن تعول أمّي وجَدَّتي منذ أن كانت تجمع اللوز من الحقول. أعرف أنها عندما كبرتْ تعلّمتْ كيف تدير الأملاك بطريقة رشيدة، وكانت مقتصدة، ويقف الحظّ إلى جوارها في استثماراتها على نحو فريد. كانت أمّي تحكي أنها عندما كانت لم تزل طفلة كانت تنجح في مضاعفة النقود كأنها أسماك

الإنجيل. هل تصدّقين أنها في فترة ما بعد الحرب مباشرة ساعدتْنا على شراء بيتنا الأوّل. عندما أهدتْنا قَدْراً كبيراً من المال". "من أين جاءت هذه الأموال؟ ألم تسألوا يوماً من أين جاءت؟" سألتْهُ فجأة. قامت بعمليات حسابية عقلية: في ذلك الوقت كانت منو مجرّد خادمة براتب تافه. جَدَّتها كانت لا تزال على قيد الحياة، وكانت هي شخصياً التي ترعى إدارة الممتلكات؛ فهل كانت منو تخدعها وتسرق الأسرة؟

أجاب مانكوزو:

"معكِ الحقّ كلّه، ووالدي كان أحد رجال الأمن، وكان رجلاً مستقيماً جدّاً. تردّد في قبول هديّتها، وعبّر صراحةً عن هواجسه، وقد ناقشنا هذا الأمر طويلاً في بيتنا. بل إنه وصل إلى نتيجة مؤدّاها أنها سرقت هذه الأموال من أسرتكم. أذكر أنه قرّر أن يكتب إليها، لكي يستوثق من مصدرها؛ كانت المراسلات بيننا وبين خالتي كثيفة، على الرغم من أنها تحتاج إلى مَن يكتب لها. تعرفين هذا جيّداً، يا سيّدة بوللا، فلا زلتُ أحتفظ بالرسائل المكتوبة بخطّكِ الجميل المتناسق، والتي أملتْها عليكِ الخالة". ابتسم مانكوزو، ثمَّ أضاف "كان ردّها فورياً. هي أموالها وحسب. قبل الحرب، قدّمتْ لها السيّدة الفاليبي هدية، وأُتيحت لها فرصة استثمارها في الخارج. كانت تفهم هواجس زوج شقيقتها، فلم تشعر بالإهانة تجاهها، هذه المرّة. ولكنها لم تسمح بمزيد من الشكوك حول أمانتها. كانت تفضّل أن تتوقّف عن مساعدة أختها على أن تتعرّض لمِثْل تلك الإهانة بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين لم نوجِّه إليها أيّ أسئلة أخرى. مرّة واحدة، خلال إحدى زياراتها، كانت تريد أن تذهب للحديث إلى مدير بنكها في فاريزي، ثمَّ في سويسرا. صحبها أخي، وافترض أنها كانت تحتفظ بأموالها هناك بمشورة من أسرتكم، فلا يوجد أيّ تفسير آخر. كانت خالتي فلّاحة مسكينة،

ومن المؤكّد أنكم باعتباركم مديرين لأملاك أمراء برولي لديكم دراية أوثق بمثل هذا النوع من الاستثمار. استَعلِمُوا من البنك، فقد كنتُ أعتقد دائماً أن مدّخراتها يتمّ استثمارها جنباً إلى جنب مع أموالكم". غمغمتْ ليللا: "لا أعرف، لقد تزوّجتُ صغيرة جدّاً، ولهذا ليس لديّ علم كاف باستثمارات العائلة في تلك الأوقات". لم تكن تريد أن تكشف جهل عائلة الفاليبي وغفلتها لابن أخت الخادمة. "اسمحي لي أن أقاطعكِ" أضاف جيرلاندو مانكوزو، "أذكر أيضاً أن خالتي حقّقت بعض المكاسب من بيع أحد أملاككم، نسبة مئوية من السعر. كانت سعيدة جدّاً بهذا، ولكنني أكثر ثقة في أنها في إدارتها للأصول الخاصّة بكم كانت تتحرّى الدقّة الشديدة والأمانة، فقد كانت هذه هي طبيعتها. لا أستطيع أن أقول لكِ شيئاً آخر" أضاف، وقد غلب عليه الخجل من أنه تحدّث عن خالته على نحو طيّب أكثر من اللازم. "في نظرنا، لم يكن بها عيب عدا شدّة الحساسية وسرعة الانفعال". تدخّل جان ماريا بوللا، فقد لاحظ نفاد صبر مانكوزو. كان يخشى أنه سيضع حدّاً للقاء بسرعة: "ولكنْ، هل تعتقد أنها كانت شديدة الحساسية، أنا لم ألحظ ذلك، فقد كانت دائماً محبّة وودودة مع زوجتي". "كانت حسّاسة جدّاً! على الرغم من كونها فخورة بدورها كخادمة في بيت كبير من بيوت صقلية مثل بيت زوجتكَ، فعلينا الاعتراف بأنها كانت واعية بأنها تفتقر إلى اللياقة، ولم تحظَ بتعليم مدرسي. كانت تخاف أن يهزأ بها الناس، وكانت تفضّل البقاء في المنزل للقيام بعمليات تنظيف كبيرة وبالطهي، بدلاً من المشاركة في حياتنا الاجتماعية. لم تكن تذهب سوى إلى البقّال عند ناصية الشارع لشراء بعض الاحتياجات. وذات يوم ظنّت أن البقّال كان يسخر منها لطريقتها في الكلام، فأجبرتْنا على عدم التعامل معه. كانت لا تتزحزح عن قراراتها. كنّا صغاراً، ولكن كلماتها حفرت في ذهني: ‹لخيركم يجب عليكم القيام بما آمركم به. حتّى التحية لا ينبغي

إلقاؤها عليه عندما تمرّون أمامه، ولا تشتروا منه بعد ذلك أبداً. أنها مسألة تخصّ شرف العائلة: لقد أساء لخالتكم". كانت ليللا تستمع إليه بانتباه، فقد كانت هذه هي منو التي تعرفها. وأضاف جيرلاندو مانكوزو: "لا أريد أن أعطيكَ الانطباع بأنها كانت ضيّقة الأفق، وتسيطر عليها الرغبة في الانتقام. فقد كانت تتّسم بالسخاء والإيثار. وكانت مستعدّة للمخاطرة والتضحية إذا لزم الأمر، ليس فقط من أجلها، ولكنْ، أيضاً من أجل الآخرين. فقد روت لي زوجتي وهي خرّيجة كلّيّة الحقوق، أنها تحدّثت معها عن الزواج الذي يُعقَد بين المغتصب وضحيّته، والذي يخفّف العقوبة القانونية عن الجاني. ومنولارا التي ذُعرت عند سماع حكاية إحدى معارفها التي أُجبِرَت من الأهل والبلدة كلّها على الزواج ممّن اغتصبَها، اقترحت إنشاء صندوق لصالح تلك البائسة ومَن في مثل ظروفها.

وكانت أيضاً مثقّفة ثقافة عالية، في المواضيع التي تهمّها. في السنوات الأخيرة، أظنّ أنه كان لديها مزيد من الوقت، فكانت تقرأ كثيراً، وكانت تهتمّ على نحو خاصٍّ بالأدب الحديث. وأنتم تعرفون، بلا شكٍّ، عشقها للخزف اليوناني، وربّما وجّهها إلى ذلك المحامي الفاليبي". "لماذا لم تحضروا جنازتها؟" سألت ليللا، التي كانت تريد أن تخبره بأمر المزهريات اليونانية. "لم تكن خالتنا تسمح لنا بزيارتها في صقلية. قلنا لها وداعاً في أمان تامٍّ في أغسطس. طلبت منّا أن نُقسم على عدم الذهاب إلى روكاكولومبا ولا حتّى لحضور الجنازة. كانت واثقة من أن أنكم سوف تقومون بالواجب، وهو ما حَدَثَ بالفعل، وتدين لكم أسرة مانكوزو بالامتنان لهذا. أبلغنا القَسّ الذي كان يكتب لها رسائلها عن وفاتها. أودّ أن أقول لكِ شيئاً أخيراً، ولي رجاء عندكِ أن تُعيديه على مسامع أخوتكِ، إذا ارتأيتِ ذلك مناسباً. كانت الخالة تتحدّث وتكتب كثيراً عنكم: ألعاب، شقاوة، ولكنْ، أيضاً نقاط القوّة ونقاط الضعف. كانت تحلم بنجاحكم، وتشكو في بعض الأحيان، عندما لا

تدرسون دروسكم بالحماس الواجب، ولكنها كانت تذكر ذلك دائماً بالمودّة والاعتزاز. كانت تفعل الشيء نفسه معنا، كانت تحثّنا على الدراسة وعلى تحسين مستوانا: كانت مستبدّة في الخير. ثمَّ كتبت أقلّ عنكم. كنّا نظنّ أنكم ذهبتُم إلى مدرسة داخلية، وأخذنا نسأل عنكم باستمرار. بالنسبة إلينا كنتُم جزءاً من عائلتنا الصقلية. كانت خالتنا تتحايل على أسئلتنا. ذات يوم سألتُها لماذا؟ وردّت بأن امرأة أخرى هي التي تعتني بكم، وأنها عادت لتكون مجرّد خادمة. وكان الحديث عنكِ يؤلمها، ولكنها ظلّت دائماً تحبّكم. أفهم أنها كانت امرأة غير متعلّمة، ولكن المشورة والدعم اللذَيْن قدّمتْهما لنا عن بُعد ساعدانا كثيراً في مرحلة الصبا والشباب، ولذا لم أستطع أن أستوعب أبداً سرّ هذا التغيّر في عملها: فهل تفسّرين لي السبب؟". أوضحت له ليللا أن والدَيْها قاما بتشغيل آنسة متعلّمة تتحدّث الإيطالية الفصحى جيّداً، وهي العادة مع البنات عندما يبلغنَ سنّاً معيّنة. وقال جيرلاندو مانكوزو "أفهم، لقد سبّب لها هذا ألماً كبيراً. ولكنها تجاوزتْهُ بطبيعة الحال، لأنها تابعت خدمتكم بتفانٍ".

الاثنَيْن 30 سبتمبر 1963

38. المزهريات تعود إلى روكاكولومبا

في ظهر يوم الاثنَيْن 30 سبتمبر كانت ليللا وجاني في طريق عودتهما إلى روكاكولومبا. كانا قد وضعا في حقيبة السيّارة الصناديق الثمانية التي تحتوي على المزهريات اليونانية بعناية، بعد أن سحباها من المتحف. كانا قد اتّفقا على أن يفتحا المظروف الذي يحتوي على شهادة الأصل في بيت الفاليبي في حضور كارميلا وماسيمو، والأمّ كذلك. كانت ليللا قد هرولت من روما حالما سمعتْ أنها أصبحت جاهزة، وكانت في حالة مزاجية جيّدة، وروت لجاني، الذي ذهب إلى اصطحابها من المحطّة، عن لقائها مع جيرلاندو مانكوزو: "أتعرف، ربّما أسأنا تقدير منو. لقد كانت تحبّنا، وكانت بعيدة النَّظَر، وقد ربَّت أبناء أختها تربية جيّدة. أمّا فيما يتعلّق بالمزهريات، فالحقيقة أنه لأمر مُدهِش أنها تعلّمت الكثير عن الفنّ اليوناني. لا بدّ أن أبي قد علّمها الكثير. ولكنْ، حتّى هذا يُدهِشني. بصراحة لم أكن أتصوّر أنها عليمة بهذه الأمور لهذه الدرجة". وافقها جاني على هذا. وأضافت ليللا: "أنا لا أستطيع أن أتخيّل أبي ومنو معاً في حجرة المكتب يقرآن، ويبحثان، ويصنّفان التحف ... كانا مختلفَيْن جدّاً. أبي، مع عيوبه كلّها، كان لا يزال رجلاً متميّزاً ومثقّفاً، بل ومغروراً قليلاً، بينما، كانت منو الفقيرة خشنة الحديث والملبس عديمة الأناقة في كلّ شيء". وردّ عليها جاني "لا أدري ما إذا كان بوسعي أن أُوافقكِ الرأي، بعد انتهاء أوّل لقاء قالت لي آنّا شيئاً

عنها أدهشَني، فقد قالت: ‹ هي جميلة القوام مثيرة الوجه. كان بوسعها أن تكون امرأة جميلة لو اهتمّت بنفسها قليلاً، ولكنها لم تكن تعرف من أين تبدأ.› ابتسمت ليللا، وامتنعت عن الردّ. وكان كلّ شيء تقوله آنّا هو ذهب مصفّى عند جاني الذي كان يعشق زوجته، ويخضع لها عكس أبيه. "ماذا سنفعل بالمزهريات؟" أجابت ليللا: "هي ثمانية. هل نقتسمها بواقع اثنتَيْن لكلّ واحد منّا، بما في ذلك أمّي؟". قال جاني بشيء من الحَرَج: "أعتقد حقّاً أنه سيكون من الخطأ تقسيمها، خاصّة إذا كانت تشكّل معاً مجموعة تُحف. إذا كنتِ لا تمانعين في ذلك، أودّ أن احتفظ بها كلّها، فأنا آخر سلالة الفاليبي. ونستطيع أن نضعها في المنزل الجديد، تخليداً لذكرى الأب، في لوحة مَحميّة تحت الزجاج، فما رأيكِ؟". امتعضت ليللا، فها هي تحسّ مرّة أخرى بمخلب زوجة شقيقها. كان من الأفضل تأجيل اتّخاذ القرارات؛ أيضاً، زوجها قال لها إنه سيكون مستعدّاً لشراء حصّة عدلائه أيضاً، بسعر يتّفق عليه. مجموعة من المزهريات اليونانية كان من شأنها بالتأكيد أن تعطي لمسة أناقة راقية إلى صالوناتهم. ابتسمت مرّة أخرى، جال بخاطرها أن ماسيمو ربمّا أجرى الحديث نفسه مع كارميلا. "سوف نناقش هذا معاً في المنزل مع أمّي؛ فقد تكون المزهريات مريعة، أو مقلّدة، مَن يدري؟"، وقال جاني متعجّباً: "كفى هراء، ليس لديّ أيّ شكٍّ في أنها سوف تكون رائعة. ما يُقلقُني هو مصدرها، أي أن تكون من أملاك منو. لعلّها اشترتْها من لصّ الآثار ذلك، وربمّا كانت مسروقة. ينبغي أن نستشير محامياً". اعترضت ليللا بشدّة: "أستبعد أن تشتري منو شيئاً من اللصوص، فقد كانت تتحلّى بالأمانة". أجاب جاني: "لم تكوني تتحدّثين عنها بمثل هذه الطيبة في الأسبوع الماضي، فقد كنتِ تتّهمينها بسلب إرث أبيكِ". ولكي تتجنّب ليللا الشجار مع شقيقها لم تتبادل معه إلّا القليل من الكلمات خلال الفترة المتبقّية من الرحلة. قبل أن يجتازا التقاطع للوصول إلى روكاكولومبا، قالت: "أنا متأكّدة من أن منو

سوف ترسل رسالة أخرى، تحتوي على التوجيهات التي تُوصِلنا إلى المال. مَن يدري مقدار الجهد المبذول لترتيب هذه الرسائل؟ وكان يكفيها أن تترك وصية أو تكتب كلّ شيء في وثيقة واحدة". "آنَّا تعتقد أنها فعلت ذلك، لتضعَنا على المحكّ، فلم تكن تثق بنا". "ماذا تقصد؟"، لم تكن ليللا تتحمّل نبرة زوجة شقيقها المدّعية .

قال جاني: "أقول إننا ارتكبنا الكثير من الأخطاء في إدارة ميراث أبي، وكان من الأجدر بنا أن نتّبع نصائح منو. الأموال سوف تُدار من قبَل البنك، وهذه المرّة سيكون من الأنسب تركها وأخذ الفوائد كما كنّا نفعل كلّ شهر في السنوات الأخيرة". قالت ليللا بحَنَق: "أنتَ تفكّر فقط في أبحاثكَ الجامعية وإرضاء زوجتكَ، أمّا أنا، فأريد أن أهتمّ بشؤوني وحدي". أزعجتْها فكرة الميراث الخفي الموقوف. وفي تلك الأثناء، كانت السيّارة تدلف إلى روكاكولومبا.

39. إلفيرا تسلّم كُتُب دانونسيو إلى الرئيس فاتا

خرجت إليفيرا مع زوجها في صباح يوم الاثنَيْن على غير العادة. كان من عادتها البقاء بعض الوقت في المنزل بعد وداع زوجها الذي كان يخرج كلّ صباح في تمام الثامنة وخمس وعشرين دقيقة. كانت تجلس إلى منضدة الزينة البيضاوية، وتعيد وضع طلاء الشفاه الذي أفسدتْهُ قبلة زوجها الأخيرة. عدّلت خُصلات الغُرّة فوق جبينها، ووضعت قطرة من العطر الفرنسي خلف أُذُنَيْها، وكانت تُخفيها عادة عن زوجها الغيور. كانت تحبّ عملها وتحلم أن تصبح صاحبة مكتبة. كانت إلفيرا تشعر بضعف وإعجاب نحو الكهول المثقّفين مثل أساتذة مدرسة جاليلي الثانوية في روكاكولومبا والرئيس فاتا، القارئ النَّهِم. في ذلك الصباح، خرجت مبكّرة، فقد كانت متأكّدة أنها ستجده في انتظارها عند باب المكتبة لاستلام الكُتُب التي تركها المحامي الفاليبي. كانت إلفيرا آخر مَن ترك المكتبة ليلة السبت:

البقاء وحدها لتغليف كُتُب دانونسيو كان سيسمح لها بتصفّحها. كانت لحظات مهيبة في ظلّ ضوء الناحية الخلفية من المكتبة: أمسكت كلّ مرّة بمجلّد واحد، وكانت تتأمّل التغليف الناصع من السختيان الأنيق وتلمسه، ثمَّ تقلّب صفحاته. في الكُتُب القديمة يمكن العثور على كلّ شيء: زهور مجفّفة، قصاصات ورق، علامات الصفحات، وأحياناً أموال. وكانت تقرأ بعض العبارات، ثمَّ تهزّ الكتاب أمامها وقد مدّت ذراعَيْها وأحنت ظَهْرها كي لايصيبها الغبار المتراكم. وبعد إزالة الغبار عن الكتاب بقطعة قماش نظيفة، كانت تُعيده بحنو إلى الصندوق. لو كانت منولارا حصيفة كما يقولون لمسحت الغبار عن الكُتُب في الربيع، مرّة في كلّ عام على الأقلّ، كما ينبغي. فهذه الكُتُب التي جُلّدت بعناية، وكُتُب فوق غلافها بخطّ واسع منتظم اسم أوراتسيو الفاليبي كانت تستحقّ الاعتناء والمحافظة. ولكن التجليد الأنيق الذي أراده المحامي أتلفتْهُ بقع الغبار وفضلات الحشرات، وكأن أحداً لم يلمسها منذ سنوات، باستثناء مجلّد واحد يحمل عنوان "المطر في غابة الصنوبر، مجموعة شِعْرية". أمسكت إلفيرا بالمجلّد، ووجدت أنه ليس كتاباً، وإنما حاوية دون قفل. فتحتْهُ، ووجدت، فضلاً عن الكتاب، مظروفاً بنّيّاً ممتلئاً منتفخاً ومغلقاً، كان يبدو عند لمسه معبّأ بالاوراق أو ربمّا بصور فوتوغرافية. ربّتت على المغلّف وقد استولى عليها حنين وضعف مفاجئ. فكانت تلحُّ عليها الرغبة في فتحه. ثمَّ سمعت طرقاً على الباب الخلفي: لا بدّ أنه جاسبري وقد شعر بالقلق عندما لم يجدها في المنزل. صاحت إلفيرا: "انتظرْ دقيقة"، ووضعت الكتاب بسرعة في الصندوق. وفي آخر لحظة أدركت سقوط مظروف يحمل اسم الرئيس فاتا على الأرض، التقطتْهُ ووضعتْهُ داخل أوّل كتاب، وأسرعت لفتح الباب.

صدق حدس إلفيرا، ففي صباح يوم الاثنَيْن كان الرئيس فاتا ينتظرها أمام المكتبة ممسِكاً بحقيبة من القماش.

40. وفي هــذه الأثنــاء، كان يتــمّ تنفيــذ رغبــات منــولارا الأخــيرة في كاتانيــا، وفي زيوريــخ، وفي باليرمــو.

في الوقت نفسه، كان الدكتور بالميري قد بعث ببرقية إلى بنك في زيوريخ، حسب طلب "مينولارا". غريب هذا الطلب، ولكنْ، ينبغي الوفاء به: في نهاية الأمر كان "السيّد منولارا" قد أهدى المتحف بعض العملات السيراكوزية التي كانت في حُكم القِطَع المفقودة من مجموعة المتحف، بل وتنازل عن بعض قِطَع الآثار القديمة إلى المدير وإلى الدكتور بالميري نفسه: "تمّ تسليم الشهادة. وتمّ سحب المزهريات يوم الثلاثاء، الساعة 10.30" كان هذا ما كتبه في البرقية.

تلقّى الدكتور ستوتز، الموظّف في مصرف زيوريخ، البرقية في صباح اليوم نفسه. وعلى الفور نزع من درج بطاقات "الاستثمارات الخارجية المتميّزة" الملفّ الذي كُتبت عليه عبارة "تَرِكَة منولارا". كان يحتوي على وصية ماريا روزاليا إينتسريللو وخمسة مغلّفات كبيرة، أربعة منها ما تزال مغلقة، ومكتوب عليها على التوالي:

(أ) النصّ الكامل للنعي الذي نُشر في اليوم التالي للوفاة.

(ب) النصّ المعدّل للنعي المنشور في غضون يومَيْن بعد الوفاة.

(ج) النصّ الكامل للنعي المنشور في غضون أربعة أيّام من الوفاة، بعد الجنازة.

(د) النصّ الكامل أو المعدّل للنعي المنشور بعد أربعة أيّام من الوفاة.

(هـ) لم يُنشر أيّ نعي.

تناول الدكتور ستوتز المغلّف (ج)، وهو الوحيد الذي كان مفتوحاً. كان المغلّف يتضمّن صفحة الوَفَيَات في طبعة الخميس 26 سبتمبر 1963 من

صحيفة "جورنال دي سيشليا"، الذي نشر نعي ماريا روزاليا إينتسريللو. وقد تمّ التخطيط تحت الأحرف الأولى من عبارة "تعلن أسرة الفاليبي عن مصابها الأليم وخسارتها الفادحة" وأُعيدت كتابتهم على الهامش: "إلى الفاليبي".

أخذ الدكتور ستوتز الصفحة، واحتفظ بها في يده، شرد ذهنه نحو العميلة التي كان يتواصل معها طيلة عقود من السنين من خلال إعلانات الوَفَيَات الزائفة، وهو نظام بسيط وآمن. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يستخدمها لمتابعة تصرّفات وَرَثَتِهَا المحتملين ومعرفة ما إذا كانوا جديرين بالميراث، باستخدام نظام عبقري اخترعه الدكتور ستوتز بكلّ دقّة مع العميلة خلال اجتماعهما السنوي المعتاد في أغسطس في كاتانيا. لو كان هؤلاء السادة من عائلة الفاليبي، الذين لا يعرفهم، قد نشروا النعي فوراً، وعلى النحو المنصوص عليه في المغلّف، لكانوا وفّروا كثيراً من الجهد، ولحصلوا فوراً على تَرِكَة المتوفّاة.

ولكنْ، على الدكتور ستوتز ومعاونيه الآن أن ينفّذوا بدقّة، وبالتفصيل، التدابير المتّفق عليها مع العميلة. تحقّق من الوثائق مرّة أخرى، ثمَّ اتّصل هاتفياً بمندوبه في باليرمو، وكان محامياً من الثقاة. وكان لدى ذلك المحامي نسخة طبق الأصل من المغلّف (ج). فتحَهُ وأخرجَ منه مظروفاً أصغر، أصفر اللون، كُتب عليه: "رسالة يتمّ تسليمها باليد إلى وَرَثَة الفاليبي عندما يُصدِر المتحف الشهادة". فتحَها بحذر تجنّباً لإتلاف محتواها. كانت بداخلها ورقة بيضاء. كانت رسالة مكتوبة بخطّ اليد بحروف كبيرة على طريقة أولئك الذين لا يعرفون الكتابة بطريقة أخرى. أضاف المحامي التاريخ عليها، ووضعها في مظروف موجّه مُسبَّقاً إلى عائلة الفاليبي. أعطى الرسالة بعد ذلك إلى معاون له موثوق به، وكلّفه بالذهاب إلى روكاكولومبا، وتسليمها شخصياً إلى منزل الفاليبي في صباح اليوم التالي.

41. يحضر دون باولينو أنونسياتا وصول المزهريات إلى بيت الفالييي دون أن يفهم

عند ظهر اليوم هاتفتْ ليللا أختها. توقّفوا في استراحة عند منتصف الطريق، كان من المفترَض أن يصلوا في الساعة الواحدة، ليجدوا ماسيمو أمام المرأب لتفريغ المزهريات من السيّارة بعيداً عن عيون المتطفّلين. أوصتْها بأن تجد طريقة لإبعاد سانتا عن البيت في ذلك الوقت.

كان دون باولينو أنونسياتا، كما سبق القول، يعيش في غرفتَيْن متاخمتَيْن للمرأب في قصر الفالييي، كانتا ذات يوم مقرّاً لإقامة الحوذي. كان يوماً بارداً من أواخر شهر سبتمبر، وقد اشتدّت حدّة الآلام الروماتيزمية في ركبتَي دون باولينو. كان يجلس على الأريكة القديمة وقد غطّى ساقَيْه ببطّانية. كان إناء الحساء يغلي وتتقافز منه الفقاعات بمرح ملأ الغرفة بالبخار الساخن اللذيذ الذي يفوح برائحة الكرنب الطازج والبطاطس والطماطم. حفّزت هذه الروائح شهية دون باولينو، فقدّر أن دونا ميما سوف تعدّ المائدة للغداء في غضون نصف ساعة.

أزعجتْهُ جلبة شديدة بجوار باب القصر. نادى زوجته، وراحا يُنصِتان، وكان صوت ماسيمو ليوني: ربمّا كان يحاول فتح باب المرأب، والذي عهده دون باولينو عسير الفتح دائماً. دفعه الإحساس القديم بالواجب إلى نزع البطّانية والنهوض عن المَقعَد بسرعة، وهو يلعن في سرّه الشيخوخة التي هدّت قواه إلى هذه الدرجة، ثمَّ خرج إلى الشارع ليرى ما يحدُث ويقدّم يد العون.

كان ماسيمو يبذل كلّ ما بوسعه حتّى يفتح الباب المستعصي، فيشدّ المقبض، ويركل الأبواب، ويلكم الأقفال، ويدير المفتاح الحديدي يميناً ويساراً، ويُدخِله بقوّة كأنه مفكّ، ويعالج الألواح الخشبية التي وُضعَت لتقوية الجزء السفلي. باختصار، بدا كأنه ضالّ ملعون. تظاهر بأنه لا يعرف

دون باولينو، ورفض عرضه بالمساعدة. لقّنه دون باولينو الذي لم يتراجع طريقة معالجة الأقفال، ولكن نصائحه لم تكن موضع ترحيب. بل إنه طلب إليه أن يعود أدراجه إلى بيته، ليتناول الحساء ويهتمّ بشؤونه، ولا يتدخّل في شؤون غيره.

فيما بعد حكى دون باولينو لصهره دون فيتو ميليتيللو، في بوّابة قصر تشيفيليا: "أحسستُ بواجب مراقبة ما يحدُث في مرأب عائلة الفاليبي، بدافع واجب احترام ذكرى المحامي أوراتسيو، بعد أن انفتح الباب على إثر عدّة ضربات أخرى. وخصوصاً بعد أن عاملني ذلك الرجل معاملة فظّة". وهكذا تخفّى الفضول المتطفّل لدون باولينو أنونسياتا في زِيِّ إخلاص موظّف قديم، لتبرير سلوكه، في ظهيرة ذلك اليوم المشؤوم.

كان الوئام يسود بيت أنونسياتا، لأن الزوج والزوجة أصبحا يفكّران بالطريقة نفسها. بعد سنوات عديدة من الزواج لم يكونا بحاجة للكلام، فهما متفاهمان حتّى دون النظر في الوجه. فما إن أخبر دون باولينو السيّدة ميما بسلوك ماسيمو ليوني العدواني حتّى شرع الزوجان في العمل دون اتّفاق صريح. تناولت السيّدة ميما سلّة خيوط الرفا، وأطفأت النار تحت الإناء، وأخبرت زوجها أنها سوف تظلّ جالسة عند باب البيت تخيط حتّى آخر الليل لو لزم الأمر، وسوف تراقب كلّ سيّارة تمرّ من أمام البيت. فَقَدَ باولينو الأمل في تناول صحن من الحساء الساخن في تلك الظهيرة، فهذه المرأة لن تتحرّك من مكانها أبداً.

شرع دون باولينو من فوره في الحركة في الاتّجاهات جميعها. نقل المقاعد من أماكنها بعيداً عن الجدار الملاصق للمرأب، ونزع لوحة "عذراء سيراكوزا" الشهيرة بـ "عذراء الدموع"، والتي ينزف قلبها الكبير بقطرات ضخمة من الدماء، ثمَّ مرّر يده بلطف على ملاط الجدار،حيث كانت اللوحة معلّقة لتوّها.

وكان هناك، في الجدار، ثقب صغير به عدسة: عين سِحْرية بدائية صغيرة، يتجسّس من خلالها على ما يدور داخل المرأب. وكان هذا النظام قد اخترعه الحوذي السابق، لكي يراقب العربات والجياد والصبي الذي ينام في الزريبة، قبل أن تتحوّل إلى مرأب لسيّارة السيّد. أبقى عليه دون باولينو مفتوحاً وشغّالاً، باعتباره نظام أمان ضدّ السرقة، رغم أن السرقات في روكوكولمبا لم تكن كثيرة، ولكنْ، مَن يدري متى يصل اللصوص؟! وكان عند سماعه لأيّ صوت في المرأب يتأهّب فوراً لمراقبة ما يحدُث. وبالطبع لم يرَ من اللصوص طوال هذه المدّة أحداً، ولكنه، قبل سنوات كان يحضر من خلالها مع زوجته بعض اللقاءات التي كانت تقشعرّ لها الأبدان بين المحامي جاني والطبّاخة بينا فاسيللو: كان كلاهما قد جاوز الأربعين، ولكنهما كانا في منتهى القوّة، حتّى إنهما أفسدا غطاء السيّارة الذي كانا يتدافعان فوقه . لم يحكِ باولينو لزوجته عن وجود عدسة سرّية أخرى في العلية، كانت تمكّنه، بفضل تِقْنيَّة المرايا المائلة، من مشاهدة ما يجري فوق أريكة حجرة المكتب دون أن يشعر به أحد. وقد أراد جَدّ المحامي أوراتسيو وَضْعها للترفيه عن أصدقائه عندما كان يدعو بنات الهوى ومغنّيات الفِرَق المسرحية في أثناء تجوّلهم في صقلية . كانت هذه العدسة له وحده، وقد شاهد منها أشياء وأشياء.

والآن يتساءل دون باولينو ماذا عساه يشاهد في المرأب، فيما كان يعدّ كلّ ما يلزم للاستقرار في مكانه ومشاهدة كلّ ما يجري مهما طال الوقت؟ أعدّ لنفسه مَقعَداً مريحاً رافعاً قاعدته بالوسائد والأغطية، ووضع إلى جواره صندوقاً خشبياً كمسند للقدمَيْن، وملأ كأساً من الماء البارد، ووضعها إلى جوار المَقعَد ومعها رغيف من الخبز وبعض الجبن، حتّى إذا جاع أكل وشرب، ثمَّ اتّخذ موضعه، والعين اليمنى ملتصقة بثقب الباب، وأنفه يكاد ينسحق في جصّ الجدار المتصدّع، والعصا في متناول يده.

ظلّ ماسيمو حبيس المرأب واقفاً بالقرب من كوّة الباب. كان كلّما

سمع صوت سيّارة تمرّ بالشارع، الأمر الذي كان نادر الحدوث في ذلك الزقاق، يُطلّ من الكوّة برأسه، يتلفّت ذات اليمين مرّة وأخرى ذات اليسار، تحت بصر دونا ميما المتيقّظة، والتي كانت ترفي كمّيّة كبيرة من الملابس في السلّة دون أدنى تنويه إلى أنها تعتزم دخول البيت: ولهذا قرّر ماسيمو أن يكون أكثر حرصاً، وألّا يُخرِج رأسه من المرأب، وظلّ مستنداً إلى الباب مُرهِفاً السَّمْع. من داخل البيت حيث كان في وضع المراقبة، هنّأ دون باولينو نفسه على ذكاء زوجته. "أحسنتِ، يا ميما. أخافت ماسيمو ليوني بأربع خِرَق قديمة ترفيها".

اقترب هدير سيّارة جاني معلِنة وصولها. فتح ماسيمو الباب سريعاً، فدخلت السيّارة ببطء. تسلّلت السيّدة ميما إلى داخل البيت وهي تمسك الجورب والإبرة بيدها، لكي تعطي الإشارة المتّفق عليها إلى زوجها، رغم أنه لم يكن بحاجة إليها، لأنه كان متمترساً في موضع المراقبة وعينه ملتصقة بفتحة التجسّس.

أمّا الأحداث التي تلت ذلك، فقد رواها دون باولينو في المساء على مائدة العشاء مع صهرَيْه دون فيتو والسيّدة إنزا ميليتيللو: "ما إن دخلت السيّارة حتّى التصق ماسيمو ليوني بصندوق أمتعتها يحاول فتحه، فشّ المقبض، وأداره كأنما يحاول تحطيمه وهو يصرخ فيه "افتحْ افتحْ"، بينما كان البروفيسور جاني والسيّدة ليللا ينزلان من السيّارة هادئَيْن تماماً، كأنهما فعلا ذلك عن قصد لإثارة أعصابه. رمقه البروفيسور بنظرة مثل تلك التي كانت السيّدة ليللا الكبيرة - رحمها الله - تُطلقها، وقال له: "ليس هناك داع للعجلة، لن نفرّ بالكنز. فإذا واصلتَ التصرّف بهذه الطريقة سوف تصيبها وتحطّمها تحطيماً". أمّا هو، فقد بدأ يلعن وانتحى جانباً تاركاً لهما فسحة، لكي يفتحا صندوق الأمتعة والأبواب الخلفية.

وفي الوقت نفسه، نزلت السيّدة أدريانا والسيّدة كارميلا من الدَّرَج

الداخلي، الذي يؤدّي إلى مدخل المبنى بالقرب من مدخل المطبخ، وهما تسألان آلاف الأسئلة: ‹ماذا قالوا لكم؟ كلّ شيء سليم؟ هل كنتُما حذرَيْن في أثناء السفر؟›. وقال البروفيسور: ‹المظروف في جيبي، سوف نقرؤه في وقت لاحق›. فصمتوا جميعاً. انهمكوا جميعاً في العمل، وأحدَثُوا ضجّة كبيرة. وكانت هناك أربعة صناديق كبيرة محشوّة في صندوق أمتعة السيّارة، وأربعة أخرى في المَقعَد الخلفي، مختفية تحت بعض الأغطية. حملها الرجلان، واحداً تلو الآخر، ونقلوها إلى المنزل. كانوا يتعاملون معها بمنتهى الحرص. كانت تبدو لي ثقيلة، من خلال تعبيرات التجهّم على وجوه مَن كان يهمّ بحملها. وباختصار، يبدو أن كنوزاً كانت داخل تلك الصناديق.

قالت السيّدة ليللا إنها سوف تصعد لتفتحها بحرص، وبقيت السيّدتان الأُخريان في المرأب تراقبان. وفي لحظة معيّنة صاحت السيّدة أدريانا بسعادة: ‹منو تفكّر فينا دائماً، والآن سوف تُكافَؤون!›. عندها ردّت ابنتها ‹اسكتي، يا أمّي، فلم نقرأ التقييم بعد. لنصعد إلى المكتب›. ولكن أحداً لم يتحرّك. كان لا يزال هناك صندوقان لم يتمّ نقلهما. وبينما كان البروفيسور يقترب من صندوق أمتعة السيّارة اعترضتْهُ أخته كارميلا وزوجها دون إشارة اتّفاق فيما بينهما، وقفا أمامه ناصبَيْن له فخّاً حقيقياً. قال له ماسيمو ليوني: ‹افتحِ المظروف، الآن، قلتُ لكَ›. كان يعرق بغزارة ويهدّد، وكان مخيفاً. أمّا زوجته، فوقفت مستقيمة إلى جواره كأنها جندي يحرسه. وبدأت السيّدة أدريانا تصرخ: ‹لا تتشاجروا، لا تتشاجروا، فسوف تتحطّم. سوف تتحطّم›، قالت ذلك وغطّت وجهها بيدَيْها. غضب البروفيسور بشدّة، فلم يعر صهره نظرة، وأمر أخته أن تقول لزوجها ألّا يعترض طريقه، فهذه شؤون تخصّ عائلة الفاليبي، وإنه لا يعجبه هذا الموقف، وراح يُبعِده عن طريقه. دفعه ماسيمو ليوني وهو يصرخ فيه: ‹اقرأهُ، أيُّها البائس!› ربّما يخيفني ذلك الوحش! صمت البروفيسور وانتفض وتناول من جيوب بنطاله مظروفاً وفتحه وأخرج منه ورقة، قرأها وحده. ثمَّ قال: ‹إنها مقلّدة›.

كان شاحباً، فازداد شحوباً، ثمَّ حانت نهاية العالم. بدأت السيّدة كارميلا تكيل السباب والشتائم ضدّ منولارا. لكنْ، ما ذَنْبها هذه الفقيرة المسكينة؟ ‹لصّة، غشّاشة، جاهلة ...› لقد اتّهمتهْا بالموبقات كلّها، وقد جُنّ جنونها. بينما ظلّ الباقون ينظرون إليها صامتين صمت التماثيل. وباختصار، كان المشهد كأنه سينما". "ولكنْ، ألم تحسّ بالتعب وأنتَ واقف هناك تنظر من ذلك الثقب؟" سألت السيّدة إنزا زوج أختها. ردّت أختها: "كان يريد أن يرى كلّ شيء. لم يكن هناك أيّ أمل في إبعاده عن الجدار .. أنا أيضاً كنتُ أريد أن أتفرّج على المرأب، ولكنه لم يترك لي هذه الفرصة، فاستمتع بكلّ شيء وحده. حتّى ألم العظام لم يكن يحسّ به". وقال دون باولينو: "انتظرْ، فالحلو لم يأتِ بعد". "أخذ ماسيمو ليوني الورقة من يده وقرأها، ثمَّ رفع عينَيْه وجال بنظره في المرأب، وكان كأنما تلبّستهُ روح شرّيرة. اتّسعت عيناه حتّى بدتا مثل عينَي الأخطبوط، وجحظتا كأنهما تريدان أن تخرجا من مقلتَيْهما. ودون أن ينبس بكلمة راح يكيل اللكمات لرأسه، بقوّة جعلتْني أسمع صوتها، وواصل على هذا الحال بصمت. كان الآخرون يطلبون منه أن يتوقّف، ولكنْ، لا أحد منهم كانت لديه الشجاعة للاقتراب من ذلك الشيطان، الذي راح الآن يسبّ منولارا، مواصِلاً لَكْمَ نفسه. في البداية في الرأس، ثمَّ في العنق وإلى أسفل الصدر. عند نقطة معيّنة صاحت السيّدة أدريانا: ‹توقّف، أنتَ تؤذي نفسكَ!›. نَظَرَ إليها وأجابها: ‹لا يمكنني أن أنهال على زوجتي بالعصا، فهي سبب ويلاتي كلّها، ولكنني أستطيع أن أفعل بنفسي ما أشاء›. وتابع لَكْمَهُ لنفسه كمجنون. بدأت النساء يصحنَ ضدّ منولارا، واقترب البروفيسور من أمّه، صامتاً. وأستطيع أن أقول إنه كان خائفاً أن يشتبك مع صهره في شجار، فالتزم الصمت. في تلك الأثناء كانت السيّدة ليللا قد هبطت بعد أن سمعت هذه الجلبة وشاركتْهم هي الأخرى في توجيه اللعنات للمسكينة منولارا، وكأنها نهاية العالم. ثمَّ أخذت هي وأخوها الصناديق المتبقّية، وانصرف

باقي أعضاء عائلة الفاليبي، وظلّ ماسيمو ليوني وحيداً في المرأب يضرب نفسه، وقد انتفخ كلّه متورّماً. في النهاية أعطى ركلة إلى سيّارة صهره، وصعد إلى المنزل بخطوات واسعة. مَن يدري ماذا حَدَثَ فوق ...؟!"

سألت السيّدة إنزا:

"وبعد ذلك؟"

ردّت الأخت: "وكيف لنا أن نعرف؟ حسب الأصوات، كانوا يتقاتلون فيما بينهم. وسمعنا أصوات أشياء تتحطّم، ولكنْ، لم نفهم جيّداً. لقد بقينا في بيتنا، وكانت الأصوات تأتينا من الجانب الآخر للقصر. كان الخروج يبدو لنا صعباً. إذا كنتِ تريدين أن تعرفي ماذا حَدَثَ، فاسمعيه من الآخرين، فهذه القصّة لن تموت قبل أن تعرف بها البلد كلّها".

ثمَّ تابعا تناوُل الخضروات المسلوقة باستمتاع، فقد كانت أوّل وجبة ساخنة اليوم. "أتساءل ماذا يمكن أن يكون داخل هذه الصناديق ...؟! ترى، ما رأيكَ أنتَ، يا باولينو؟"، كانت السيّدة إنزا تريد أن تعرف المزيد. "الله وحده يعلم، ولماذا هذا الموقف الصعب مع منولارا المسكينة ..؟! لقد كانوا حتّى الأمس يتحدّثون عنها بالخير. لا بدّ أن أفكّر في هذا الأمر". غمس باولينو قطعة كبيرة من الخبز في مرق الخضار، ثمَّ التقطها في فمه، وبدأ يمضغها ببطء مُستطعِماً إيّاها بصمت.

42. بيترو فاتا يفحص كُتُب دانونسيو ويفهم أوراتسيو أكثر؛ ويفوّت الغداء مع زوجته

وضع بيترو فاتا الشنطة القماش فوق المكتب وتذكّر الأيّام السعيدة عندما كان يشتري مع أوراتسيو الكُتُب الجريئة.

وكانت منولارا، دون علمها بمحتواها، تتسلّمها بمنتهى الدقّة من مكتب

البريد، وتسلّمها لفاتا لتجنّب أسئلة أدريانا. أخرج بيترو الكُتُب متبّعاً طقسه المعتاد. كان يضعهم الواحد بجوار الآخر: يتحسّسها، يستطلع الفهرس، يقلّب صفحاتها، ويلاحظ الرسومات. يقرأ بعض الأسطر كما لو كان يربّت على حيوان يحاول أن يعرفه ويستأنسه. كانت كُتُب دانونسيو كلّها لها الحجم نفسه، ما عدا كتاب "المطر في غابة الصنوبر"، فقد كان أضخمها. كانت حاوية المجلّد من الخستان الأبيض . فضلاً عن كتاب المجموعة الشِّعْرية كان هناك مظروف أصفر مغلق بالشمع الأحمر. فكّر الرئيس فاتا: "من المؤكّد أن المجموعة كلّفتْهُ كثيراً"، متذكّراً سخاء صديقه أوراتسيو. أمسك بالمظروف، بدا أنه يحوي أوراق متفرّقة ربمّا كانت صوراً لنساء ... كان يرتعش، ثمَّ فتح المظروف بحزم. كان يحوي أجزاء من صور بالأبيض والأسود - مربّعة ومستطيلة ومثلّثة - كأنها مجموعة كبيرة من لعبة تركيب الصور. صور غير محدّدة وغريبة، من المؤكّد أن أوراتسيو التقطها مستخدِماً آلة التصوير "لايكا". موضوع الصور هو الجسد العاري . كلّ صورة قد تعبّر عن أصبع أو وجنة أو حَلَمَة أُذُن أو ثدي أو باطن ذراع أو جزء من الكتف أو من مؤخّرة. حاول بيترو إعادة ترتيبها، ووجد الأمر في غاية الصعوبة. فهي صور قد تمثّل أجزاء من ذراع أو يد أو أُذُن أو شَعْر، وأيضاً تحتمل تأويلاً آخر كمجموعة طحالب أو حزمة أعشاب طويلة غامقة اللون. كانت القِطَع مرقّمة في الخلف بأرقام كُتبت بالحبرالأخضر، ومع ذلك ورغم محاولاته وضعها مرتّبة إلّا أنها لم تُعطِ تفسيراً أو مشهداً محدّداً. كان بيترو يثق أن أوراتسيو لم يقصد السخرية منه. كان متأكّداً أن هذه الشذرات من الصور لها معنى ورسالة. غاص في مَقعَده، وغطّى عينَيْه بيدَيْه. كان يرى أوراتسيو أمامه يحكي له عن مغامراته العاطفية، والتي لم تكن أبداً فجّة: عندما كان يُشركه في المغامرة كما لو كان بيترو فاتا نفسه يتمدّد عارياً بجوار امرأة صديقه ويضاجعها بتأنٍّ، كما كان يحكي أوراتسيو، يبدأ بالشفاه والقبلات والمداعبات التي تنتقل من جزء لآخر، ثمَّ يلمس بشرتها

برقّة، ويركّز على مناطق معيّنة، ثمَّ تصبح أكثر عنفاً وعمقاً حتّى تصل إلى النقطة المناسبة، ثمَّ يرتفع صوت أوراتسيو: "أحبّ تصوير العشيقة نائمة قبل وبعد الحبّ. من خلال هذه الصور تستشفّ الحبّ الحقيقي إن وُجد ... ليس هناك ما يُشعل المتعة والرغبة مثل ذلك ...". شعر بيترو بالاسترخاء شيئاً فشيئاً، وأحسّ بالألفة مع قصاصات أوراتسيو وما كان يودّ أن يُخبره به. وكالعادة كان يتخيّل.

طرقت لوتيشيا الباب لتُخبرَه بأن الغداء جاهز. انتزع بيترو نفسه من دهشته، وشعر بالرطوبة تسري في أوصاله. صاح قائلاً دون أن يغادر المَقعَد: "أخبِرِي زوجتي أني للأسف لن أتناول الغداء، لأن هناك أمراً يجب أن أنتهي منه". كانت المرّة الأولى التي لا يتناول فيها الغداء مع زوجته رغم وجوده بالمنزل. ظلّ وحده محرجاً يتساءل لماذا أهدى أوراتسيو له هذه الكُتُب كلّها لدانونسيو مع علْمه أنه لا يحبّه؟!

43. عائلة ماسكولو تتناول المكرونة متعجّنة

لم يتذمّر أحد من عائلة ماسكولو لتناوُله المكرونة متعجّنة، وكذلك تناول الصنف الثاني بارداً، في ذلك اليوم الثلاثين من شهر سبتمبر.

كان المهندس الزراعي أنجيلو ماسكولو، وهو الابن الروحي للمرحوم المحامي الفاليبي، الذي ساعده في شراء منزل بجوار قصره، أمام شرفة حجرة المكتب. وكانت عائلة ماسكولو كلّها تشعر بالعرفان والامتنان لعائلة الفاليبي، لم تشارك في أحاديث النميمة الأخيرة، وكانوا لايهتمّون إلّا بشؤونهم، آباء وأبناء وأحفاداً صغاراً.

ولكنْ، في ذلك اليوم لم يستطيعوا التملّص من معرفة شؤون الآخرين.

ظلّوا جميعاً واقفين على أقدامهم خلف الستائر الخفيفة لنوافذ

حجرة الطعام يشاهدون ويسمعون المعارك الضارية التي نشبت في بيت الفاليبي.

كانت ليللا قد ذهبت مباشرة إلى حجرة المكتب، وفتحت النوافذ لتهوية الغرفة، ولدخول الضوء.

عندما أزالوا التحف من فوق البيانو، ووضعوا فوقه المزهريات، أصبح المكان المناسب لرؤيتها وتأمّل منظرها. كانت تستشعر متعة فتح الصناديق، واحداً تلو الآخر، كانت واثقة من قدرتها على إقناع الآخرين بتركهم لها: يجب أن تصبر ولا تتعجّل.

فتحت صندوقَيْن. كانا يحويان جرَّتَيْن بديعتَيْن، لونهما أسود لامع. كانت الأشكال الحمراء مرسومة بالتفصيل، وفي غاية الأناقة، وأوراق الشجر التي كانت تزيّن حواشيها رقيقة وتامّة. فتحت صندوقَيْن آخرَيْن، وتعجّبت أكثر، وجدت جرَّتَيْن مطابقتَيْن لجرَّتَيِ الصندوق الأوّل. الأمر بالتأكيد يتعلّق بمجموعة مهمّة جدّاً. شدّت الستارة الدانتيل.

عندما سمعت جلبة غير واضحة صادرة من السُّلَّم الداخلي، فكّرت فوراً في أن الأمّ قد وقعت، أو ربمّا الأسوأ: أن يكون أحد الصناديق قد سَقَطَ من يد جاني أو ماسيمو، وانكسر ما به من فخّار. نزلتْ مسرعة. وصلتْ إلى المرأب، فهمتْ، وشعرتْ بالحَنَق الشديد من تصرّف ماسيمو الذي أراد الانصراف. أخذت صندوقاً، وحملتْهُ إلى الطابق العلوي. قلّدها جاني، وحمل الصندوق الآخر.

من العجيب أنهما كانا يحملان الصناديق بالحرص نفسه الذي كانا يحملان به الصناديق السابقة، على الرغم من معرفتهم بأن القِطَع مقلّدة. بيد أنهما وضعاها فوق المنضدة في الصالة، وليس في حجرة المكتب. لحقت بهما الأمّ وكارميلا. ارتمت كارميلا فوق الأريكة الكبيرة أمام المدفأة، تنتحب وتطلب العون، فماسيمو سيقتلها بسبب مزحة منولارا الأخيرة.

كانت الأمّ جالسة عند قدمَيْها، تمسّد جسدها بشرود، مردّدة أنها لا تفهم ماذا حَدَثَ. ربمّا قد أخطؤوا في المتحف أو أن أحدهم خَدَعَ منولارا.

ظلّ جاني وليللا واقفَيْنْ يقرآن الخطاب باشمئزاز، فالخطاب لا يؤكّد فقط أنها قِطَع مقلّدة، ولكنْ، يصرّح أيضاً ببيعها والسماح بخروجها من البلاد على هذا الأساس.

قال البروفيسور: "يا للسخرية! يصرّحون لنا بتصدير القِطَع المقلّدة!".

لم تردّ ليللا. كانت متكدّرة الوجه. سألها الأخ: "أين وجدتيهم؟" أشارت بحركة واهنة إلى الرفّ.

أردف: "مَن يدري إن كان هناك المزيد منها؟! فلنرَ". اقترب من الحائط الطويل المغطّى بالكُتُب.

نهضت كارميلا، ولحقت به.

"تلك المجنونة، كانت تبدّد أموالنا بعد وفاة بابا على شراء قِطَع مقلّدة .... لم تكن تفهم شيئاً، انظري، مَن يدري كم منها هنا؟! كانت تظنّ أنها تستثمر الأموال جيّداً إلّا أنها مقلّدة". كان جاني يتحدّث، وفي أثناء ذلك يفتح الأُدرَاج السفلية بالمكتبة دون أن يُغلقها، ويُخرج صناديق حاوية لقِطَع أخرى من الخزف، أشياء من الأنواع كلّها، قِطَع من رخام من "كالترجروني"، وأشياء أخرى كثيرة.

كارميلا وقد مسّها الجنون، كانت تفتح الأُدرَاج كلّها. أيضاً أُدرَاج الخزانة متعدّدة الأُدرَاج وأُدرَاج المناضد. كانت تقلّب الأوراق، الأشياء ملفوفة ومكوّمة فوق الرفوف والأرضية والمقاعد.

كانت ليللا واقفة تراقبها، ثمَّ انضمّت إلى حركات الأخت العبثية، كما لو كانت بحاجة إلى تنفيس الطاقة المنبعثة. هكذا وجدهما ماسيمو، أشبه

باثنتَيْن من آلهة الغضب. بعد تفريغ الرفوف السفلية، تركتا أبواب المكتبة مفتوحة على مصراعَيْها، فقد شنّت الشقيقتان هجوماً على المكتبة: أفرغتا محتويات الرفوف بإلقاء الكُتُب فوق الأرضية، ووجدتا رفوفاً أخرى سرّية تحوي الكثير من المزهريات الأخرى، بعضها شبيه بالمقلّدة، والأخرى مختلفة عنها، وآنية أخرى، وقِنّينات، ومصابيح زيتية، وصور، وبطاقات، وأطباق، وتحف. كانت كلّها مرتّبة بدقّة ومفهرسة. تنحّى جاني جانباً، ووقف بجوار أمّه. وكان ينظر إليهما ذاهلاً. ظلّ ماسيمو أيضاً واقفاً يراقبهما. تعرّف على المزهريات المقلّدة، كانت فوق البيانو، في غاية الجمال. تعجّب قائلاً: "تلك النفايات هي المزهريات التي كانت العاهرة تعتبرها ثروة لها ولعائلة الفاليبي. يا لكم من حمقى! ويا لها من فاجرة قحبة! خدعتْها جماعة من المزيّفين، وضيّعت أموالنا. تستغفلونني منذ عشر سنوات. تظنّون أنكم أفضل من الآخرين، وأنتم لستُم إلّا مجموعة من المخبولين. ما الذي دفعني لمصاهرة تلك العائلة البلهاء؟! تستحقّون أن تعرف صقلية كلّها مدى حماقتكم .... نشرتُم النعي بالجريدة، وأنا أحمق مثلكم لأنني أطعتُكم". التقط إحدى التماثيل البرونزية الصغيرة من فوق المنضدة الصغيرة بجانبه، وألقى به فوق الأرض، ثمَّ أسقط منفضتَي سجائر، ومزهرية صغيرة، وظلّ واقفا منهَكاً، ودَهِشاً من جرأته.

كان ردّ الفعل على تصرّفه مبالغاً، وما برح يثير دهشة أهالي البلدة الذين أمدّتْهم عائلة ماسكولو، بعد أن تخلّت عن تحفّظها، برواية مفصّلة عمّا حَدَثَ.

عندما سمعت ليللا، والتي انهمكت بالبحث في أحد الأُدرَاج، الضجّة التي أثارها سقوط التمثال، نهضت بسرعة كبيرة، انقضّت على البيانو، أمسكت بإحدى المزهريات، وأسقطتْها أمامها بعيداً عن قدمَيْها. تحطّمت المزهرية. أمسكت بأخرى، وألقت بها فوق الأولى. قلّدتْها كارميلا، وانضمّ جاني أيضاً إلى هَوَس التخريب للتنفيس.

كان صخب تكسير القِطَع الفخّارية يختلط بالشتائم التي انهال بها ماسيمو عليهم جميعاً، وخاصّة على منولارا. أخذوا جميعاً بالصراخ والسباب ضدّها في جحيم مستعر من الجلبة. وكإحدى الأرينيات، ارتقت ليللا سُلَّم المكتبة، وأخذت تنزع كُتُب الأدب القديمة، وترميها بعنف، فكانت الكُتُب تقع متهالكة الأوراق، وقد دُمّرت أغلفتها بالكامل. فتحت أيضاً رفوفاً سرّية أخرى من المكتبة مليئة بالمزهريات التي تحطّمت إلى الآف القِطَع الصغيرة.

اقترب منها جاني. ناولتْهُ مزهرية شبيهة بتلك المزهريات فوق البيانو، وقالت: "ها هي الخبيرة والمحبّة للفنون .. انظرْ إلى هذه، ليست إلّا نسخة أخرى مقلّدة، نسخة من المزهريات التي حملناها إلى المتحف".

أمسك بها جاني وغمغم: "كانت منو تكرهنا جدّاً، جدّاً. هذا يشرح كلّ شيء ..." كانت عيناه تفيضان بالدموع. كتم نحيبه الذي كان يبلّل حلقه، وترك المزهرية تقع على الأرض. أخذ بعد ذلك يبكي دون تحفّظ، واقفاً بجانب السُّلَّم. كان يأخذ كلّ ما تُناوله ليللا ويكسره، وقد أحاطت به مقتنيات أبيه التي تحوّلت إلى شظايا.

جعلهم صراخ كارميلا يلتفتون إليها. كان ماسيمو يُطبق بيده حول عنقها ويهزّها كما لوكانت دمية، صارخاً فيها بأنواع السباب كلّها. أسرع جاني لإنقاذ أخته، وتشابك الاثنان بالأيدي. أُصيب ماسيمو بالإصابة الأكبر، عضّة في ذراعه، بينما امتلأت ساقا وذراعا جاني بالبقع الزرقاء. وفي خضمّ ذلك الهرج، دقّ الأب أرينا جرس الباب.

44. الأب أرينا في ظهيرة مليئة بالزيارات

كان الأب أرينا قد اتّفق مع السيّدة الفاليبي أن يمرّ ببيتها ويتناول القهوة معها بعد الغداء، عندما يخلو البيت من الزيارات. وبذلك يمكنهما الثرثرة

وحدهما. وقد دقّ جرس قصر الفاليبي في تمام الساعة الثانية. وبعد انتظار طويل، فتحت ليللا الباب الصغير الموجود داخل إحدى درفتَي الباب الكبير. كانت تبدو مندهشة من الزيارة.

فتحت له مُهملَة الهندام، مُتربَة الثوب، شَعْرها أشعث، كانت مُتعَبَة ومُحبَطَة. لم تدعْهُ إلى الدخول من البوّابة، بل دفعتْهُ إلى الانصراف قائلة إن أمّها ترقد في الفراش، لأنها ليست على ما يرام. كان واضحاً أنها لم تكن ترحّب بزيارته. وكانت تتعجّل خروجه وإغلاق الباب في وجهه، لدرجة أن إحدى الرسائل التي كانت تمسك بها في يدها وقعت منها وانتهت فوق الرصيف.

تناول الأب أرينا الخطاب ودسّه في جيبه، آخذاً على نفسه عهداً بأن يُعيده في صباح اليوم التالي. واصل سيره وقد نزل بزقاق جوتسي الممتدّ بمحاذاة قصر الفاليبي. كان يفكّر أن لديه ساعتَيْن من الوقت، عليه أن يُشغلهما بأيّ شكل قبل الذهاب إلى بيت فاتا الدى ينتظره في الساعة الرابعة.

"الأب أرينا، ماذا تفعل سيادتكَ في الطريق في هذه الساعة؟ تفضّلْ، تفضّلْ لتناوُل القهوة معنا!" قبل القِسّيس بشعور من العرفان دعوة المهندس الزراعي أنجيلو ماسكولو، كان واثقاً أنه سيمضي وقتاً طيّباً مع أولئك الأشخاص الطيّبين الجادّين في عملهم والبسطاء. ولكن الأمور لم تمض كما تمنّى.

في أثناء تناوُل القهوة، كان القِسّيس يستمع لعائلة ماسكولو غير مصدّق في بادئ الأمر، ثمَّ حانقاً يائساً. فرواية عائلة ماسكولو لما شاهدوه وسمعوه جعلتْهُ يفقد الرغبة في تذوّق بسكويت اللوز الذي قدّمتْهُ له السيّدة. كان كلّ فرد من عائلة ماسكولو يحكي للأب أرينا ما رآه وسمعه. وشيئاً فشيئاً رسمت حكاياتهم لوحة مأساوية، قبيحة وغامضة. السيّدة أدريانا، كما أقرّ

الأربعة، كانت شاهداً صامتاً على تدمير مريب لحجرة مكتب الزوج في أثناء المشاجرة العائلية.

أطلّوا معاً من النافذة التي شاهدت من خلالها عائلة ماسكولو ما حَدَثَ للتحقّق من وصف المشهد داخل حجرة مكتب المحامي، ولكن النوافذ كانت مغلقة، ولم تكن هناك علامة للحياة داخل الحجرة، كما لو أن شيئاً لم يحدُث. أراد الأب أرينا أن ينصرف ويتنزّه وحده ليفكّر، ولكن ذلك لم يتسنّ له: فالسيّدة ماسكولو كانت بحاجة للحديث عمّا يجول بخاطرها والنصح حول كيفية التصرّف.

لاحظ الأب أرينا قلق المهندس الزراعي وزوجته. كانا لا يعرفان إن كان الأمر يستلزم إبلاغ صديق أو قريب لعائلة الفاليبي، شخص ثقة ولبق، أو حتّى الذهاب بأنفسهم للاطمئنان بأن السيّدة الفاليبي ليست بحاجة إلى مساعدة، أو الاتّصال بالطبيب ميندكو. وفي الغالب، فإن ابن المهندس وزوجته، على الرغم من حُسن أخلاقهما، إلّا أنهما لن يستطيعا مقاومة التحدّث عن الأحداث الغريبة التي شاهداها من النافذة.

كان يخشى جدّاً من انتشار أخبار ما حَدَثَ في بيت الفاليبي في البلدة كلّها قبل حلول الظلام. وفي محاولة يائسة لإنقاذ القليل المتبقّي من الثقة والاحترام لهذه العائلة في روكاكولمبا، أكّد الأب أرينا لعائلة ماسكولو أنه سيخبر الرئيس فاتا فوراً بما حَدَثَ، وأوصاهم بحفظ السرّ.

اصطحب أنجيلو ماسكولو القسّيس إلى باب الخروج. كان يريد التحدّث معه على انفراد، وقال: "أبتاه، أَودّ أن أخبر سيادتكَ ببعض الأشياء التي أعرفها أنا فقط، والتي شغلت تفكيري كثيراً. في السنوات الأخيرة من حياة المحامي أوراتسيو، كان يقضي وقتاً طويلاً في المنزل. وكان يقضي النهار في حجرة المكتب. كان بعض الأشخاص يصلون ليلاً بعربة تجرّها الخيول، كانوا أشخاصاً غير معروفين. كانوا يقفون أسفل القصر، وينتظرون،

ثمَّ تفتح منولارا النافذة، وتدلي حبلاً مربوطاً به سلّة، كما لو كانت تشتري متطلّبات المنزل. وكانت تصعد سلال ثقيلة مليئة بأشياء تغطّيها أجولة. أتساءل الآن عن محتوى تلك السلال .. أعتقد الآن أنها لا بدّ أن تكون أشياء مسروقة من المقابر أو من الحفائر الأثرية؛ تلك الأشياء التي حطّموها في هذه الظهيرة. ربمّا كان يجب أن أتحدّث في ذلك مع المحامي، لأُقنعه بألّا يقوم بشراء تلك الأشياء، فربمّا تعرّض الأبناء الآن للتهديد أو الابتزاز، وحطّموا كلّ شيء خوفاً".

طمأنه القِسّيس بأن المحامي أوراتسيو كان عنيداً، ولم يكن ليتبع نصائحه، لذا فقد أحسن صنعاً بعدم الحديث معه عن أيّ شيء.

أضاف ماسكولو: "حَدَثَ شيء آخر آنذاك. من المحرج الحديث عنه، وأسألكَ الغفران. لا يعلم أحد من أبنائي شيئاً عمّا سأحيكه، هم شباب طيّبون، ولكنْ، قد تفلت منهم كلمة، وأنا لا أريد أن ألحق أذى بعائلة الفاليبي. أقول ذلك لحضرتكَ فقط، يا أبت. أنا أعاني من الأرق، وكنتُ آتي إلى حجرة الطعام في أثناء الليل لقراءة الجريدة، كي لا أُوقِظَ زوجتي. وفي ليالي الصيف، كان المحامي يترك أباجور النوافذ مفتوحاً، وكنتُ أطلّ من الشرفة لأستمع إلى الموسيقى الجميلة التي كانت تصدر دائماً من حجرة مكتبه. كان لديه جراموفون رائع. أقسم لكَ أنني من خلال الستارة البيضاء لمحتُ جسد امرأة ترتدي ملابس قليلة. كانت معه فوق الأريكة أمام المدفأة، هل تفهم؟ لم أفهم كيف تسنّى لها الدخول إلى المنزل مع وجود السيّدة أدريانا؟! ومع ذلك فقد رأيتُها. كانت دائماً المرأة نفسها، ذات الشَّعْر الغامق الطويل. كانت جميلة، وكانت تأتي إليه حتّى السنوات الأخيرة من حياته. لم أكن أتصوّر أنه قادر على تصرّف مثل ذلك، ربمّا حتّى أبيه - رحمة الله عليه - لم يكن ليفعل ذلك ... صحيح أنه كان في شيخوخته أيضاً يذهب إلى بيت الدعارة دائماً، بيد أنه على الأقلّ لم يُحضرهنّ إلى المنزل".

جاءت إجابة الأب أرينا فورية وحاسمة: "عزيزي أنجيلو، لا يمكنكَ الجزم بذلك. قِسّيس فقط هو مَن يمكنه أن يعرف كلّ ضعف النفس وخطايا الجسد. أقول هذا لكَ أنتَ فقط، دون أن أخون سرّ الاعتراف: لا يُدهشني ما تحكيه لي عن المحامي أوراتسيو ... كما يقول المثَل: شجرة الكمّثرى لا تُثمر إلّا كمّثرى. ودخول هذا النوع من النساء داخل البيوت الخاصّة خفية في أثناء الليل والنهار من الأمور التي حَدَثَت كثيراً ... ولحسن الحظّ لم ينفضح أمرهم في البلدة. وما رأيتَهُ ليس مدهشاً أو غير عادي في بيت الفاليبي. هذا وغيره يعلمه القساوسة في أثناء الاعتراف. فليرحم الله المحامي جاني وابنه أوراتسيو. حسناً فعلتَ بأن صمتَّ. لوعلمت السيّدة أدريانا بذلك، لتألّمت كثيراً. فضلا عن منولارا، لو كانت حيّة، لاهتزّ كيانها. فقد كانت تحرص جدّاً على سمعة عائلة الفاليبي. سأتحدّث مع الرئيس فاتا عن ذلك دون ذِكْر أسماء، وحضرتكَ ينبغي أن تنسى أن الأرق قد أصابكَ يوماً ما".

كان الأب أرينا على وشك الانصراف، ولكن أنجيلو وارب مصراع الباب، وأضاف: "مسألة أخيرة، يا أبتِ. كان المحامي ومنولارا يعملان كثيراً معاً في حجرة المكتب ... فكانت منولار تجلس إلى المنضدة أمام النافذة، وتجمع قِطَع الفخّار القديمة التي كان يشتريها هو من بعض المحتالين من سارقي المقابر المزعومين .. أعرفهم، هم حقّاً محتالون. كانت تنظّف المزهريات بالكامل مستخدِمة فرشاة صغيرة، وكانت حريصة جدّاً على الفخّار القديم. بينما كان المحامي يستمع إلى موسيقاه ويخطّط في ورقة أمامه. وحَدَثَت مشادّة بينهما في إحدى الفترات عندما كانت منولارا لا تزال شابّة، وذلك بعد عودتها من زيارة لأختها المقيمة خارج صقلية ..".

استرعى الأمرُ انتباهَ الأب أرينا. وسأله: "متى؟ في أثناء حرب أفريقيا؟"

أجاب أنجيلو: "تقريباً. كانا يتشاجران. كانت منو جالسة إلى المنضدة

الصغيرة وبجانبها أباجور المكتب مضاء. كانت تحاول جمع قِطَع الفخّار. كان أوراتسيو يدور حولها ويحاول لمسها وهي تُبعد يده. في بعض الأحيان، كان الأمر ينتهي بمشاجرة بينهما، فيأخذ منها القِطَع، ويُلقيها على الأرض لتتحطّم .. وتستدير منولارا وتنظر إليه متنمّرة. لم تكن تفعل شيئاً، كانت تنظر إليه وجسدها يرتجف. ثمَّ يغلق هو الستائر بإهمال، تاركاً دائماً فتحة صغيرة، كما لوكان يعلم بتلصّصي. وكان يدفعها فوق الأريكة . لم أكن أرى شيئاً تقريباً، أو ربمّا القليل، ولكني كنتُ أفهم ما يحدُث. ثمَّ يخيّم الظلام بعد انصرافهما. بعد قليل تُضاء المصابيح، وتأتي هي لجمع القِطَع، وتحاول تنظيمها. كانت تبكي. وفي بعض الأحيان، كانت تنتحب". قال الأب أرينا: "أنجيلو يجب أن أنصرف. ما الذي يضايقكَ؟"

أجاب أنجيلو: "أخجل من ذِكْر ذلك، ولكني أخشى أن المحامي الفاليبي كان يسيء معاملة منولارا كما كان السادة يفعلون مع الخَدَم في العصور السالفة .. ربمّا كان يضربها مثلاً".

أجاب الأب: "أثق أنه لم يفعل ذلك".

قال أنجيلو: "ولكنها لم تبكِ أبداً في العَلَن. لم تبكِ حتّى في جنازة المحامي!"

"كانت تبكي لأمور تخصّها، وليس للمحامي أو الفاليبي دَخْل فيها". قالها الأب أرينا، ثمَّ أسرع بالانصراف، تاركاً أنجيلو ماسكولو حائراً، لا يدري إن كان قد أحسن صنعاً أم أخطأ عندما أبلغ القِسّيس بمخاوفه. وشعر بالخجل من أفكاره الشرّيرة. مسكينة منولارا، طلب منها المغفرة، لأنه اتّهمها بالخطيئة وارتكاب الآثام. كان القِسّيس محقّاً، فعائلة الفاليبي، الأب والابن، كانا يحبّان العاهرات. ومَن يدري؟ ربمّا وصل الأمر بالمحامي أوراتسيو إلى جعل منولارا تصطحب واحدة منهنّ إلى مكتبه.

عاد أنجيلو إلى بيته، وقال لزوجته:

"ماريا، سأُخبركِ بشيئَيْن، تذكّريهما: عائلة الفاليبي لن تقدّر أبداً التضحيات التي قامت بها تلك الخادمة المخلصة منولارا، والمرّ الذي تجرّعتْهُ من أجلهم. والأب أرينا يزداد حكمة مع السنين!".

في أثناء ذلك، كان الأب أرينا يسير على غير هُدى في طُرُقات البلدة، التي خلت تقريباً من الناس في تلك الساعة. كان متكدّراً، محبطاً. ضلّ الطريق مرّتَيْن وهو مَن يعرف روكاكولومبا كظَهْر يده. كان يحاول تذكّر ما حَدَثَ بين هذَيْن الاثنَيْن في أواخر الثلاثينيات، ثمَّ تذكّر. كانت منولارا قد ذهبت على عجل إلى أختها بحجّة أنها تحتاج عملية جراحية عاجلة، وفي الحقيقة كانت منولارا هي مَن خضعت للعملية الجراحية. عند عودتها كان أرواتسيو متعجّلاً وأهوجَ كعادته، وأمام رفضها له، كثّف علاقته مع زوجة رئيس البوليس لإهانتها، وكانت قصّتهما على لسان البلدة كلّها. وفي البيت كان يعاقبها بإجبارها على العناية بمقتنياته من القِطَع الأثرية المنهوبة والاعتناء بها وتنظيف المسروقات المشتراة من سارقي القبور.

شعر الأب أرينا بالتعب. كان ضوء الشمس الذي يغشي البصر يتعاقب مع ظلّ العمارات، ويصيبه بالدوخة. التقى فجأة الطبيب ميندكو، عائداً من زيارة طبّية طارئة، فدعاه إلى بيته. قبل الآب أرينا الدعوى، وتبعه مثل حمل صغير. سار وراءه بين سلالم البلدة بصمت وحزن وقنوط شديدين.

جلسا في صالون منزل ميندكو، وارتشفا معاً بعضاً من الخمر الخفيف. وشيئاً فشيئاً، استفاق القِسّيس، وتحدّث الرجلان طويلاً.

كان من السهل بالنسبة إلى القِسّيس التحدّث معه عن مخاوفه وهواجسه عن عائلة الفاليبي. كانا، بشكل أو بآخر، زميلَيْن؛ أحدهما يعالج النفوس والآخر الأجساد. وتقابلا مرّات عديدة بينما كان كلٌّ منهما مشغولاً بأداء واجبه عند رأس سرير أحد المحتضرين. كانا يعرفان أسرار البلدة كلّها، وإن لم يَبُح أيٌّ منهما بها للآخر. الآن وقد شعرا بالتشوّق والقلق لمعرفة

الحقيقة عن عائلة الفاليبي ومنولار، كانا يتحدّثان بسرعة وحُرِّيَّة، يتأمّلان القصّة التي تطوّرت أمام أعينهم في العتمة الآمنة في صالون بيت منيدكو. أعطى الطبيب تفسير لما رواه ماسكولو: "كانت منولارا تستلم التحف المسروقة من حفّاري المقابر تنفيذاً لأوامر أوراتسيو، جامع التحف النَّهِم. كان أوراتسيو ذا أهواء جامحة، لا يقف عند حدّ عندما يرغب في شيء. ربّما كان يستغلّ منولارا كوسيط في عملية شراء قِطَع أثرية. كثيرون يفعلون ذلك، خاصّة منذ أن بدأت هيئة الآثار بالحفر في منطقة كاسل. لا أعتقد أنه كان يملك الكثير منها أو أنها كانت ذات قيمة كبيرة، وإلّا لتباهى بها أمام الجميع، ولكني لا أفهم لماذا حطّمها الأبناء ... كان هناك العديد من الأشياء في مكتبه، وكان بعضها جميلاً. أمّا بالنسبة إلى النساء، فكان على عكس والده، لم يكن يُعجبه ذلك النوع من النساء. كانت المتزوّجات تُعجبنَه أكثر، لذلك لا أفهم مَن تستطيع الذهاب إلى بيته في الليل. سيادتكَ، ماذا تظنّ؟" أمام هذه الكلمات، كاد الأب أرينا أن يُصاب بالإعياء مرّة أخرى. ولاذ بالصمت.

الطبيب ميندكو، وقد نسي وجود القِسّيس، اتّجه بناظرَيْه ناحية الشرفة، تابع تطريز الستارة الكتّان التي كانت تطيّرها الرياح، ثمَّ غمغم بصوت منخفض: "إلّا إن كانت هذه المرأة هي ....".

أكمل الأب أرينا العبارة: "منولارا". كان هو أيضاً يهمس كما لو كان يتلو صلاة استغفار. "فعلاً"، قالها الطبيب ميندكو وقد ركّز نظره فوق زهور السرخس المزروعة أمام ستارة الشرفة، ثمَّ أضاف وهو يتحدّث بينه وبين نفسه: "منولارا، بعد سنوات كثيرة قد تُدهِشُني".

غمغم القِسّيس: "أمّا أنا، فلا تُدهِشني".

انتفض الطبيب ميندكو أمام هذه الكلمات. قوّم ظَهْره فوق المَقعَد، وأسند يدَيْه إلى ذراعَي المَقعَد، وحدّق إلى وجه الأب أرينا، كما لو أنه لم

يكن يتوقّع أن يجده أمامه قابعاً في المَقعَد بجواره. كرّر مسح جبهته التي تعرّقت، بالمنديل عدّة مرّات، فقد هزّت كلمات القِسّيس كيانه. يشعر الآن بأنه على وشك أن يفقد الوعي؛ يجتاحه إعصار من الأفكار المتشابكة التي تعصف بعقله.

سأله الأب أرينا وكان منزعجاً أيضاً:

"أيُّها الطبيب، هل هناك ما يَسوؤكَ؟"

قال الطبيب:

"لا، شكراً. كلّ ما في الأمر أني أصبحتُ عجوزاً، وأفهم بعض الأشياء ببطء. عقلي لم يعد يعمل كما في الماضي"، ثمَّ أضاف بنبرة جادّة، مشدّداً على مقاطع الكلمات: "منولارا لا تكفّ عن إثارة دهشتي".

رجع إلى النظر خارج الشرفة. كانت الستارة قد ارتفعت واستطاع الطبيب أن يرى ما وراء نباتات الشرفة والسور الحديدي المعشّق؛ مرتفعات البلدة والجبال. حدّق ببصره في السماء التي كادت أن يطغى عليها اللون الأبيض من شدّة وهج شمس الخريف.

تجرّأ الأب أرينا وقال متلعثماً:

"أخبرني، أيُّها الطبيب، فلتفعلْ وكأنكَ في جلسة اعتراف". كان أرينا يشعر أن أمامه نَفْساً تتعذّب مثله.

كان الطبيب يكرّر:

"لا، فالأمر شديد الصعوبة". ثمَّ عاد ونظر إلى القِسّيس ووجّه إليه سؤالاً:

"فلننسَ أمر المقدّسات ونتذكّر أننا بشر، أننا رجلان. إذا تحدّثتُ مع سيادتكَ عن افتراض ارتكاب جريمة، أو ربمّا جريمتَيْن، هل تحفظ السرّ؟"

كانت الإجابة جاهزة: "إن كان الأمر يتعلّق بمينولارا، فنعم، بكلّ تأكيد!".

وبصعوبة في البداية، عاد الطيب ميندكو للحديث. كفّ عن التعرّق وبدا هادئاً:

"حسنا، سيادتكَ تعلم أن أوراتسيو الفاليبي مثل منولارا، كان مريضاً بالسرطان. ولم يكن ليطول به العمر على أيّ حال. كان يخشى أن يتعذّب. لم أنجح في تخفيف الآلام المرض عنه، فالمورفين يُؤخَذ في حدود معيّنة. كان سيتعذّب طويلاً، وسيعاني من احتضار مؤلم، لو لم يمت كما مات في اعتقادي، مقتولاً.

ليس لديّ أدلّة. تشريح الجثّة فقط يمكنه أن يُثبت ذلك. وهو من الأمور التي أستبعدها". نظر مباشرة في عين القِسّيس، ثمَّ عاود الحديث: "يوم وفاة أوراتسيو، كانت منولارا في الريف، دليل إثبات تامّ. كانت تقوم بتمريضه، وقد تركت لها حقن مورفين وموادّ أخرى يمكنها أن تكون مميتة قاتلة إذا أخطأت الجرعة. كانت تعلم ذلك تماماً. الأمر يتعلّق بجريمة قتل، أو ما يُسمّى اليوم أيضاً بالقتل الرحيم". تناول رشفة ماء، ثمَّ أردف: "لم أفكّر وقتها في ذلك، صدّقني. كانت السيّدة الفاليبي مصابة بنوبة هيسترية، وكان ينبغي عليّ أن اعتنى بها. ثمَّ إني لم أتخيّل أبداً أن إخلاص منولارا لأوراتسيو قد يصل بها إلى قَتْله. خادمة مطيعة مخلصة لن تفعل ذلك. ولكنْ، امرأة محبّة، ويبادلها حبيبها حبّاً بحبّ، يمكنها أيضاً أن تقتل الرجل الذي تحبّه". أسند ظَهْره إلى المَقعَد وسأل:

"أب أرينا، هل تعتقد أن منولار قد أحبّت أوراتسيو الفاليبي؟"

أجاب الأب:

"لا أدري إن كنتَ حضرتكَ تشير إلى حبٍّ أم إلى علاقة جنسية في الشباب. دكتور، أنا حقّاً لا أدري.

في السنوات الأخيرة من حياة المحامي، كانت منولارا تمكث في البيت دائماً. كنّا نتقابل لمرّات قليلة جدّاً، وبالمصادفة". صمت الأب أرينا لفترة قليلة، حيث كان يمعن التفكير. ثمَّ استطرد متلعثماً: "ولكنْ، لو أحبّتْهُ، هل كانت تستطيع قتله دون إحساس بالذَّنْب أو الندم؟"

أضاف الطبيب ميندكو:

"لديّ سؤال آخر أودّ أن أوجّهه لكَ، يا أبتِ: وما رأيكَ إذا قلتَ لكَ إنها ماتت مسمومة بالحلوى التي أعدَّتْها بنفسها من اللوز المرّ؟".

"لا يُدهشني ذلك. لم تكن تريد أن تصبح حملاً ثقيلاً على السيّدة الفاليبي، وكانت تخشى من تدهور حالتها الصحّية فجأة. كانت قد قالت لي إنها كانت مستعدّة للموت، فقد أدّت واجبها نحو الموتى والأحياء. لم تكن مؤمنة. كنتُ أعلم ذلك".

أرخى الطبيب منديكو جفنَيْه موافِقاً، وأمسك بزجاجة الخمر وملأ الكأسَيْن مرّة أخرى. بقيا صامتَيْن، وكلٌّ منهما غارق في أفكاره، وشربا خمر الأمارنث. كانت الرياح قد هدأت، وكانا يتأمّلان حزمة الضوء التي كانت تغزو الحجرة من خلال فتحات الستارة المطرّزة، فتنشق عتمتها، وتنتهي بالسقوط فوق أرضية الحجرة. وقد أخذت حزمة الضوء حيّزاً أسطوانيّ الشكل، فكانت ذرّات الغبار تنبض وتتراقص فيه في حركة دائبة.

تسرّب إلى الطبيب ميندكو والأب أرينا ببطء إحساس بالراحة والاسترخاء والرغبة في النوم .

وعلى هذه الحالة، وجدتْهما شقيقة الطبيب، السيّدة دي بريما، التي كانت قد دخلت لتحية القِسّيس والثرثرة معه.

كانت الشائعات قد انتشرت بالبلدة عن المشاجرة العنيفة التي حَدَثَت بين الأخوة الفاليبي حول مسائل تتعلّق بأموال وميراث، وكان اللغز حول

مينولارا يزداد غموضاً. أُصيبت السيّدة دي بريما بدهشة حقيقية من ردّ فعل الرجلَيْن. قالا في وقت واحد وبشيء من المرح في نبرة صوتَيْهما، إنه لا يوجد ألغاز حول منولارا، رحمها الله. قالت السيّدة دي بريما بجفاء: "لا توجد ألغاز؟! وهل تنتظران مصرع أحدهم؟!" أجاب الطبيب: "مقتولاً، لا!"، غامزاً بعينه للقِسّيس. وعندما شعر الأب أرينا أنهما على وشك الشجار نهض منصرفاً، حيث كان قد تأخّر على موعده مع بيترو فاتا. اصطحبه الطبيب إلى الباب، واتّفقا على أن يتقابلا ليتحدّثا مرّة أخرى. قال له الطبيب بغمزة من عينه: "تذكّرْ، يا أبتِ، لا يوجد اثنان دون ثالث". كان بيترو فاتا قد نسي موعد الزيارة المحدّدة مع الأب أرينا، بسبب تلاحُق الأحداث والساعات الأخيرة العاصفة.

استقبلت السيّدة فاتا القِسّيس في حجرة الصالون الصغير، واعتذرت عن تأخّر الزوج، حيث إنه استقبل أحدهم في زيارة غير متوقّعة.

كانت مارجريتا فاتا قلقة متوتّرة. كانت قد تحدّثت لتوّها مع ابنة خالتها أدريانا، الحزينة بسبب الكارثة الأخيرة التي لحقت بأبنائها بعد سلسلة من المصائب التي لا تنتهي، وقد سقطت المكتبة في حجرة المكتب فوقهم. استمع إليها الأب أرينا بتفهّم، وطمأن كلٌّ منهما الآخر بالتحدّث عن آخر الأخبار في هذا الموضوع.

كان بيترو فاتا قد لحق بهما، وشرح أن تأخيره كان بسبب مسألة تتعلّق بعائلة الفاليبي. وطلب من القِسّيس أن ينتظره لمدّة نصف ساعة. رفض الأب أرينا الانتظار، وقال متعجّباً من جرأته: "أريد أن أتحدّث معكَ، يا سيادة الرئيس، لدقائق قليلة وحدنا".

خرجت مارجريتا من الغرفة بحجّة تركهما وحدهما.

كان بيترو فاتا يتحدّث بسرعة تشي بضيقه من طلب القِسّيس: "يعمل في مكتب البريد، شخص يُدعى ريسيكو، شيوعي ومتزوّج من البائعة

التي تعمل في مكتبه بيكوريللا، والتي قد تعرفها أنتَ أيضاً. لقد تأكّد هذا الشخص من أن منولارا كانت تتلقّى عند الخامس والعشرين من كلّ شهر أموالاً من بنك سويسري، يضمّ بين عملائه بعضاً من رجال المافيا المعروفين. وقد وصل إلى نظرية أن هناك تحالفاً سرّياً بين ماسيمو ليوني ومنولارا تحت حماية المافيا. اليوم، وجد محرّك سيارته الفيات 600 محطّماً بكتلة من الأسمنت. سواء هو، أو ذلك الجبان مدير البريد، لا يدريان مَن يمكنه حمايتهما". أمام تلك الكلمات، لم يتمكّن الأب أرينا من كتم ابتسامة ساخرة: ربمّا يحمل ذلك حقيقة عميقة. "قال لي المدير إن ريسيكو يريد إبلاغ الشرطة ضدّ كارميلا لارتكابها سلسلة من الانتهاكات القانونية في مكتب البريد، بل يتحدّث عن أذناب للمافيا، وتجارة مخدّرات، وسلاح. باختصار ضرب من الهذيان. وقد أرسله مدير البريد إلى بيتي، كي أتحدّث معه وأُقنعه بتغيير رأيه. هو الآن في حجرة مكتبي بصحبة زوجته. لا أدري كيف يمكن تهدئته وإقناعه بالصمت. ستكون كارثة لأبناء أوراتسيو، وله أيضاً". أضاف الرئيس بقلق.

تحدّث الأب أرينا باختصار عمّا رآه ماسكولو وعن الشكوك حول احتمال قيام المحامي الفاليبي بشراء قِطَع أثرية مسروقة من المقابر في أثناء الحفريات، وأن تكون منولارا متورّطة أيضاً بشكل ما في تجارة الآثار، وهل هذا يفسّر العلاقة مع البنك السويسري؟

"أستبعد ذلك، كنتُ سأعرف شيئاً مثل هذا. لقد كنتُ قريباً جدّاً من أوراتسيو، ولم يكن ليخفيَ عنّي مثل هذا الأمر.

أعلم أنه كان يشتري من بعض الفلّاحين بعض القِطَع الأثرية التي كانوا يعثرون عليها في الحقول، عندما يصطدم الفأس بغطاء مقبرة، وربمّا من بعض سارقي القبور أيضاً. ولكن ذلك لم يكن على هذا النطاق الواسع.

أعرف أيضاً أن منولارا كانت تساعده في فهرسة القِطَع، وكانت تطلب

منّي كتابة رسائل إلى المتحف الإقليمي للتعرّف على هذه القِطَع. قد يكون هذا تفسيراً مقنعاً، وربمّا مقبولاً لريسيكو".

تذكّر الأب أرينا الخطاب الذي سقط من ليللا، فأعطاه لبيترو. ها هو يرتكب إثماً آخر، حَريّ به أن يُشعِرَهُ بالخزي، وربمّا ينبغي عليه أيضاً أن يتطهّر بالاعتراف. لقد ارتكب الإثمَيْنْ لحماية منولارا. قد يغفر الربّ له، فقد فعل ذلك بواقع العاطفة التي يشعر بها نحوها، وهو متأكّد من ذلك الغفران.

قرأ بيترو الرسالة، وأعادها إليه قائلاً: "هذا يفسّر الكثير، ولكنْ، ليس كلّ شيء.

اشترت منولارا بعض القِطَع الأثرية المزيّفة على أنها أصلية. كان أوراتسيو يستغلّها كاسم مستعار في الاتّصال المباشرة مع أشخاص من الخارجين عن القانون أو من سارقي المقابر. يؤسفني قول ذلك. كان أبناء أوراتسيو بحاجة إلى بعض الأموال، ففكّروا في بيع بعض من هذه القِطَع. وبالطبع وبحكمة، أرادوا تثمينها. عندما أُصيبوا بخيبة الأمل، حطّموا القِطَع كلّها، وتشاجروا أيضاً. ألَا تظنّ حضرتكَ ذلك؟" أنهى قوله، وعاد بيترو فاتا إلى الزوجَيْنْ ريسيكو.

لحقت مارجريتا على الفور بالأب أرينا، فقد حدّثتْها البارونة تشفيليا تليفونياً، لتحكيَ لها تفاصيل الشجار الحادّ بين شباب الفاليبي، وليس حكاية سقوط المكتبة. كان الأرب أرينا مرهقاً، ولم يكن في حالة تسمح له بتهدئة السيّدة أو الاستماع إليها، فلجأ إلى حيلة تُفلح دائماً: اقترح عليها أن يصلّي معها صلاة المسبحة.

أدّت مارجريتا الصلاة بعناية وأريحية. كان الأب أرينا يشدّد على مقاطع "أبانا الذي في السموات وصلاة السلام الملائكي" ببطء غير معتاد، ووقفات طويلة، وتلعثم متعمّد، لإطالة الصلاة أطول فترة ممكنة. وهكذا وجدهما بيترو فاتا عندما لحق بهما، بعد أن ودّع ريسيكو وزوجته. كانت

مارجريتا راكعة على ركبتَيْها فوق وسادة، وقد ثبّتت عيناها فوق صورة العذراء فوق البوفيه، والأب أرينا جالساً فوق مَقعَد ونظرته قلقة أحياناً، وأحياناً أخرى تائهة في الفراغ. كانوا جميعاً مرهقين، وقرّروا إنهاء الزيارة. وهذه المرّة قبل الأب أرينا بصدر رحب دعوة بيترو فاتا على الغداء في اليوم التالي.

45. الاثنَيْن يوم شاقّ لريسيكو

كانت السيّدة بيكوريللا والبائعة إلفيرا ريسيكو مشغولتَيْن في المكتبة التي ازدحمت بالطَّلَبَة والآباء بحثاً عن الكُتُب الدراسية. كانوا يتهامسون جميعاً، كان الصِّبْيَة وقد أصابهم الملل يمسكون بالكُتُب بشكل عشوائي، ينظرون إلى الأغلفة، ثمَّ يعيدونها دون أيّ ترتيب، ويجيبون دون أدنى حماس على أسئلة الوالدَيْن، ثمَّ يتوقّفون للثرثرة مع زملائهم وهم يمضغون العلكة، والتي أصبحت آخر الصيحات بين الصِّبْيَة.

كان الآباء يستعرضون قائمة الكُتُب المدرسية، ولا يكفّون عن الصراخ والشكوى من ارتفاع ثمنها، ويتصفّحون الكُتُب المستعملة، ويلفتون النظر إلى الشخبطة والعلامات التي تركها المالكون السابقون للكتاب، ويطلبون التنزيل من ثمنه، ويتشاجرون للحصول على النسخ قبل العملاء الآخرين.

رنّ جرس جهاز التليفون بجوار الخزينة، لكن عواء الزبائن غطّى على رنينه. كان جاسبري ريسيكو. اعتذرت إلفيرا: "أنا مشغولة جاسبرو". قال لها: "أردتُ فقط أن أخبركِ أن الردّ يؤكّد التوقّعات. أراكِ على الغداء".

واصلت إلفيرا خدمة الزبائن، وقد ندَّت شفتاها عن ابتسامة كبيرة أمام نظرة السيّدة بيكوريللا اللائمة.

تأخّرت إلفيرا على موعد الغداء، فقد كان ينبغي تجهيز المكتبة لغزو

بعد الظهيرة. كان جاسبري قد وصل إلى المنزل بالفعل وكان يتجوّل بعصبية في الصالة. قبّلها قبلة شاردة، وقال:

"لدينا مشكلة كبيرة جدّاً. لم أتخيّل أبداً، ولم أتوقّع أن تكون رسالة زميلي في مكتب بريد ميلانو مراقبة، ولكنْ، من الواضح أنها كذلك. لقد تسلّمتُ الرسالة في مظروف مغلق. أنا واثق تماماً أن المظروف كان مغلقاً، ثمَّ إنني مزّقتُها إلى أجزاء صغيرة، وألقيتُ بها في سلّة الأوراق. كانت الرسالة تقول فقط "الإجابة عن سؤالكَ: "نعم". احترس". إذن، مَن قرأ الرسالة كان يعلم بحديثي مع الزميل. ثمَّ في ساعة متأخّرة من الصباح، ذهبْت لأستقلّ السيّارة، كي أذهب إلى مكتب روكاكولمبا الجديدة، ولم يشتعل المحرّك. فتحتُ غطاء السيّارة، كان المحرّك مغطّى تماماً بالأسمنت الذي جفّ بالفعل. كان يبدو وكأنه عمل نحت معاصر".

كانت إلفيرا تستمع إليه مذعورة بفاه فاغر. أدرك جاسبري ذلك، ولكنه واصل حديثه: "ينبغي التصرّف والردّ، والتمرّد على هذه الأفعال المتعمّدة لإخراس الألسنة. لذلك ذهبتُ إلى مدير مكتب البريد. وهذا المدير سيطر عليه الخوف، ورجاني أن لا أتحدّث مع أحد في هذا الموضوع أو أقدم أيّ بلاغات. بل إنه طلب منّي كصنيع شخصي مناقشة الأمر مع الرئيس فاتا".

قاطعتْهُ إلفيرا: "وما دَخْله في ذلك؟"

"كيف؟ وما دَخْله؟ إنه واحد من هؤلاء الرأسماليِّيْن الذين لم يعملوا يوماً واحداً في حياتهم. كان صديقاً للمحامي الفاليبي، ويعرفهم جميعاً. رجل يحظى بالاحترام، وذلك الأحمق مدير البريد قد حكى له عن كارميلا ليوني والرسائل، لذا يريد أن أذهب وأتحدّث معه قبل أن أقوم بواجبي بالإبلاغ عن ليوني وأولئك المجرمين الذين خرّبوا سيّارتي الجديدة! هذا أمر غير مقبول، اعتداء يمسّ حقوقي كموظّف وكمواطن".

كانت عينا جاسبري تلمعان، وكان يدفع بقبضتَي يدَيْه داخل جيبَي

السترة، وكان على وشك تمزيق البطانة لو لم تمسك إلفيرا بيدَيْه برقّة بين يدَيْها ناظرة إلى عينَيْه مباشرة، وتقول له بنبرة حاسمة هادئة: "يجب أن ترضيه. كان لطيفاً معكَ دائماً، ويقدّرك. وأعتقد أيضاً أنه يحبُّكَ. سأتي أنا أيضاً معكَ إلى الرئيس، يجب أن أسلّمه بعض الكُتُب".

قرأت إلفيرا إشارة موافقة فوق شفتَي جاسبري، فاتّجهت نحو المطبخ، ومن هناك واصلت الحديث:

"يمكننا أن نتغاضى عن الأمر، وألّا نقدّم بلاغاً ضدّ ليوني، ونكتفي بإخبار الشرطة عن الضرر الذي لحق بالسيّارة". أطلّت من باب المطبخ وقد أسندت ساعدها إلى حلقة الباب وقالت: "جاسبري، اتّصلْ بمدير مكتب البريد، ولنحدّد الموعد مع الرئيس فاتا فوراً، ثمَّ نتناول طعامنا".

همهم جاسبري: "ينتظرنا في الساعة الرابعة والنصف".

"مثل هذه الأشياء تحدُث؛ لقد أذهلتْهم. أنا فخورة بكَ. ستُدهش الرئيس فاتا أيضاً". واستطردت:

"الآن لنحضر طعام الغداء معاً، ثمَّ سأتّصل بالسيّدة بيكوريللا". كانت هذه إحدى المرّات النادرة التي ساعد فيه جاسبري ريسيكو زوجته في إعداد المائدة، بل إنه حضّر السلطة الخضراء بدلاً من النظر إلى زوجته في أثناء تحضير طعام الغداء. خرجا من المنزل في أوّل بعد الظهيرة مارَّيْن بالمكتبة لأخذ الكُتُب التي ينبغي تسليمها إلى الرئيس فاتا. طوال الطريق تأبطت إلفيرا ذراع زوجها، ولم تتركه إلى أن وصلت إلى البوّابة الخارجية لقصر فاتا. طوال دَرج السُّلَّم المرتفع لروكاكولمبا، الطُّرُق المتعرّجة للأزقّة الضيّقة، لم تكفّ عن الثرثرة للتسرية عنه وتشجيعه. وعندما شعرت بجاسبري يضغط جانبها بيده، فهمت أنها نجحت.

استقبلهما الرئيس فاتا بنفسه، واقتادهما إلى حجرة المكتب. شكر

إلفيرا على مجلّدات دانونسيو التي أحضرتْها. وقد شجّعتها كلماته الرقيقة على الحديث، الذي أسهبت فيه دون حرج، عن مطبوعات جديدة من الكُتُب النادرة. وقد أعطت بذلك الفرصة لبيترو فاتا لتأمّل الزوج الصامت، والذي بدا عليه القلق بشكل واضح. قاطعتْهم لوتيشيا قائلة: السيّدة تودّ الحديث مع الرئيس لأمر عاجل. استأذن منهما بيترو بعد اعتذارات شتّى. وعند عودته وجدهما ينظران من النافذة وقد التصق كلٌّ منهما بالآخر. كان منظرهما يثير الحنان. أراد أن يتحدّث وحده مع جاسبري ريسيكو، واقترح على إلفيرا بأدب ولطف حيّراها، أن تجلس في الصالون الصغير لتتصفّح بعض الكُتُب القديمة التي كانا قد تحدّثا عنها من قبل.

استهلّ بيترو فاتا حديثه قائلاً:

"أخبرني، سيّد ريسيكو، دون إغفال أيّ تفاصيل، عن التحرّيات التي قمتَ بها حضرتكَ في مكتب البريد عن أينتسريللو".

أجاب جاسبري: "أيّ تحرّيات؟"، وكانت تساوره الشكوك حول احترام فاتا الزائد والمدروس لزوجته، وربّما كان يشعر بالغَيْرة أيضاً.

"لنتحدّث بصراحة. نتقابل اليوم، لأن مديركَ حكى لي عن سيادتكَ، وعن الضرر الذي لحق بسيّارتكَ". أصبحت نبرة صوت بيترو فاتا أكثر جدِّيَّة وحِدَّة: "ليس لدى أيٍّ منّا وقت لنُضيِّعه. سأتحدّث أوّلاً، لأُظهِر لكَ حُسن نِيّتي. أنا قلق جدّاً على أولاد الفاليبي الثلاثة. كان والدهم صديقي الحميم وأمّهم ابنة عمّ زوجتي: أريد أن أفهم لماذا يتصرّفون بهذا الشكل الكريه بعد موت خادمتهم، ولماذا أيضاً يقوم الآن بعض الناس مثل سيادتكَ، بما يُقلق المافيا، بل وما قد يُثير غضبها أيضاً".

تجهّم وجه بيترو فاتا، واستمرّ في الحديث: "في هذه الحالة، قد تختفي، يا سيّد ريسيكو أو ينتهيَ بك الحال جثّة ملقاة في أحد الحقول. إذا أردتَ أن نحاول أن نفهم شيئاً معاً، ونصل إلى حلٍّ، فأنا تحت أمركَ.

هدفي أن أحميَ أبناء أعزّ أصدقائي من تصرّفاتهم غير اللائقة وغير العقلانية التي قد تهدّد حيواتهم وتعكّر صفو حياة أمّهم. فما هو هدفكَ؟" استحسن جاسبري صراحة الرئيس وحدَّثَهُ عن نظريّته عن ماسيمو ليوني، وعن أن هناك خطّة من المافيا تضطلع فيها أينتسريللو وليوني بدور محدّد، وتهدف إلى تجارة المخدّرات في روكاكولمبا، كما حَدَثَ في المُدُن الآخرى، ثمَّ السيطرة وتنمية النشاط العقاري حول البلدة. وهو يريد التعاون مع الحكومة لإخفاق هذه الخطّة".

سأله فاتا:

"فسِّرْ لي لماذا تهتمّ المافيا كثيراً بالتوسّع العقاري هنا في روكاكولمبا ...؟"

"سيّدي الرئيس، سيادتكَ تعلم أن المافيا تحت السيطرة والمراقبة في المُدُن الكبيرة. النيابة تستطيع القضاء عليها بضربة واحدة. لذلك واتّقاء للهجمات، تنسحب إلى المراكز الصغيرة، لتعود بعد ذلك للهجوم". كان واضحاً أن جاسبري يكرّر ما قد قاله من قبل، ولكنْ، هذه المرّة بحماس قويّ.

"ما الذي يجعل سيادتكَ تعتقد أنها تحت ضغط، وأنها تفقد سطوتها؟"

"يكفي قراءة الجرائد؛ قراءتها وفَهْمها بالطبع. هناك مَن يتمرّد، مَن لا يريد أن ينكّس رأسه. لذا ينبغي علينا مساعدة أولئك الأشخاص. أقصد الناس. في أثناء محاكمة توماسو ناتالي عرضت أرملة بيترو مسينا أن تُدلي بشهادتها ضدّ القَتَلَة. ثمَّ أُجبِرَت على تغيير أقوالها، فقد هدّدوها وهدّدوا أبناءها. ولكنْ، آخرون ينجحون في تحدّي المافيا، نوّابنا الشيوعيون يحاصرون الحكومة بالاستجوابات. نحن، في صقلية، نريد فرص عمل، وتنمية ومستقبلاً، سيدي الرئيس".

كان ذلك الشابّ المثالي يُعجِب بيترو فاتا. فكّر في سؤاله عمّا إن كان لديه أولاد، ثمَّ لم يفعل. ثمَّ قال:"أفهم أن سيادتكَ تريد تغيير العالم" واختتم حديثه: "حسناً تفعل".

"صقلية، يا سيادة الرئيس. أريد تغيير صقلية؛ عملاً، مياهاً، تنمية، عدالة. أنا أعتقد بالعدالة". قالها جاسبري بمبالغة، ولكنه كان حريصاً على ألّا يجعل من الرئيس فاتا خصماً له. "أعتقد بمحاربة الظلم، محاربة الفساد. أحارب من أجل حقوق العمّال، من أجل المساواة بين المواطنين. ومن أجل هذه المبادئ أنا مستعدّ للتضحية، وللمخاطرة أيضاً".

فكّر بيتروفاتا في ولده جاكيمو؛ شابّ مهذّب يحظى بثقة الجميع. كان ولداً حيّ الضمير، إدارياً بارعاً، ابناً وأباً وزوجاً عطوفاً مختلفاً عن هذا الشابّ الذي يُلقي على مسامعه معتقداته بحمية. كان يودّ معرفته أكثر، ولكنه كان يعلم أن ذلك أمراً غير محتمل. قال الرئيس بنبرة هادئة وحادّة، كتم فيها انفعالاته الجديدة غير المتوقّعة: "أتسمح لي أن أحلّل مع سيادتكَ بعض أفكاركَ عن أينتسريللو وليوني؟ سأبدأ من مقدّمة أن أينتسريللو تتمتّع بحماية المافيا. افتراض قد يشرح هذا الموقف المعقّد. أوّلاً: كانت تضع أموالها في البنك السويسري كما تأكّدتَ حضرتكَ. إذن فقد كانت تحظى بمعاملة خاصّة. ثمَّ إنها كانت تتلقّى مبالغ مالية كبيرة عن طريق البريد، وهذا يتطلّب وجود صديق أو زميل لها، رجل من المافيا، يراقب عدم سرقة هذه الأموال. وفي حالة أينتسريللو، وصول الرسائل بشكل منتظم ودقيق. ثالثاً: كانت أينتسريللو تعطي جزءاً من أموالها لأبناء الفاليبي الثلاثة. رابعاً: في جنازة أينتسريللو شوهدت شخصية معروفة من المافيا. خامساً: موظّف بمكتب البريد، حضرتكَ، سيّد ريسيكو، تقوم ببعض التحرّيات عن الموضوع، فيخربون موتور سيّارتكَ".

أغلق الرئيس فاتا راحة يده التي كان يعدّ على أصابعها النقاط الخمس

الرئيسة، وظلّ قابضاً على أنامله بينما كان ينظر إلى جاسبري. "سأُثبت لكَ الآن ثقتي الكبيره في سيادتكَ، وأكشف عن معلومات يعرفها القليلون. أسالكَ فقط أن تحتفظ بها لنفسكَ، وألّا تتحدّث بها مع زوجتكَ".

رفع إبهام كفّه المقبوض وبدأ العدَّ من جديد: "سادساً: يتلقّى مدير مكتب البريد تحذيراً بألّا يفكّر بأمر مراسلات أينتسريللو، لذلك لجأ إليّ في الأسبوع الماضي. سابعاً: علمتُ ظهر اليوم أن حديقة أحد أثرياء المنطقة خُرِّبَت، ربمّا لأنه تحدّث بشكل مهين عن المرحومة أينتسريللو، وذكر أنها كانت عشيقة لأحد رجال المافيا. تاسعاً: أبناء الفاليبي، في أثناء بحثهم عن أموال، يظنّون امتلاكهم لقِطَع أثرية اشترتْها أينتسريللو، فيقومون بما ينبغي عمله في تلك الحالة، ويرسلونها إلى خبير لتقرير إن كانت حقيقية أم لا. وعندما يعلمون أنها مقلّدة، يحطّمون مجموعة صديقي أوراتسيو كلّها، التي ربمّا ليس لها أيّ قيمة، بل ويصل بهم الأمر إلى التشابك بالأيدي.

هذه أحداث وقعت اليوم. هذا الخبر الأخير أبرز أمام عينَيّ افتراضاً آخر للموضوع بأكمله. إن أردتَ سيادتكَ يمكنكَ استدعاء السيّدة زوجتكَ، وسأشرح لكلَيْكما الافتراض الذي وصلتُ إليه".

اختارت إلفيرا مَقعَداً بجوار زوجها، وظلّ بيترو فاتا واقفاً، وبدأ يتحدّث: "سيّدتي، أعتذر عن سوء الأدب معكِ، ولكنه كان ضرورياً. أودّ أن أحكي لكِ عن أينتسريللو، التي تعرفونها باسم منولارا". استعدّت إلفيرا مأخوذة لسماع الحكاية:

"تيتّمت وهي طفلة، واستطاعت إعالة أختها الكبرى المريضة براتبها كخادمة. التحقت بالخدمة في بيت الفاليبي وهي لا تزال صبية، وكانت السيّدة ليللا - يرحمها الله - قد أحبّتْها وتولّت رعايتها، وقد وفّرت لها دروساً، وهكذا تعلّمت القراءة ولكنها لم تتعلّم الكتابة. كانت ذكية، قوية الإرادة، وكانت تساعد السيّدة كثيراً في إدارة الأملاك أيضاً. وبعد موتها

أصبحت عملياً المسؤولة عن إدارة أموال العائلة وممتلكاتها، وهو عمل أنجزتْهُ بنجاح. كانت تساعد أوراتسيو أيضاً، صديقي الحميم، في نشاطه في جَمْع القِطَع الفنِّيَّة.

كان أوراتسيو واسع الثقافة متعدّد الاهتمامات. ومن بين اهتماماته، كان مولعاً لفترة بجَمْع القِطَع الأثرية، التي كان يقتنيها من سارقي المقابر. لم أكن أُوافق على هذا التصرّف، ولكني لستُ هنا لإصدار أحكام. حسناً"، قال ملتقطاً أنفاسه: "ساعدتْ منولارا صديقي في شراء القِطَع المسروقة - على حدّ علمي - من تجّار كانوا يزعمون أنهم بائعو خضروات. ربمّا تعرّفت، عن طريق ذلك، على رجال المافيا الذين يسيطرون على هذه التجارة.

أظنّ أنه في مقابل قِطَع أثرية، أو أشياء مقلّدة كما اتّضح في الحقيقة، قبلتْ أن يستغلّ رجال المافيا اسمها في عمليّاتهم. كانت منولارا تتلقّى رسائل وأموالاً ومستندات موجّهة لآخرين، وتحتفظ بجزء من المال مقابل اسمها المستعار. وفي هذه الحالة، كترس صغير في آليات المافيا، كانت تحظى بالحماية، ولا يستطيع أحد المساس بها مثل الآخرين. وهذا يفسّر وجود زعيم للمافيا في جنازتها. ليس دليلاً على الاحترام فقط، ولكنْ، على السلطة أيضاً. وهذا يفسّر أيضاً الأموال التي بحوزتها والمشكوك في مصدرها، وأيضاً كرمها مع أبناء الفاليبي التي كانت تعتبرهم مثل أبنائها. بينما آل الفاليبي - يؤسفني قول ذلك - فهم .. جشعون ومتغطرسون وسفهاء. مثال سيّئ لعائلة كان يمكنها أن تساهم بإيجابية في حياة المدينة. يريدون فقط الاستمرار في استغلال كرم منولارا معهم، فأرسلوا كارميلا، أكثرهم حمقاً، إلى مكتب البريد. ولحسن الحظّ رفضت الموظّفات في المكتب، وحضرتكَ، سيّد ريسيكو، تنفيذ طلبها".

أمسكت إلفيرا بيد جاسبري، وضغطت عليها، وأسندتها إلى حجرها دون أن تُخفض عينَيْها عن الرئيس.

أردف فاتا: "لن أتحدّث عن ماسيمو ليوني. صدّقوني، لا يوجد صاحب عمل جادّ، أو أحد من المافيا يمكنه أن يسند إليه أدنى عمل مهما صغر. فهو لا يجيد شيئاً إلّا الثرثرة. لن يقتل كارميلا ضرباً، أنا واثق من ذلك، فهو رعديد. ثمَّ إني أتعجّب .." وعند ذلك نظر مباشرة إلى وجه الشابّ جاسبري، "أتعجّب من أن شخصا ذكياً ومثقّفاً مثلكَ يرتكب مثل هذا الخطأ، الذي - إن سمحتَ لي - يعتبر خطأ كبيراً: إعطاء أهمّيّة لليوني". اكتفى جاسبري بطأطأة رأسه قليلاً، كما لو كان قد قام بعمل الحسابات ووصل إلى النتيجة.

"ليس له أيّ صِلَة بمنولارا، التي كنتُ أعرفها جيّداً وأقدّرها. كانت امرأة جادّة وعنيفة أحياناً، ربمّا لتفرض احترام الناس لها. ولكنْ، مع الأطفال والضعفاء كانت صبورة ورقيقة. أقول لكَ شيئاً آخر، كانت منولارا تكره العنف والإيذاء الجسدي. لم ترد أبداً التعرّف إلى ليوني لأنه - كما كان يقال - اعتدى ذات مرّة على امرأة".

انتظر الرئيس أن تؤتي كلماته بأثرها، ثمَّ واصل حديثه:

"إن لم تفكّر في سحب البلاغ ضدّ كارميلا الفاليبي، فكّرْ على الأقلّ في نتائجه. قد تقتلكَ المافيا التي تحمي أينتسريللو، قطعة الشطرنج الصغيرة في لعبة أكبر منها". عند هذه النقطة ذهب بيترو إلى فتح أبواب الشرفات التي تطلّ على الترّاس، ودعا الزوجَيْن ليتبعاه.

ثمَّ استطرد: "بالنسبة إلى ما لحق بالسيّارة، فمن الصواب إبلاغ الشرطة. إذا تلقّت الشرطة بلاغات كثيرة ضدّ مجهولين، فإن ذلك سيكون جزءاً من الإحصائيات التي تستغلّها الأحزاب السياسية كلّها، بما فيهم حزبكم، لزيادة الأموال والمساعدات الموجّهة لمحاربة المافيا، والتي تنتهي عن طريق قنوات معروفة ومَحميَّة من النظام في جيوب أناس تضع الأسمنت في سيّارة زوج من شباب الموظّفين، وهم أكثر دناءة ممّن أمَرَهُم بفعل ذلك".

"سيّد ريسيكو، أنا معجب بكَ وأُقدّركَ، وأتمنّى أن تعيش طويلاً. فلتنسَ عائلة الفاليبي، ليوني وأينتسريللو، ولتستمرّ في عملكَ. لستُ أعني فقط وظيفتكَ في مكتب البريد، ولكنْ، أيضاً في نشاطكَ المعروف في مجال السياسة".

تجنّب الرئيس أن ينظر إلى جاسبري في عينَيْه. كان متأكّداً من شخصيّته، وخاف أن تفلت منه نظرة حانية.

استند إلى سور الشرفة، وبقي الثلاثة يتأمّلون أشجار الياسمين المتسلّقة، التي التفّت حول أغصان نباتات الغليسين، والتي نمَتْ بدورها فوق أحجار القصر.

أضاف الرئيس:

"تُعجبني شجاعتكَ. في الحقيقة، ليس لديّ الشجاعة نفسها. لم أتمرّد على جمود التقاليد الاجتماعية التي وُلدتُ فيها، ولم أنجح بإقناع والدي بتركي أختار الدراسة التي أحبّها. بقيتُ هنا في بيت العائلة، أهتمّ بالأملاك والممتلكات كما فعل أجدادي وأسلافي. ملتزم دائماً بالتقاليد. أنا أنتمي إلى عالم آخر، كما يمكن أن تسمّيه، أنتمي إلى اليمين. وبقَدْر ما يؤسفني ذلك، إلّا أنني لا أقدر أن أكون إنساناً آخر".

كانت الشمس تعلن المغيب الوشيك. وفاح في الهواء أريج زهور الياسمين.

كان ضوء محمرّ حسّيّ يضيء روكاكولومبا كلّها، ويربّت فوق المقاعد والمناضد الحديدية الصغيرة في الترّاس، فيرسم ظلالاً لروسومات أرابيسك فوق أرضية الرخام الأبيض والأزرق الغامق.

قال فاتا ناظراً إلى المنظر الذي يتجلّى أمامه:

"انظرْ، يا سيّد ريسيكو. أنا أعتقد أن التغيير أمر ضروري، وسيحدُث. لا أدري متى، ولكنه سيحدُث. ولا أدري إن كان سيُحدث التغيير الذي تتمنّاه. معرفة مَن هم الأعداء ليس أمراً بسيطاً. انظرْ إلى بلدتنا هذه. قصر الأمراء أصبح أطلالاً منذ عشرات السنين، غلافاً أجوف. نحن فقط مَن يدرك حقيقته من هذا الترّاس، وليس أحداً آخر. يبدو فخماً متين البنيان. هناك مَن يريد نزع ملكيّته وترميمه. ومَن يريد تحويله إلى مركز ثقافي للبلدة. الواقع أنه لم يعد له وجود. أصبح ما يمثّله من سلطة سراباً ووَهْماً. أتسلّى في بعض الأحيان بفكرة اختفائه، انهياره، مثل جزيرة فرديناندیا". ابتسم ابتسامة تكاد تُلحَظ، وكأنها حركة بشفتَيْه.

"ليوني وأينتسريللو لايستحقّان وقتكَ وإهدار طاقتكَ. فكِّرْ بأشياء أخرى، اتبعْ معتقداتكَ ومبادئكَ، ولا تنشغلْ بهؤلاء الناس".

قالت إلفيرا بسرعة: "وسيادتكَ أيضاً تستطيع أن تفعل الكثير".

" أشكركِ، يا سيّدتي، ولكن الأمر ليس كذلك".

عند ذلك التفت بيترو فاتا إلى جاسبري ريسيكو: "تعلّمتُ ممارسة فنّ الممكن. الممكن، أتفهم؟ الهدف تحقيق سعادة بسيطة، لكنها مستمرّة. حفيدتاي، اجتماعات اتّحاد الزراعيِّيْن، وحجرة مكتبي. أرضي. عقلي وحواسّي بالكُتُب. وهنا من خشبة مسرحي، أتمتّع بذلك الجمال الأخير".

في المساء، كانت إلفيرا تعلّق قائلة: "ولكنكَ أنتَ أيضاً شعرتَ بالخوف. أدركتُ ذلك فوراً عند عودتي للبيت. لم تكن حبيبي جاسبري الذي أعرفه. إنها تجربة رهيبة ... لقد كنتَ شجاعاً، ولم تجعل الخوف يسيطر عليكَ. لم أكن لأستطيع مثل ذلك".

كانت تشعر بانقباض معدتها، وبإحساس غامض بالرغبة في القيء "سنتخطّى هذه التجربة المؤلمة معاً".

ردّ جاسبري: "الخوف؟! على نفسي؟! لم أشعر به إطلاقاً. عليكِ، نعم، كثيراً. على أبنائنا في المستقبل، أكثر. شعرتُ بالخوف عليكِ أنتِ، يا سُكَّر حياتي. شعرتُ بالقلق". كان جاسبري يستعيد هدوءه أخيراً، ومسح على خَدَّيْها في أوّل لمسة لها في هذا اليوم، ثمَّ قرصة صغيرة عفيفة بخَدِّها. ابتسمت إلفيرا، نهضت من على المنضدة، وقبّلتْهُ قبلة طويلة بطعم البندورة.

الثلاثاء 1 أكتوبر 1963

46. خطاب اخر يصل من منولارا إلى بيت الفاليبي

كانت السيّدة الفاليبي وابنتاها جالسات في الصالة. كنّ قد استيقظنَ عند الفجر، منهكات بعد ليلة صاخبة، وينتظرنَ قدوم سانتا بقهوة الصباح. كنّ خائرات القوى، بعد هَوَس التدمير في الليلة السابقة، ثمَّ العمل المضني لإعادة حجرة المكتب على ما كانت عليه ظاهرياً، والتخلّص من قِطَع الفخّار المكسورة، وإزالة آثار الشِّجَار، وحفظ المظاهر، ثمَّ المناقشات المؤلمة بعد ذلك.

في الليلة السابقة، أقنَعَ الأبناءُ الأمَّ باتّخاذ بعض القرارات. ينبغي تجهيز مكان إقامة لها وحماية لكارميلا.

وقد قرّروا أن تعيش الأمّ في منزل الابنة، أو مع كارميلا في قصر العائلة، في حالة انفصالها عن ماسيمو، لتُنقذَ نفسها وإرثها منه. قرّروا أيضاً بيع منزل منولارا وإصلاح قصر العائلة بثمنه. ليللا ستعود إلى روما ومعها جرّتا الفخّار المقلّدتان، أمّا جاني، فسيرجع إلى كاتنيا. وسيظلّون على اتّصال تليفوني. كان واضحاً أن ليللا وجاني لا يريدان الاستمرار في النظام الصارم لزيارة أمّهما، والذي فرضتْهُ منولارا . لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى نسيان ما حَدَثَ، ونسيان منولارا وشرورها.

لن يتحدّثوا بسوء عنها لأسباب واضحة، وعلى أيّ حال، فإن مصدر ثرائها المزعوم وسبب حماية المافيا لها لم يتمّ الكشف عنهما.

قالت كارميلا وهي تنظر بقسوة إلى أمّها:

"ينبغي توخّي الحذر. يجب الاحتياط في الحديث مع خادمتي. وتذكّري أن ما حَدَثَ لنا عقاب عادل جرّاء الثقة المفرطة بالخَدَم".

دخلت سانتا حاملة القهوة والبريد. فتحت ليللا الرسائل، وكان أغلبها رسائل تعزية، أعطتْها لكارميلا والأمّ.

كان هناك مظروف، وقد كُتب العنوان فوقه بالآلة الكاتبة. فتحتْهُ بشرود معتقدةً أنه إيصال دَفْع أو فاتورة. ولكنه كان خطاباً آخر من منولارا.

"لقد أحسنتُم صنعاً بتنفيذ ماقلتُهُ لكم. الآن لديكم شهادة تسمح بخروج آنيات الخزف الأثرية الثماني إلى الخارج. عودوا بها إلى البيت، إن لم تكونوا قد فعلتُم ذلك بالفعل. اذهبوا إلى حجرة مكتب والدكم. افتحوا الرفّ المقابل للرفّ الذي أخذتُم منه الصناديق الثمانية خلف الباب الوَهْمي، هناك ثمانية مزهريات فخّارية مطابقة لتلك المقلّدة. مزهريات حقيقية. فقد قمتُ بعمل نُسخ منها للحصول على شهادة، تمكّنكم من بيعها أو إخراجها من إيطاليا. بدِّلوا بالمقلَّدة الأصلية، وسافروا بها إلى زيورخ خلال خمسة عشر يوماً من اليوم. اتّصلوا فوراً بالمتحف الأثري في زيورخ، وقولوا إنكم تريدون تحديد موعد، وإنكم من طرف السيّد منولارا. إنهم ينتظرونكم. يمكنكم الاحتفاظ بها أو بيعها. مدير المتحف يعرف مدير البنك الذي أضع فيه أموالي. يمكنكم الحديث معه

عن الأموال في البنك، والتي تستحقّونها الآن، لأنكم أَطَعْتُمُوني. افعلوا ما ينصحكم به".

قالت ليللا وهي تمدّ الخطاب إلى كارميلا: "خذيه، اقرئيه" ثمَّ أجهشت بالبكاء.

47. الأب أرينا يزور السيّدة الفاليبي، ويرى أثر الدمار الذي لحق بمقتنيات أوراتسيو الفاليبي.

كان الأب أرينا متوتّراً عند زيارة منزل الفاليبي في هذه الساعة المتأخّرة من صباح الثلاثاء. وجد السيّدة الفاليبي وحدها متكدّرة واجمة. أخبرتْهُ برحيل ليللا وجاني، وبأنها استسلمت لفكرة الحياة مع كارميلا، التي يتعرّض زواجها لهزّة عنيفة. كانت محبَطة من الأبناء وتفتقد منولارا.

لم يدرِ كيف يخفّف عنها. فكّر الأب أرينا في أن يُطمئِنَها على استلام فاتا أخيراً لكُتُب دانونسيو.

أشرق وجه السيّدة، وأرادت اصطحابه فوراً إلى حجرة المكتب لاختيار كُتُب أخرى.

دخل القِسّيس إلى حجرة مكتب المحامي الفاليبي بخطوات وئيدة. كانت آثار التخريب لا تزال ظاهرة، على الرغم من أن الحجرة قد أُعيد ترتيبها. خَلَت الرفوف العلوية للمكتبة، والتي كانت تحوي الكُتُب القديمة لأوراتسيو في صفوف متراصّة، من الكُتُب، بينما تكوّمت في الرفوف السفلية المجلّدات التي نَجَت من الاعتداء، وقد وُضعت دون ترتيب. تلك المجلّدات التي عشقتْها منولارا، وكانت فخورة بترتيبها وَفْقاً للحروف الأبجدية لأقسام الآداب والفنون.

اختفت قِطَع الخزف الجميلة من فوق الرفوف الصغيرة، وكذلك قِطَع التحف من فوق المناضد، والفضّيّات فوق البيانو. كان جلياً أن الغرفة تعرّضت للعنف. تراكمت عشرات الأكياس الصغيرة خلف البيانو، الواحد فوق الآخر، وكانت أكياساً من القُنَّب، تلك التي تُستخدَم لحفظ اللوز.

شعر الآب أرينا أنه شاهد ذلك من قبل، عندما زار مكتبة خرّبها المتشرّدون في أثناء الحرب. فكّر القِسّيس أن حجرة المكتب كانت هي

كنيسة منولارا التي خصّصتْها لضمّ معتقداتها: المعرفة، الجمال، ومَن يدري؟! ربمّا الحبّ أيضاً. والآن أصبحت خاوية مدنّسة. شعر الأب أرينا بالخجل من التشبيه المهين للمقدّسات، وركّز تفكيره في اختيار الكُتُب التي يجب أن يحملها إلى البيت.

كانت السيّدة أدريانا تنتظره، وقد استندت إلى الأريكة أمام المدفأة الموجودة أمام الترّاس المطلّ على حجرة طعام عائلة ماسكولو. كانت المرآة الكبير المعلّقة فوق المدفأة والمائلة قليلاً تعكس صورتها. تبادر إلى ذهن الأب أرينا وصف المرأة العارية التي لمحها ماسكولو في حجرة المكتب، وشعر بالضيق والإثارة في الوقت نفسه، فأراد الخروج من تلك الحجرة المليئة بالظلال والإيحاءات. أخذ الكُتُب دون تفكير، وعاد إلى الصالون. في أثناء ذلك، وصل الطبيب ميندكو في زيارة، وبقي لمدّة قصيرة. كانت السيّدة الفاليبي تجد الراحة في الحديث عن فضائل جديدة لمنو. "عرفتُ الآن ماذا كانت تفعل كلّ يوم بعد الظُّهر. كانت تُغلق عليها باب مكتب أوراتسيو بعد وفاته، لتدرس الفنّ اليوناني. كانت تُكمل عمل زوجي. أتساءل كيف لم أُدرك تشابه الاهتمامات الفنّيَّة بينهما؟! وربمّا لم يدرك هو نفسه ذلك. كانت منو متحفّظة جدّاً. إنسانة مخلصة مثلها، لا يمكن العثور عليها اليوم في روكاكولمبا. كنتُ أقول ذلك لأبنائي: ثقوا بمنو ... ولكن الشباب اليوم لا يستمعون إلى الوالدين كما كان يحدُث من قبل". حضر آخرون للزيارة، وانصرف الاثنان.

48. الأب أرينا يتمشّى طويلاً مع الطبيب ميندكو

رسّخ حديث اليوم السابق بين الأب أرينا والطبيب ميندكو تلك العلاقة الحميمة التي يخلقها اقتسام الأسرار بين البشر. كانا يريدان قضاء بعض الوقت معاً، وقرّرا القيام بتمشية قبل الغداء.

لم يهدأ بال الطبيب ميندكو منذ اليوم السابق، لأنه لم يحلّل جيّداً ظروف موت أوراتسيو. كان يريد معرفة معلومات أكثر عن منولارا، وشرح ذلك للقِسّيس: "كنتُ أعرف أنها ارتبطت معه بعلاقة حميمية، وظننتُ أنها انتهت بعد عملية الإجهاض قبل الحرب".

دُهش الأب أرينا: "يؤسفني ذلك. يا لها من امرأة مسكينة! لم أكن أعلم أنها تعرّضت أيضاً لعملية إجهاض".

"كانت المأساة الكبيرة في حياتها. كانت تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها، مفعمة بالحيوية، تبذل نفسها بكلّ حماس لرعاية الأبناء الثلاثة بعد مولد كارميلا بفترة قصيرة. لم يَرِدْ ذِكْر اسم أوراتسيو، كما يحدُث دائماً في هذه الحالات، ولكنْ، كان من الواضح أنه الأب. أتخيّل أنه بعد أن ملّ زوجته، اتّجه بانجذاب شديد إلى منولارا التي كانت في ريعان الشباب. ويجب أن أُقرّ أنها كانت شابّة غضّة. أرادت إجراء عملية تعقيم، ولم تحاول السيّدة ليللا التي كانت بصحبتها ثَنْيها عن ذلك". كان الطبيب يحاول الحديث عن تلك الأحداث بشكل مختصر مراعاة للسرّ المهني.

شعر الأب أرينا بضرورة إيضاح سبب عدم حديث منولارا معه عن الإجهاض: "بعد خلاف كبير بيننا، وهو الوحيد الذي حَدَثَ بعد سنوات طويلة من الصداقة، لم نشأ التطرّق للحديث عن أوراتسيو الفاليبي فيما يتعلّق بذلك الشأن".

" أيّ مشاجرة؟"

"استمعْ، يا دكتور، تعرّفتُ بمنولارا عندما كانت تعمل في منزل الفاليبي. كنتُ أُدرّسها اللغة الإيطالية وقواعد الحساب. كانت تتعلّم بسرعة كلّ ما تحتاج إليه، وكنّا نقضي بقية الوقت في الحديث عمّا يهمّها. كان ذكاؤها غير عادي، وكانت تشعر بالأسر داخل منزل الفاليبي، ويتأجّج الغضب في صدرها".

سأله الطبيب:

"الغضب ممّن؟"

"من الله قبل الجميع. كنتُ أُشجّعها على القراءة في كُتُب الصلاة، ولكنها كانت ترفض. وذات يوم قالت لي: كانت أمّي تعلّمني أننا جميعاً متساوون، أنا وأنتَ والملكة. الفرق أنكَ قِسّيس والملكة ملكة وأنا خادمة في منزل الفاليبي. وإذا أدّى كلٌّ منّا عمله كما ينبغي، سيحظى باحترام الآخرين. يجب أن يفكّر الله فينا أيضاً، فيساعد الطيّبين ويعاقب الأشرار. الله لا يعجبني، فقد كان واجبه ألّا يحرم والدَيّ الراحلين من الخبز والدواء، وكذلك أختي أدولارتينا المريضة. لم يكن عادلاً معي، والظالم يجب أن يدفع ثمن ظلمه، آجلاً أو عاجلاً. إذا لم يقم بواجبه، فلن يستحقّ صلاتي". كان يظهر من حديثها عداؤها للنظام الاجتماعي: طبقة الأغنياء التي ورثت سلطة وأموالاً دون أن تكسبها بالعمل، والفقراء الذين حُرموا فرصة الدراسة والعمل.

باختصار كانت ثائرة حقيقية في شبابها. كانت ضدّ العقائد التقليدية، ولكنها كانت راضية بقَدَرها، وبالحياة التي رتّبتْها أمّها لها: الخدمة في بيت السيّدة ليللا وعائلة الفاليبي، الحفاظ على اسم العائلة حتّى الموت مقابل أن تدفع السيّدة ليللا علاج أختها المريضة، وكانت تدّخر راتبها، لتجهيز أختها وتزويجها، ثمَّ رعاية أبناء شقيقتها.

أمّا بالنسبة إليها، فكانت تسعى للحصول على المتع المسموحة لها داخل تلك الحدود".

_ وما دَخْل أوراتسيو بذلك؟"

"كانت منولارا في شبابها تشعر بحاجة شديدة إلى العاطفة، وكانت تتوق إلى المتع الحسّيّة، ولكنها كانت متّزنة. كانت العلاقة الحميمة مع

أوراتسيو، وخاصّة في بدايتها، تمثّل لها شيئاً خاصّاً: سلاحاً لإجبار السيّدة ليللا على الاعتناء بأختها التي أُجبرت على الحياة مع اليتيمات في دَيْر الراهبات. كانت ليللا تحرّم على أدولارتينا من المجيء إلى البيت خوفاً من العدوى، لذلك كانت اليتيمتان تلتقيان نادراً وفقط في الدَّير".

قال الطبيب: "لقد أخبرتُ السيّدة ليللا مرّات عديدة بأن أدولارتينا لم تعد حاملة للعدوى، وكنتُ أرى في ذلك المنع قسوة وغباء. أذكر حديثاً مع منولارا أدمى قلبي. كانت قد أتمّت لتوّها الخامسة عشر، وذات يوم طلبتْ أن تحدّثني على انفراد. أخبرتْني بنبرة جادّة أنها قد ادّخرت بعض النقود، وطلبت أن أعِدَها بإخبارها إن كانت صحّة أختها قد تدهورت أو كان يلزمها بعض الأموال لشراء الأدوية، وأنها مستعدّة لدفَع ثمنها. في الحقيقة لم يكن ذلك ضرورياً، لأن السيّدة ليللا كانت تدفع لعلاج أختها بسخاء، وقد أدهشني ذلك نظراً لمعرفتي ببخلهم". ثمَّ أضاف الطبيب: "أبتاه، اسمحْ لي أن أُخبركَ أنني لا أفهم كيف أمكنها ابتزاز سيّدتها وهي اليتيمة الوحيدة ... في ذلك الوقت كان استغلال السيّد الصغير للخادمة من الأمور العادية تقريباً".

لفت الأب أرينا نظره:

"لماذا لا يكون بسبب ذعر السيّدة ليللا من أن يُصاب أوراتسيو وفينشينسو بما أُصيب به الأب؟! فكِّرْ سيادتكَ في ذلك."

"أمراض جنسية، تسبّبها العاهرات المريضات المسكينات." فهم الطبيب وشَعَرَ بتوافق مع القِسّيس.

أضاف الأب:

"بالضبط. فوجدت للابن الأكبر والمفضّل - إذا سمحتَ لي - العاهرة النظيفة في المنزل، والتي كان يمكنها أيضاً رفض ممارسة الجنس معه، وفي ذلك تكمن سطوة منولارا".

قال الطبيب ميندكو معترضاً على حُكم الأب أرينا القاطع:

"أستبعدْ أن تقبل منولارا، التي أعرفها، وضعاً مثل هذا".

"يا دكتور، أنا أيضاً كنتُ أحبّ منولارا واحترامها. اسمع، هذه هي كلمات منولارا التي قالتْها لي، وكانت سبباً في اختلافنا". كانا قد خرجا من البلدة وابتعدا عن الآذان المتطفّلة، وكانا يتحدّثان بحُرِّيَّة. وتحدّث القِسّيس أرينا بطلاقة غير مبالٍ بالتلعثم الذي ينتابه من حين لآخر، فيخنق كلماته:

"حاولْ أن تفهم، سيادتكَ على دراية بالإجهاض وهو ما كنتُ أجهله أنا. أعرف اضطراب النَّفْس وتعقيداتها كما تعرف، سيادتكَ، الأجساد التي تعالجها. كانت منولارا ذات عقل يفكّر ويثير التساؤلات، كانت خجولة ومتحفّظة وتعمل خادمة. لم تكن تجد الراحة في صحبة الخَدَم، وكانت تشعر بالوحدة. وكانت المعرفة عن طريق القراءة هي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يُرضيَ فضولها. وبالنسبة إليها كان أوراتسيو هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى ذلك . كنتُ أتأمّل مكتبته اليوم. في تلك الحجرة وجدتْ منولارا أترابها. وجدتْ عالمها وهي الخادمة البسيطة اليتيمة، الحبيسة في بيب الفاليبي. كانت أيضاً شابّة، ولم تكن متديّنة. قبلت اهتمامه بها، أو أغرتْهُ، أو ربمّا كان حبّاً متبادلاً بين شابّ وفتاة، لا أدري. أعلم أنها كانت تمثّل له أحد طُرُق التسلية العديدة، أمّا بالنسبة إليها، فكان فرصتها الوحيدة للتعلّم، للحُرِّيَّة الفكرية. أعرف جيّداً ضعف الإنسان. وكما قلتُ لسيادتكَ، لم يكن لديها الوازع الديني". غمغم الطبيب: "فهمتُ. فضلاً عن أنها كانت تقوم بدور يمكنني أن أسمّيه "عازل طبّي". وبالتأكيد كان ذلك مقبولاً ومحبّباً للسيّدة ليللا، التي كانت مصابة بوسواس المرض. لذلك أهدتْها حقيبة مليئة بالقِطَع الذهبية، ولم تعترض على إجراء عملية تعقيم لها".

صدّق الآب أرينا على كلامه بمرارة: "بالضبط، كي يستطيع أوراتسيو

إرضاء رغباته وشهواته معها دون اللجوء إلى عاهرات قد ينقلنَ له المرض. وقد تشاجرنا، لأن طاهية عجوزاً من بيت الفاليبي - رحلت الآن عن عالمنا - كانت قد أحسّت بالذَّنْب نحو منولارا وتحدّثت معي. كانت هذه المرأة قد مرّت بعلاقات كثيرة مع الرجال، فقد كانت من تلك النساء اللواتي يحملنَ جمر النار تحت تنُّوارتهنّ، بيد أنها كانت ملتزمة في مظهرها ومتديّنة، وكانت أيضاً طاهية ممتازة؛ أفضل من الطهاة المحترفين. تولّت منولارا بالرعاية، وكانت تتحدّث معها بحُرِّيَّة أيضاً عن بعض الممارسات التي قد تؤذي الصحّة وتلك المخالفة للطبيعة. ثمَّ شعرت بالندم، فقد خشيت أن تطبّق الفتاة ذات السادسة عشرة ما قالتْهُ لها مع أوراتسيو.

تحدّثتُ مع منولارا، وكنتُ أشعر بقلق حقيقي عليها. ولكنها ردّت بشكل عنيف. ردّ من تلك الردود التي خلقت العداء بينها وبين أشخاص كثيرة. قالت لي إن قَدَرها أن تبقى في بيت الفاليبي وتخدم أصحابه. ولا تريد أن تقضيَ حياتها دون التمتّع بما يُتاح لها، وهو القليل. أوراتسيو كان لطيفاً معها ويحترمها كعشيقة ويقبل رفضها. فذلك أيضاً جزء من عملها، وهي تريد أن تؤدّيه جيّداً، بل وتُحسن أداءه. وفي الوقت نفسه يجب أن تحافظ على صحّتها. فإذا فقد أوراتسيو الرغبة فيها، سيلجأ إلى العاهرات، وقد يصيبها بالمرض. وهي تحرص على صحّتها أيضاً". تلعثم الأب أرينا في أثناء الحديث، فقد كانت ذكريات مؤلمة.

فكّر الطبيب ميندكو بصوت عالٍ: "استمرّت العلاقة بينهما إذاً في أثناء زواج أوراتسيو، وهو ما يدلّ عليه الإجهاض. وفي ذلك الوقت، كانت لديّ الشجاعة للحديث معها عن ذلك بصفتي طبيبها المعالج. كنتُ أريد إقناعها بالعدول عن عملية التعقيم، وبأنه يمكنها الزواج وإنجاب أطفال وتكوين عائلة. بدت مستاءة كما لو كنتُ أقترح عليها خيانة زوجها، تصرّفت مثل زوجة مُحِبّة. كانت تقول إن ذلك هو الطريقة الوحيدة للمحافظة على العلاقة بينهما. ولكنْ، على العكس؛ بدأ أوراتسيو في تلك الفترة واحدة

من أكثر علاقاته العاطفية تأجّجاً، ثمَّ أتت علاقات أخرى، كما نعرف. ومنذ ذلك الحين، ذبلت منولار مثل زهرة حُرِمَت من المياه". علّق الطبيب وهو ينظر إلى القِسّيس: "بينما كنتَ تتحدّث حضرتكَ عن علاقة حميمية بينهما في السنوات الأخيرة من حياة أوراتسيو، طبقاً لما قاله أنجليو ماسكولو".

"الآن أفهم التغيّر الذي طرأ على منولارا في ذلك الوقت".

قال الأب أرينا:

"كانت تُقلقني. كانت وحيدة. فقدت متعة الحياة، ولكنها لم تفقد الطاقة والإرادة والرغبة في العمل. استمرّت فقط في الذهاب إلى كورال كنيسة "لادولوراتا"، والذي كانت قد بدأتْهُ عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة. كانت تغنّي جيّداً، وتقف بين الراهبات بعيدة عن أنظار الآخرين. كنتُ أراها هادئة لفترات قصيرة. ربمّا كان أوراتسيو يعود اليها بين عشيقة وأخرى، وربمّا كان ما علّمتْهُ لها الطاهية سبب عودته المستمرّة إليها. لا أدري. أو ربمّا كانت قد نسيتْهُ وفهمتْ أخيراً أنه لا يستحقّها".

قال الطبيب ميندكو مؤكّداً:

"دون شكٍّ، لم يكن أوراتسيو جديراً بمنولارا".

أضاف الأب أرينا:

"حضرتكَ تعلم أنني كنتُ أكتب لها الرسائل. كنّا قريبين جدّاً، وكنّا نتقابل كثيراً إلى أن تركتِ الأبرشية. كانت تشعر بالامتنان لأوراتسيو، لأنه سمح لها بأن تتثقّف في الفنون والآداب والموسيقى. وكانت تعشق نزواتِه الفكرية وهَوَسَهُ. لا أعلم إن كنتَ تعرف ذلك: كانت منولارا تنظّم مجموعاته. تعلّمتْ فهرستها، وكانت تقرأ النصوص الصعبة أيضاً لتساعدَه.

كانت تُصاب بالإحباط في كلّ مرّة يهجر فيها أوراتسيو نشاطاً بدأه

في منتصف الطريق، ليجريَ وراء اهتمام آخر. أعتقد أنها واصلت وحدها دراسة الخزف في الحضارة اليونانية القديمة لسنوات.

كانت، صدّقني، أذكى شخص صادفتُهُ في حياتي". الآن وقد أصبحا في الطريق العامّ، جلسا فوق سور صغير من الأحجار، ليستريحا.

واصل الأب أرينا حديثه: "ناقشتْ معي إن كان من المناسب أن تعرض القيام بإدارة الممتلكات، لتُنقذَهم من الانهيار الاقتصادي، فقد كانت تشعر بذلك كواجب تجاه السيّدة ليللا والعائلة. كانت تتحدّث بتسامح وحيادية وهدوء عن مغامرات أوراتسيو العاطفية، وتحكي عن الهدايا الباهظة التي كان يقدّمها لعشيقاته. كانت تتحدّث كزوجة مُنهَكَة، وليست جريحة من خيانته. كنتُ أشعر بالقلق من عبء المسؤولية التي كانت تريد تحمّلها فضلاً عن عملها كخادمة في البيت. كنتُ أخشى من ردّ فعل الناس، وخاصّة في الريف أمام قيام الخادمة بالإدارة.

كانت تقول: واجبي أن أخدمَهم وأنا قادرة على ذلك. لم أخترْ سادة أقلّ منّي قُدرة. هم سادة، وقَدَري خِدْمتهم".

اختتم الطبيب منيدكو:

"لا ندري إن كانت قد أحبّتْهُ كزوجة تسامح زوجها على خياناته أم كعشيقة أم كخادمة ممتنّة، لأنه سمح لها بالدخول إلى عالم الثقافة. يبقى أن إخلاصها له كان حقيقياً، وأصدّق ما لاحظه أنجيلو ماسكولو. إن كانت قد قتلتْهُ، فقد فعلت ذلك وهي تفكّر فقط في مصلحته."

أضاف الأب أرينا:

"ليغفر لها الله" وقد تذكّر أنه بشر أيضاً، وأنه مخطئ، ففكّر أنه يجب عليه أن يطلب المغفرة على إساءته لذكرى أوراتسيو في اليوم السابق، عندما تحدّث مع أنجيلو ماسكولو، مدافِعاً عن سمعة منولارا.

غمغم الطبيب:

"يبقى ذلك اللغز حول أموالها. في بعض الأحيان، أعتقد أنها قصّة اختلقتْها عائلة الفاليبي، وأنها لا تملك إلّا القليل من المدّخرات".

"بما إننا نميط الآن اللثام عن الأسرار كلّها، سأُخبركَ أنا، يا سيادة الطبيب، بسرّي. كانت ثرية ومنذ زمن. ليس لديّ فكرة من أين أتت بهذه الأموال كلّها، ولكني كنتُ أكتب لها رسائل كثيرة للبنك، وكانت سخيّة. تخيَّلْ أنها أنفقت على دراسة ابني لمدّة سبع سنوات دون أن تُخبر أحداً، وساعدت أشخاصاً كثيرين في السرّ".

قادتْهم أقدامهم إلى مسافة بعيدة، ثمَّ رجعا إلى روكاكولمبا صامتَيْن، وقد غرق كلٌّ منهما في أفكاره.

49. خطاب أوارتسيو الفاليبي لبيترو فاتا

كان الرئيس فاتا يجلس حزيناً فوق مَقعَده في المكتب، مباعِداً بين ساقَيْه، ويداه تتدلّيان من ذراعَي المَقعَد، وعلى يمينه أوارق سُطِّرت بخطٍّ دقيق جدّاً، وتصعب قراءتها. كان ينظر من الشرفة وقد شردت نظرته في الفراغ. اهتزّ لصوت لوتيشيا التي كانت تُخبره بوصول الأب أرينا. أمسك بخطاب اورتسيو الذي كان ينزلق من أحد كُتُب دانونسيو التي حملتْها له السيّدة ريسيكو، واستعدّ لمقابلة القِسّيس.

كانت ليللا الفاليبي قد هاتفتْهُ لتُخبرُهُ على استحياء أنهم تلقّوا خطاباً ثانياً من منولارا، كانت تُخبرهم فيه بمكان المزهريات الحقيقية، والتي للأسف كسروها في اليوم السابق معتقدين أنها نسخ أخرى من المقلَّدة، وقد اشتدّ التوتّر وتبادُل التُّهم بينهم، لدرجة أنهم تشاجروا مرّة أخرى. وهي الآن في طريقها إلى روما، وتوصيه بأمّها وكارميلا.

كان بيترو فاتا شخصاً متّزناً وهادئاً. وفي تلك الحالة كان بحاجة إلى التنفيس عمّا بداخله وطلب النصيحة. للحديث عن منولارا وأوراتسيو، كان يحتاج أن يفهم. تحدّث طويلاً مع الأب أرينا، وأخبره أيضاً عن خطاب صديقه، وكأنه كان يعترف. قال له القِسّيس ما يكفي لمواساته، ولم يضف شيئاً. سأله فقط سؤالاً واحداً: "أخبِرْني، أيُّها الرئيس، هل كانت منولارا تحبّ المحامي؟"

"لا أعرف. وكما يبدو من خطاب أوراتسيو، لم يكون هو نفسه يعرف. وهذا يشغلني أيضاً".

"لا تفكِّرْ بالأمر، لن نعرف أبداً. لقد كان ما كان، ليرحمهما الله". اختتم القِسّيس حديثه.

ذهبا إلى الترّاس في انتظار تقديم الغداء. وبعد انصراف الأب أرينا، عاد بيترو فاتا، وأعاد قراءة الخطاب.

"صديقي العزيز بيترو،

سيصلكَ خطابي بعد موتي وموت المرأة التي كذبتُ عليكَ من أجلها. على أعتاب الشيخوخة، وجدتُ السعادة في اللقاء الرائع مع المرأة التي ظلّت دائماً بجانبي، ملاكي الحارس وملهمة سنوات وحدتي الطويلة. لم تشأ أن أُحدّثكَ عن حبّنا، ولكنها سمحت أن أكتب لكَ. وبذلك أستعيد بعد موتي الصِّلَة الروحية والتوافُق النَّفْسي الذي ميّز صداقتنا، وجعل بفضلها الحياة محتملة، بل وسعيدة في روكاكولمبا.

لقد عشتُ حياة خاصّة، كنتُ أهرب من أيّ مسؤولية. حياة إقطاعي يعيش بين صالونات الإقليم مبذّراً بإهمال ثروة العائلة والإسراف فيها. كانت لديّ العديد من العشيقات كما تعرف.

تابعت اهتماماتي الأدبية والفنّيّة والموسيقية بشكل متقطّع وسطحي، مستمتعاً بسمعة لا أستحقّها للرجل واسع الثقافة. أموت وقد عشتُ حياة يمكن وصفها بحياة مشبَعة، ولكني لا أفخر بها. وقد استمعتُ بذلك كلّه بفضل إخلاص ومثابرة المرأة التي أحبّها.

لقد وصفتُها لكَ بالفتاة المراهقة التي اكتشفتُ معها المتع الحسِّيَّة، ثمَّ أصبحتْ بعد ذلك الأنثى التي أُقيم معها علاقة جنسية، فقط كلّما شعرتُ بالرغبة وكانت علاقة مُشبِعَة لكلَيْنا. وصفتُها لكَ أيضاً بالماكرة والمديرة الأمينة لثروتي، مساعدتي الدؤوب في فهرسة مجموعاتي وتنظيمها، شريكتي في الكذب والاحتيال لإخفاء مغامراتي العاطفية وخيانتي لزوجتي، المخلوقة الوحيدة التي لم تطلب منّي شيئاً أبداً، والتي نفّذت كلّ ما طلبتُهُ منها. تعلم أنني كنتُ أثق بها ثقة عمياء، وكنتُ محقّاً في ذلك. لمدّة ثلاثين عاماً تقاسمنا الحياة اليومية في أدوار السيّد والخادمة. منذ خمس سنوات فقط أدركتُ أنني كنتُ أحبّها وأنني أحببتُها دائماً، والنساء الأخريات كلّهنّ كنّ يتضاءلنَ أمامها. في الماضي، كنّا نتناقش في أدقّ تفاصيل علاقاتي، إغراء النساء وغوايتهنّ: كانت متعتنا المشتركة. لا أجرؤ أن أدنّس حبّي الحقيقي بذلك الشكل. لكن المودّة التي تجمعنا تحتّم على أن أحدّثكَ عن حبّي في ريعان الشباب، والحبّ التي وجدتُهُ في كهولتي، وأعلم أنكَ ستُدرك الباقي. كانت في الثالثة عشرة، وكنتُ في السابعة عشرة، كان الإعجاب متبادلاً وتدريجياً. أتذكّر في ضباب الذكريات، أنها شعرت بالانجذاب نحوي بحُكم تقديري للظروف التي تعيش فيها، وقد اقترن ذلك بفضولها الفكري والحسّيّ؛ جزء أساس من طبيعتها. وفي بادئ الأمر، كنتُ أعتبر لقاءنا لعبة حسِّيَّة بسيطة، ثمَّ أصبح حبّاً، ثمَّ عشقاً حسِّيّاً قوياً.

كانت بداية الإجازة الدراسية الطويلة، وكنتُ متحمّساً حماس المبتدئين للنظّارة المعظّمة المنشورية. كنتُ أصعد إلى ترّاس الغسيل، أعلى ترّاسات المنزل، وأنظر من خلالها. كنتُ أراقب الطُّرُق والترّاسات والشرفات في روكاكولمبا كلّها. كنتُ أجلس في أكثر الأركان خفاء، بعيداً عن الغسّالات وصفوف المُلاءات المنشورة. كان يوماً شديد الرياح، وكان الغسيل المنشور ينتفخ بالهواء، ويتجعّد أمام هبوبه وضرباته القوية. عندما كان يغيّر الريح اتّجاهه، كانت الشرائط التي تربط المُلاءَات والأسمطة بالخيوط الحديدية تتطاير من ناحية إلى أخرى، وتتكوّر العُقد الكبيرة ناصعة البياض. كنتُ أراقبها مأخوذاً، كانت تمثّل تغيّر الطبيعة، فالسماء كانت تبدو وكأنها البحر في وسط العاصفة، تعبرها حشود من السُّحُب المتقلّصة بسرعة كبيرة مثل زبد ثائر لأمواج عاتية. وكانت قِطَع الغسيل تبدو مثل أشرعة سفن حربية تواجه الخطر وقد اجتمعت، لتحميَ نفسها من قوى الطبيعة الغاضبة.

حَدَثَ أن هبّت رياح قوية شقّت الغسيل، فرأيتُها نحيلة، صغيرة. كانت تغسل في حوض من الخشب دون أن تشعر بوجودي، غير مبالية بضربات الرياح القوية. كانت تؤدّي عملها بتركيز ونشاط.

كانت تفرك القِطَع المنقوعة في المياة والصابون بقبضتَي يدَيْها، وتعصرها قطعة قطعة، ثمَّ تفتحها وتدعكها بحركات منتظمة فوق قطعة الخشب المائلة، ثمَّ تنفضها فوق طاولة الغسيل المتعرّجة، غير مبالية بالرياح التي كانت تنفش وتنفخ شَعْرها المجعّد، فتنسدل خُصلاته الطويلة وتتطاير مثل قناديل البحر. جلستُ القُرفُصاء فوق الأرض، كي لا تراني.

كانت ترتدي قميصاً داخلاً فاتح اللون وقد بلّلتْهُ رشّات المياه. وجّهتُ النظّارة المعظّمة نحوها مبهوراً بحركه جسدها المتناغم وثديَيْها الصغيرَيْن المدبَّبَيْن وذراعَيْها المتناسقَتَيْن الفضّيّتَيْن. كانت جميلة. فطنتْ لوجودي، وابتعدتْ عن حوض الغسيل. بعد أن خرجتْ ودخلتْ إلى غرفة الغسيل، عادت بعد دقائق قليلة ترتدي الزّيّ الرمادي للخَدَم، وعاودتِ العمل. تركتُ النظّارة، ولكني لم أستطع أن أرفع نظري عنها.

استمرّت في العمل غير مبالية، انتقلتْ إلى حوض غسيل آخر بيضاوي الشكل، كانت تغطس داخله القِطَع المغسولة المعصورة بلفّها جيّداً، ثمّ تجفّفها بقوّة. أعادت ذلك العمل مرّتَيْن ملقية بالماء فوق الأرض، كانت تنحني لرفع سطول المياة النظيفة، لتملأ بها الحوض، رانية إليّ بنظرات طويلة من حين لآخر.

هدأتِ الرياح. تقدّمتْ عندئذ بين صفوف المُلاءَات لتُسوّيها. حلّت العُقد التي تكوّنت، ثمَّ فردتْها بتنفيضها في الهواء، ثمَّ شبكتْها جيّداً بالخيط الحديدي، كانت تراقب السماء – البحر الذي عاد لطبيعته، اللون الأزرق الغامق المضيء الذي تقطعه غيم رقيق مثل شوشات القطن. عندما وصلتْ إلى آخر حبل، أخفضتْ عينَيْها إليّ، كنتُ لا أزال أجلس القُرفُصاء في الركن. نظرتْ إليّ بحذر، ولكنْ، دون خوف.

قالت مشيرة إلى النظّارة المعظّمة: "ما هذا؟"

أعطيتُها لها. أمسكتْها بيدها وأدارتْها من الجهات جميعها. حاولتِ النظر من الناحية الخطأ.

قالت: "علّمني كيف ينظر المرء فيها".

كان صوتها أجشّ ولُكنتها ثقيلة مثل الريفيِّيْن. نهضتُ وأطعتُها. سمحتْ لي بتثبيت النظّارة المعظّمة أمام عينَيْها لتعديل العدسة. كانت تفوح منها رائحة كلور لاذعة تُثملني، ومع ذلك لم أجرؤ على لمسها. أحسستُ بتوتّرها. كنتُ أُبعد ذراعَيّ عن كتفَيْها، ولم ألمسها على الإطلاق في أثناء إرشادها إلى تحديد وضع النظّارة، وضبط العدسات. استأثرتْ بالنظّارة المعظّمة، وراحت تتجوّل في الترّاس. كانت تحرّكها يميناً ويساراً، صامتة. عندما أعادتْها إليّ، سألتْني:

"كيف تعمل؟"

شرحتُ لها حركات العدسات وضَبْط زواياها.

" فهمتُ ذلك، ولكنْ، كيف تعمل؟ ماذا يوجد داخلها؟ وكيف تقرّب الأشياء إلى العين؟"

لم يكن لديّ إجابة جاهزة.

"اقرأِ الكُتُب، ثمَّ أخبرني، أنا لا أعرف القراءة، وليس لديّ كُتُب". وعادت لشَطْف الغسيل.

تركتِ الترّاس قبل أن تنتهيَ من الشطف، توقّفتُ عند مروري بجانبها. لم تكن تتوقّف عن الغسيل، ظلّت منحنية فوق الحوض، ولكنها أدارت رأسها نحوي، وكانت تنتظر أن أكلّمها. سألتُها إن كان وجودي يضايقها، فما كان منها إلّا أن أجابت قائلة: "أنتَ صاحب البيت. تستطيع أن تفعل ما تريد. أنا هنا خادمة بسيطة". عاودتُ السير ناحية الباب، وفي أثناء نزولي السُّلَّم صرختْ ورائي:

"إذا كنتَ تنوي العودة إلى هنا، تذكّرْ أن تجد في الكُتُب كيف يعمل ذلك الشيء".

عدتُ بعد ذلك مرّات عديدة. استمرّت في الغسيل مرتدية زِيّ الخَدَم، حتّى في الأيّام الحارّة. وظلّت حذرة في تصرّفاتها، وإن كانت تسمح لنفسها ببعض أوقات من الراحة، تشاهد خلالها البلدة بالنظّارة المعظّمة. كانت تراقب أشعّة الضوء من خلال العدسة المنشورية. وذات يوم قمتُ بتجربة باستخدام المرايا، ونجحتُ في إشعال النيران في أعواد من القشّ. وقد درستُ الموضوع جيّداً، كي أستطيع الإجابة عن أسئلتها. كنتُ قد بدأتُ الرسم، وسألتُها إن كنتُ أستطيع رسم اسكتش لها في أثناء قيامها بالغسيل. أجابت الإجابة المعتادة: "أنتَ السيّد، وأنا الخادمة". كانت تراقب محاولاتي بعين ناقدة. وقد نبّهتْني إلى أنني أخطأتُ رسمَ مَفْصِلِ الكتف. تجرّأتُ واقترحتُ أن ترتديَ فقط قميصها الداخليّ كي أتمكّن من رسمها أفضل. "لا، أنا هنا أعمل. اذهبْ إلى الصالون الأحمر، هناك لوحة بجانب المدفأة. انظرْ إليها. على اليسار، هناك امرأة في هذا الوضع. اذهبْ، شاهدْها وتعلَّمْ".

كانت محقّة، الوضع في اللوحة كان مطابقاً. أحضرتُ لها اللوحة بعد تعديلها. ضحكتْ منها قائلة: "لستَ ماهراً، انتظرْ". أغلقت باب حجرة الغسيل من الداخل، خلعت زِيّها، وبقيت بالقميص الداخلي في الوضع المطلوب. ثمَّ ارتدت ملابسها واستمرّت في العمل دون رفع مزلاج الباب.

أصبحتْ لقاءاتنا غير المخطّطة عديدة. لستُ أدري كيف استطاعت، ولكنها كانت تنجح في البقاء وحدها. كنتُ أرسمها في أوضاع تقليدية ومحتشمة.

كنتُ أساعدها في تعديل جسدها في الأوضاع المطلوبة، وشيئاً فشيئاً، أصبحتُ أكثر جرأة في لمس ذراعَيْها أو جِيدها. لم أجد منها صدّاً، كما لم أجد تشجيعاً.

أردتُ تنظيم إحدى المكتبات في حجرة المكتب في أثناء إجازة عيد الميلاد. وقد أعطوني خادمتَيْن لمساعدتي. وذات يوم كانت منولارا تساعدني وحدها. كنّا نعمل معاً في سكون، كما لو كان العمل هو الشيء الوحيد الذي يجمعنا. ارتقتْ سُلَّم المكتبة الخشبي الصغير، وكنتُ أناولها المجلّدات التي يلزم تنظيمها في الرفوف العليا. وعند لحظة معيّنة، جلستْ فوق آخر دَرَج السُّلَّم في انتظار المجلّدات الأخرى.

كنتُ أرى ساقَيْها العاريتَيْن، وقد انحسر عنهما الثوب في أثناء الجلوس. بقيتُ أنظر إليها بثبات وكبرياء. أدركتْ ذلك، بادلتْني نظراتي، ولم تتحرّك. واتتْني الشجاعة لأقول لها: "انزلي".

مارسنا الحبّ للمرّة الأولى. ومنذ تلك اللحظة أصبحتْ غرفة المكتب مكان لقاءاتنا الحميمية. اكتشفتُ إشباع الشهوة دون التزام أو إحساس بالذَّنْب، مع امرأة لا تطلب تفسيرات ولا تلومكَ. كانت علاقتنا مَبنيّة على التكافؤ بين رجل وامرأة في إشباع الشهوة، الهدف منها إرضاء الطرفَيْن. كنتُ أنا مَن يبادر دائماً، لم تكن توافق باستمرار، وإن كانت نادراً ما ترفض. في بعض الأحيان، لم أكن أبحث عنها لفترات طويلة، أعوام كاملة، وفي أحيان أخرى كانت لقاءاتنا تتعدّد.

كان اتّفاقاً سرّياً هادئاً، دون عاطفة واضحة من الطرفَيْن، كما كنتُ أعتقد، وكما كنتَ تعلم أنتَ أيضاً.

منذ خمس سنوات دعوتُ عشيقتي منذ فترة طويلة، والتي كنتَ تعرف بحكايتها، إلى تناوُل العشاء في البيت. تعمّدتْ منولارا إهانة زوجتي وعشيقتي بعد تقديم العشاء، وأتلفتْ السهرة. كانت المرّة الأولى التي تتصرّف فيها على هذا النحو. كنتُ في غاية

الغضب، وقرّرتُ أن أصعد إلى حجرتها لتعنيفها، وهو ما لم أفعله من قبل. كنتُ أشعر بأنها خانتْني وأهانتْني. كنتُ أرتقي السُّلَّم الحلزونيّ باتّجاه الطابق الأوسط للمرّة الأولى في حياتي، وكنتُ أستشعر أهمّيّة اللحظة. ومن شدّة حَنَقِي عليها، فكّرتُ في طردها.

وجدتُ نفسي في رَدْهَة مظلمة. كنتُ أسمع موسيقى من بعيد. كانت نهاية الفصل الثالث من أوبرا عايدة.

كانت كالاس تشدو عقب عزف آلة الأبوا بالإيقاع البطيء: "دعنا نهرب من جحيم هذه الأرض الجرداء".

كنتُ أستمع مشدوهاً، ساكناً. وجدتُ نفسي أجلس القُرفُصاء، وأستند إلى الحائط الذي انزلق ظهري بجانبه دون مقاومة .... "هناك بين الغابات البِكْر" ... كانت الموسيقى تصدح في المكان، تغمر الرَّدْهَة، تضغط فوق الأسوار التي كانت تنفرج قليلاً، فتغيّر تلك المساحة الضيّقة إلى منظر طبيعي ليلي رطب مخملي فائح بعطر رقيق .... أحسستُ بالعار ... انتابتْني دوّامة من الأحاسيس المتناقضة، وشعرتُ بأنني أفقد الوعي. كان ينمو في صدري إحساس بالدهشة يمحي وجودي: لم أفكّر أبداً أن لي روحاً. فُتح باب الغرفة في نهاية الرَّدْهَة فجأة، وانسابت الموسيقى في الرَّدْهَة. فُتح باب آخر، ثمَّ أُغلق. سمعتُ تدفُّق المياه، كانت تستحمّ. ظهرت بعد ذلك في كامل توهّجها، قبل أن تُطفئ الضوء، وتُغلق حجرتها. كانت ترتدي فقط روباً مفتوحاً من الأمام، بدت لي رائعة الجمال، وجهها هادئ، تحيط به خُصلات شَعْرها المنسدل. اقتربتُ من غرفتها، وكنتُ أشعر برغبة قوية في الدخول، ولكن الشجاعة لم تواتِني، خشيتُ أن تطردني، كنتُ أنا الظالم. "راداميس .. لحق بي العار ..".

بقيتُ مستنداً إلى السور. نهضت لتدير الأسطوانة، كانت خطواتها فوق الألواح الخشبية لأرضية الحجرة تُصدر صريراً. وُورب الباب. "كان الكهنة قد اجتمعوا" .. خشيتُ أن يُغلق الباب مرّة أخرى، ولكنْ، ربّما كانت قد خلدت للنوم. انتظرتُ قليلاً، ثمَّ دفعتُ الباب الذي انفتح محدِثاً صريراً .."اِبْرَأ نفسكَ" .. كان شعاع القمر الأزرق يسقط فوق السرير الذي ترقد عليه وقد تدثّرت بمُلاءة خفيفة. كنتُ أستمع واقفاً عند الباب وقد ثبَّتُّ عينَيّ فوقها ..."اِبْرَأ نفسكَ" ..

غطّت وجهها بذراعها المثنّى، فلم أدرِ إن كانت مستيقظة أم نائمة. بكيتُ دون أن أدري. أدركتْ هي ذلك، أدارتْ رأسها نحوي وقالت: "لا تبكِ، واستمعْ" ثمَّ عادت تخبّئ وجهها في الوضع نفسه. استمعتُ، استمعتُ إلى أن سكنت الأسطوانة فوق الجهاز.

كنتُ مثل المشلول

سألتْ: "ماذا تريد"؟

"هل يمكنني البقاء هنا؟"

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

"لا، يجب أن أستيقظ غداً مبكّراً للعمل. اذهبْ للنوم، فالوقت متأخّر للجميع".

بكيتُ تلك الليلة طويلاً فوق أريكة لقاءتنا في حجرة المكتب. وعند الفجر، كتبتُ خطاب وداع لعشيقتي.

رأيتُها في اليوم التالي، قدّمت لي القهوة كأن شيئاً لم يحدُث. كانت ترتدي مريلتها الرمادية المعتادة، وقد عقصت شَعْرها على شكل كعكة، كما تعوّدت دائماً. كانت خالية من الحسن، والرقّة. وأيضاً هكذا كنتُ أحبّها.

كنتُ مضطرباً، خائفاً مثل صبيٍّ مراهق يحبّ للمرّة الأولى، حائراً لا يدري كيف يخطو خطوته الأولى نحو حبيبته وينتظر تشجيعها. وفي الغالب أدركتْ ذلك، لأنها قالت باقتضاب:

"إن أردتُم يمكنكم الذهاب إلى حجرة المكتب، بعد الغداء". ومنذ تلك اللحظة وجدتُ السعادة. كنتُ أعيش من أجل تلك الساعات الحميمية القليلة التي يسمح بها عملنا معاً في حجرة المكتب. كنتُ مستعدّاً لفعل أيّ شيء من أجلها، كي نعيش معاً وحدنا. كنتُ مستعدّاً لترك البيت والعائلة. ولكنها منعتْني. في البداية، كنتُ أخشى من أفول حبّها لي، وأن يكون هجراني الطويل قد دمّر كلّ شيء. ولكنها كانت تؤكّد أننا مختلفان: فالسادة ينظرون للحياة بشكل يختلف عن نظرة الخَدَم. كانت في أيّامها كلّها تبرهن عن حبّها لي، إلّا أنها لا تستطيع أن تقول "أحبّكَ". كانت متأكّدة من عودتي إليها، وإن كانت لا تدري متى. درستْ وحدها وتعمّقتْ في الفنّ اليوناني من أجلي، بل إنها تفوّقت عليّ. سمحتْ لي باستخدام الاسم المستعار "السيّد منولارا" في المراسلات مع خبراء الآثار، بينما تمنّيتُ أن يقترن اسمانا في العلن. ستبقى مجموعات الخزف اليوناني الشاهد الصامت على حبّنا وعلى قصّتنا. سأموت وانا أشعر بالأسى، لأن الناس لم تعرف الخصال غير العادية لتلك المرأة وحبّي لها".

نهض بيترو فاتا متثاقلاً من مَقعَده، ممسِكاً بالأوراق في يده، وكأن الانفعال أثقل جسده.

بحث عن أعواد الكبريت في درج المكتب، ثمَّ عبر الحجرة وهو يقيس خطواته ودون أن يصدر أيّ ضجّة. نظر فاتا إلى قصاصات الورق للمرّة الأخيرة. ووجد أنه كان مكتوباً بالحبر الأخضر خلف أصغرها: "تركّب الصورة

بترتيب 1-3-9 ثمَّ 2-5-8 وأخيراً 4-7-11 دون نهاية. وعند جمع القِطَع سوف يظهر الجسد المتناسق لحبيبتي. يجب أن تُحرق هذه القِطَع أيضاً".

في ذلك العام في بيت فاتا، أشعلتُ المدفأة قبل المعتاد.

50. في بوّابة دون فيتو ميليتيللو يتمّ تحليل الوضع

كانت لوتيشيا قد انتهت بسرعة كبيرة من شراء متطلّبات منزل فاتا من السوق، كي تستطيع الذهاب إلى أعمامها دون باولينو ودونا ميما، دون إثارة فضول ماريانا، الخادمة الأخرى.

كان دون باولينو في المنزل بينما ذهبت العمّة إلى الإسكافي لاستلام حذائها بعد تغيير نعله. قال دون باولينو: "سترين أنها ذهبت لتستمع إلى الشائعات، فدكان عمّ جاكمو في حارة جوتسي. لا تنتظريها، ستظلّ هناك لساعات. وأنا لن أتناول وجبة ساخنة اليوم أيضاً". تبادل العمّ مع ابنة أخ الزوجة آخر الأخبار والمعلومات عن أحوال عائلة الفاليبي، وعادت لوتيشيا إلى البيت مسرورة. كانت تلك القصّة بالنسبة إليها أكثر إثارة وتشويقاً من المسلسل الذي سمحت لها عائلة فاتا بمشاهدته، ولكنْ، من بعيد جالسة، فوق مَقعَد صغير ملتصق بالحائط، بينما تجلس السيّدة في الصفّ الأوّل، في المَقعَد المريح أمام التليفزيون الجديد.

عادت دونا ميما متأخّرة دون الحذاء: "لم يستطع المسكين الانتهاء من العمل. أوّلاً بسبب الصخب المجنون الذي أثارتْهُ عائلة الفاليبي، وثانياً لأنه كان عليه أن يحكي ويرضي الأشخاص كلّهم الذين توافدوا إلى دكّانه لمعرفة ما سمعه".

"وماذا سمع؟"

أجابت ميما:

"كانوا غاضبين من المسكينة منولارا وقالوا عنها .... كلمات يقشعرّ لها البدن: لصّة، محتالة، بل وربمّا لقّبوها بعاهرة. أخوة وأصهار تبادلوا السباب والاتّهامات فيما بينهم. اسمعْ، لنذهب إلى بيت أختي لتناوُل الطعام، وهناك سنعرف أكثر".

كان الأصهار الأربعة يتحدّثون بسرعة في بوّابة قصر تشفيليا، منتهزين فرصة عدم وجود زائرين. كانت دونا إنزا في ذلك الصباح قد صعدت إلى الدَّور الأوّل لمساعدة الخادمات في ترتيب خزانة البارونة، على أمل أن تسمع بعض الشائعات. وقد حصلت على مرادها. فقد كان لدى السيّدة أخبار أخرى عن حديقة بارينو، وسيّارة موظّف البريد جاسبري ريسيكو وما لحق بهما من أضرار. "تحذير" كما تقول البارونة لمَن يتحدّث كثيراً وبسوء عن منولارا.

قالت دون إنزا:

"لم تكن تذهب إلى الكنسية كثيراً، فقط في حفلات الكورال. لا بدّ أنه لها قدّيس يحميها دائماً".

أضاف دون فيتو:

"نعم، قدّيس يرتدي بنطلوناً وقبّعة، ويمسك بندقية. بينما أفراد عائلة الفاليبي لا بدّ وأنهم ممسوسون، فأمورهم كلّهم مضطربة. فقد مرّت سانتا منذ قليل وحَكَتْ أنهم حطّموا بالأمس كلّ ما يمكن تحطيمه في مكتب المحامي وتشاجروا، ثمَّ وصل خطاب اليوم أخبرهم أنهم حطّموا الأشياء الخطأ، فعادوا وتشاجروا من جديد. هم سيّئوا الحظّ، ومع ذلك يصبّون جام غضبهم على منولارا".

وعلى الرغم من غزارة تفاصيل المشاجرة بين أفراد عائلة الفاليبي إلّا أن أهالي البلدة كانوا قليلاً ما يتحدّثون عن المزهريات المكسورة ومصدر

الحصول عليها. دون باولينو، وعلى العكس، كان يمعن التفكير في ذلك الأمر:

"إن كانوا قد أرسلوا تلك المزهريات إلى المتحف، فذلك يعني أنهم كانوا يعتقدون أنها أصلية وذات قيمة. وبالتأكيد تلك القِطَع تخصّ منولارا. إذنْ، هي مَن طلبت منهم أن يُرسلوها إلى المتحف. أذكر أنهم كانوا يقولون إنها لعبة منها للاستهزاء بهم. ولكنْ، لا يمكن توقّع ذلك منها، ليست من ذلك النوع، ليست من النوع الذي يمزح أو يستهزئ، لم تكن لتضحك على أمر مثل هذا. ربمّا كانت الآنية حقيقية، ولم يقرؤوا جيّداً خطاب المتحف أو ربمّا أخطؤوا بالمتحف".

قالت دونا إنزا: "ولكنْ، لماذا يغضبون منها إن كانت قد أخطأت؟ هي لم تكن أستاذة. على العكس كانت تعرف الكثير بالنسبة إلى خادمة".

ردّ دون باولينو:

"لا، أنتِ مخطئة، يا إنزا. عندما جرى التنقيب في فيلاّ كاسلا كان المحامي لا يزال شابّاً، وقد استهوتْهُ القِطَع الأثرية اليونانية القديمة. ثمَّ بدأ التنقيب في كانيللي أيضاً، في أملاك قيّمة، باعوها بعد ذلك. كانوا يتحدّثون عن وجود مدينة قديمة كاملة تحت تلك الأراضي. وقد وجد المحامي قِطَعاً من الفخّار المكسور، وأخذها إلى البيت. كانت المسكينة منولارا تعمل في الليل، وكانت المنضدة في الغرفة المجاورة لحجرة المكتب تبدو وكأنها موزاييك، وقد وُضعت فوقها القِطَع الفخّارية كلّها. كان عملاً مضنياً، ولكنها كانت حادّة البصر، ونجحت في لَصْقها وتجميعها، فكانت تبدو قِطَعاً كاملة. ثمَّ أصاب المحامي هَوَسٌ جديد، فهجر هذه الهواية، ولكن منولارا كانت تتسلّى بإصلاح الآنية القديمة التي بقي منها الكثير، وقد رأيتُها وهي تبحث في الكُتُب المصوّرة. كانت الصور تُعجبها".

علّق دون فيتو: "امرأة مسكينة كانت تتسلّى بقِطَع الفخّار المكسورة. بالمناسبة، هل تعرف أن دون لويجي فيكاري قد مات هذا الصباح؟"

بادره دون باولينو:

"أكان لا يزال حيّاً؟"

"نعم، كان قد تعدّى التسعين، أخبرني بذلك حفيده الذي مرّ بالبوّابة يوم الأربعاء. كنتُ أحكي له عن الجنازة. قال إنه ظلّ واعياً محتفظاً بذاكرته، وإن كان لا يغادر الفراش، ثمَّ مات في أثناء النوم .. يالها من ميتة هادئة!"

قالت دونا إنزا:

"أيّ ميتة هادئة؟! لقد قالت لي ابنته إنه كان يهذي منذ يوم الخميس الماضي، وكان يخشى أن يقتلوه. مات رعباً، وقد أصابه جنون الشيخوخة. المسكين!".

علّق دون باولينو:

"آه، هذا ما يحدُث غالباً. ولكنه كان قد فتح دكّاناً، وأثرى منه".

"أقول لكم إنه من الآن فصاعداً، لن يتحدّث أحد عن منولارا أو عن عائلة الفاليبي، وما قيل سيطويه النسيان. وسيختفي اسم الفاليبي من روكاكولمبا كلّها. الفناء مصير الجميع. الأمر بالنسبة إليّ سواء، ما لم يطردونا من بيتنا".

كان دون فيتو يوافقه الرأي: "لقد سمعتُ في هذه البوّابة كلّ ما يمكن أن يقال عن تلك المسكينة. ليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك. الناس تتحدّث كثيراً، وتفهم قليلاً". وبدأ يحكي وهو يعدّ القصص التي سمعها عنها على أصابع اليد اليسرى، ثمَّ اليمنى. "بدأ من أبيها، فقد قيل إنها ابنة غير شرعية لرجل من المافيا، جعلها تتربّى في بيت الفاليبي، كي يضع داخل البيت جاسوساً للمافيا. وهناك مَن يحكي إنها ابنة للأمير

برولي، وإن المحامي الفاليبي ضمّها إلى بيتها، كي يُخرس الألسنة، وأخذ مقابل ذلك أموالاً، أعطاها لها الأمير. بل يقال إنها ابنة المحامي جاني الفاليبي، وإن المرحومة السيّدة ليللا تحمّلت هذه الإهانة وربّتْها في بيتها، وكانت، إذن، أخت أوراتسيو الفاليبي، لذلك سمح لها بهذه السلطة كلّها في البيت. كانت ابنة الجميع ما عدا المسكين أباها، لويجي أينتسريللو. ولم يقل أحد إن أسنانها كانت بارزة مثله، كما كان لها عيناه أنفسهما. كان يكفي النظر إليها لتُدرك أنهما أب وابنته. كانت صورة من أبيها!

ثمَّ استمرّت الحكايات عن منولارا نفسها، والتي كانت عانساً، والآن جعلوا لها أيضاً أبناء. فهناك مَن يقول إنها كانت أمّاً لابن الأب أرينا غير الشرعي، وإنه أنجبه منها، وليس من خادمته، لذا تولّت الإنفاق على دراسته، ومَن يقول إن أبناء شقيقتها الذين يعيشون في إيطاليا هم أبناؤها من رجال لا يمكن الحديث عنهم، لذلك لا يأتون أبداً إلى روكاكولمبا ....".

خَتَمَ دون باولينو الحديث:

"الحقيقة أننا نعلم القليل، بل لا نعلم عنها شيئاً. كانت مجتهدة في عملها، وكان يعجبها إصدار الأوامر، ومن هنا بدأت المشكلات للجميع. فالسادة يعجبهم العاملين المجتهدين ولكنْ، ليس مَن يحاولون السيطرة عليهم. ولو كانوا استمعوا إليها، لزاد ثراؤهم، أمّا نحن، فسنبقى فقراء، ومهانين أيضاً عند وفاتنا".

51. دون فينشينسو أنكونا يعامل زوجته بخشونة

كان دون فينشينسو يشرب بصمت أوّل أقداح قهوة ذلك النهار الذي أعدّتْهُ له زوجته، جالساً فوق مَقعَد من القشّ، وُضع بشكل عرضي أمام منضدة المطبخ، متأهّباً للذهاب إلى أعماله في صباح الأربعاء 23 أكتوبر. كانت اللحظة التي يستعدّ فيها للعمل ويستعرض في ذهنه ترتيب

أولوياته، الماضي القريب والمستقبل الفوري. على الرغم من بلوغه الواحد والثمانين، وعلى الرغم من ضخامة جسده، إلّا أنه كان يتمتّع بصحّة جيّدة، ولا يزال يحتفظ بذاكرة حديدية، وهو أمر في غاية الأهمّيّة بالنسبة إليه، لأنه كان يقرأ ويكتب بصعوبة.

قطعت الزوجة حبل أفكاره قائلة: "سمعتُ أنكَ ذهبتَ في الشهر الماضي لحضور جنازة امرأة تُدعى أينتسريللو. اليوم ذكرى مرور ثلاثين يوماً على وفاتها. مَن كانت هذه المرأة؟"

"هذه الأسئلة يجب عدم توجيهها إليّ، اعتني بشؤونكِ، وفكّري في أولادكِ الفاسدين. اغربي عن وجهي!" ضَرَبَ دون فينشينسو قدح القهوة فوق المائدة، فتناثر ما بقي في الفنجان فوق مفرش المائدة البلاستيك، وخرج من المطبخ بخطوات ثقيلة. كان هناك رجلان في انتظاره في الصالة، وعند إشارة منه، سارعا إلى مساعدته على ارتداء السترة، وفتحا له باب البيت بصمت. كانت سيّارته ماركة "جوليتا ألفا روميو السوداء" جاهزة، والسائق في انتظار تشغيل المحرّك، لبدء رحلة طويلة نحو العاصمة.

ظلّ دون فينشينسو صامتاً متكدّر المزاج طوال الرحلة، بل إنه رفض الاستراحة التي كان يقوم بها في المكان المعتاد لراحة المسافرين لشرب قدح من القهوة، وأعطى أوامره بالسير بسرعة. كانت السيّارة تجري فوق الطريق المليء بالمنحنيات، هابطة من الجبال نحو المنعطفات الجبلية متخطّية سيّارات أخرى في المنعطفات ذات الاتّجاه الواحد. كانت ترتقي ثمَّ تهبط من جديد في المنحنيات المائلة، لتفتح الطريق مستخدمةً آلة التنبيه، متجاوِزة حدود السرعة، حيث كان السائق يمضي بثقة مَن يعرف أن لديه الأمان الكامل في فعل كلّ ما يحلو له. كان في ذلك السير الواثق إرثاً من السلطة والعنف، تربطه بالطُّرُق والمُدُن والأشخاص ما يشبه الألفة المتمرّدة، ثقة يعلم جيّداً أنها غير مستقرّة، تظهر وتختفي مثل ستارة المسرح. كانوا

يعبرون الجبال، حيث أراضي الإقطاعات الكبيرة للأمراء برولي، والتي كانت عائلة أنكونا تتزعّم المافيا فيها لسنوات طويلة. كان ذلك الطريق زاخراً بالذكريات وبالحنين للماضي، بالنسبة إلى دون فينشينسو.

تذكّر أيّام الصِّبا عندما كان والده دون جوفاني أنكونا يعلّمه المهنة التي أورثَهُ إيّاها، كما فعل جَدّه مع أبيه. مهنه تنتقل من الأب إلى الابن مثل ألقاب النبلاء، ويرثها الابن الأكبر دائماً. فقط دون فينشينسو لم ينلْ ذلك الفخر، فقد حرمتْهُ حماقة ابنه من تلك السعادة؛ الابن الذَّكَر الوحيد الذي خان قواعد المافيا، لأنه لم يتحكّم في شهواته. خطيئة لا تُغتفَر لرجل من المافيا.

في الحقيقة، لقد تقلّد ابنه الآن مناصب مهمّة، ولا يزال ينتمي إلى المافيا، إلّا أنها مناصب خارج صقلية، فحُرم أبوه من الاستمتاع بالقرب منه ورؤيته وهو يأخذ مكانه.

كان تافهاً، لم يكن سوى صبي تافه، على الرغم من أنه من دمه ولحمه! كانوا يمرّون بإقطاعية كانيللي، حيث اقترف الابن ذلك الفعل الشائن الذي غيّر حياته. لعن دون فينشينسو ما حَدَثَ قائلاً: "اللعنة على ذلك القَدَر!" عندئذ نظر اليه رفاق رحلته، وأبطأ السائق السرعة قلقاً. لكنه أصدر أوامره:

"وَاصِلِ السيرَ، كنتُ أفكّر في بعض شؤوني". رجع إلى الوراء، واتّكأ إلى ظَهْر المَقعَد، وأسند رأسه. وضع نظّارة الشمس، وحدّق نظره في الطريق. اجتاحتْهُ ذكريات الواقعة التي غيّرت حياة ابنه، وسبّبت له ولزوجته ألماً شديد. حَدَثَتْ منذ أكثر من أربعين عاماً، ولكنه يتذكّرها كما لو كانت بالأمس. مات والده، وهو لا يزال صبياً، إلّا أن دون فينشينسو كان قد تعلّم جيّداً، وكان يصلح تماماً ليأخذ مكان والده: الحارس الزراعي المزيّف لأراضي الأمراء برولي أمام السلطات، وزعيم المافيا المهاب لإقطاعيّاته وما يحدّها، وللأراضي المملوكة للعائلات البرجوازية والطبقة الأرستقراطية الصغيرة. كان

الجميع يخشاه ويحترمه، حتّى خارج الإقليم. وكان الكلّ يعرفه كرجل أمين، لا يمكن النيل منه، بعيد النظر، ومستعدّ للتوسّع في أعماله، والبدء في أنشطة جديدة. رجل مُحبّ لعائلته، شديد الإخلاص لزوجته. وكان ابنه جوفاني قرّة عينه، خاصّة وأن الابن أظهر من الذكاء والفطنة ما يؤهّله لخلافته. كان ذلك يُشعِرُه بفخر لا يحسّه إلّا الأب. كان يراه جميلاً قوياً، ويستشفّ تدفّقاً هائلاً لصفات الرجولة. وأكثر من ذلك، الدهاء والغطرسة، الإصرار والكبرياء. وهي صفات إن اختلطت ببعض الخبرة في الأعمال، لجعلت الابن مؤهّلاً تماماً لإدخال "الحداثة" في مهنتهم. كان دون فينشينسو يعي تماماً أن الزمن تغيّر بالنسبة إلى الجميع، وأن المافيا يجب أن تتأقلم مع هذه المتغيّرات، وأن تتغلغل في النُّظُم الاجتماعية والسياسية. كان يعلم أن تلك الطفرة سيكون لها آثار مهمّة وجذرية، وأن بعض طقوس قواعد الماضي وانتقال السلطة من الأب إلى الابن، والتي لا يزال متعلّقاً بها، سيأتي اليوم الذي تصبح فيه بالية ويطويها النسيان. كان دون فينشينسو يتألّم بسبب ذلك، فقد أرست المافيا نجاحها على قواعد صارمة قاسية ومتوقّعة: يشترك الجميع في الرعب من العقاب والانتقام لمَن يجرؤ على انتهاك ميثاق الشرف لرجل المافيا، أو التمرّد على تلك الأحكام المجحفة. وكان رجال المافيا والأشخاص العاديون يعتبرون ذلك دليلاً على نزاهة المافيا، بل وعدالتها.

كان القيام بالدَّور المزدوج للقاضي والجلّاد يُعجب دون فينشينسو كثيراً، على الرغم من أنه كان يعي زيفه تماماً. كان المعلّم الوحيد للابن، وكان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يترك له إرثاً من المعرفة المناسبة.

كان تلقين الابن المبادئ الأولى للمهنة يقتضي أن يصحبه دون فينشينسو إلى الريف في وقت الحصاد، فيتعرّف بذلك على الجميع: أصحاب أراض وفلّاحين، ويتعلّم كيف يعامل الناس. وفي ذلك الصباح من شهر مايو ذهب ممتطياً حصانه إلى حقل اللوز الشاسع الذي يمتلكه الأمير حول بيت المزرعة .

كان جامعو اللوز يضربون الفروع بعِصيٍّ ليّنة، قاسية فوق الحبوب وحانية فوق النبات، بينما كانت حبّات اللوز تتساقط مثل حبّات البَرَد، خضراء ممتلئة، وقد صلبت قشرتها لتوّها. كانت تتساقط فوق الأرض مثل حبّات الزيتون العملاقة. وعلى مسافة منهم، تبعتْهم فرقة من قاطفات اللوز اللاتي كنّ يجمعنَهُ جاثيات مثنيات فوق ركبهنّ مثل حشود النمل. وكان هناك مشرف لمراقبة الصِّبْيَة، بينما تتولّى الحارسة العجوز الإشراف على الفتيات، وكان تقريع وتأنيب جامعي الحبوب إن تجرّؤوا على إدخال كلمات فاحشة وجريئة في مقاطع الأهازيج القديمة حقّاً وواجباً لها. كان من النادر أن يجمعوا اللوز بصمت، فقد كانوا دائماً يغنّون على شكل مقطع غنائي ومعارضته في المقطع التالي. كان عملاً هادئاً منظّماً، وكان يميّز دائماً الانتقال من أواخر فصل الربيع إلى فصل الصيف، حيث يكون الطعام وفيراً للجميع.

في ذلك اليوم، خطرت لدون فينشينسو الفكرة المشؤومة بترك الابن مع جامعي اللوز الذين كانوا يعملون حول بيت المزرعة، بينما ذهب إلى منهل المياه في الناحية الأخرى من حقول اللوز. كان يجب على زعيم المافيا أن يراه الناس، بل وأن يرى الناس ويسمعهم، وأن يكون يَقِظاً دائماً. فكانت مراقبة نقل المياه والاستماع إلى أحاديث الفلّاحين والصِّبْيَة الذين يملؤون سطول المياه، ليحملوها إلى بيوتهم، من الأشياء الضرورية والمحبّبة له. كان سيتناول معهم الجبن والخبز، ليعود في الظهيرة، ثمَّ يرجع مع الابن إلى البلدة.

وفي حوالي الساعة الثانية، لحق به فلّاح من المزرعة يُدعى لويجي فيكاري. جاء ممتطياً بغلته. تحدّثا معاً لفترة وجيزة، ثمَّ انصرفا معاً، وقد سارا بالدَّابَّتَيْن بهوادة طوال فترة سيرهما أمام المتردّدين على نبع المياه، ثمَّ أسرعا نحو المزرعة. أراد دون فينشينسو حَثَّ دابَّته على العَدْو، ولكنه لم يكن يرغب بإثارة الانتباه، حتّى طَمْي الأرض له عيون وآذان. وصل إلى

بيت المزرعة. كان يبدو مهجوراً هادئاً كما لو أن شيئاً لم يحدُث، فقاطفات اللوز كنّ يواصلنَ العمل بهمّة، وجامعو الحبوب يغنّون، والفلّاحون في حقولهم، وكان يوماً دافئاً مشمساً. دخلا إلى بيت الفلّاح. وعندئذ، فقط، قصّوا عليه ما حَدَثَ بالتفصيل، وبصوت منخفض. رفض دون فينشينسو قدح الماء الذي قدّموه له واستمع إليهم: منذ حوالي الساعة كانت زوجة لويجي فيكاري قد ذهبت لتنظيف حظيرة الدجاج الكائنة بجوار مخزن القشّ، الذي سمعت منه صرخات مُدوّية لامرأة تصيح:

"إنه يقتلني، النجدة!" ثمَّ صَمَتَتْ، ثمَّ عاد الصراخ مرّة أخرى. لم يكن لديها فكرة عمّن هناك، فلم يزرهم غرباء في ذلك اليوم. نادت الزوج، وذهبا معا إلى مخزن القشّ، الذي كان أيضاً مكان نوم لقاطفات اللوز. شاهدا سيقاناً وأذرعاً متشابكة. كان جوفاني أنكونا مستلقياً فوق الفتاة على القشّ وقد أنزل سرواله، وكانت الفتاة تقاوم وتركل، وجوفاني مستغرق تماماً فيما يفعله، لدرجة أنه لم يشعر بوصولهما. أمّا تلك الشيطانة، فقد شعرت بدخولهما، وعضّت يده التي كان يكتم بها فاها وراحت تصرخ. استطاعوا الفصل بينهما. ساعد لويجي فيكاري الصبيّ على ارتداء ملابسه، ثمَّ أرسله إلى إصطبل الأبقار، حيث اختبأ هناك.

قال الفلّاح خائفاً من غضب دون فينشينسو، الذي كان يستمع إليه متكدّراً هادئاً:

"أحضرتُ له بعض المياه. لقد رفض الطعام، والجرح ليس خطيراً".

سأل دون فينشينسو: "والفتاة، أين هي؟"

ردّ فلّاح: "إنها هنا في بيتي، وقد بقيت زوجتي معها"، وأشار إلى الحجرة الأخرى، "لم تصرخ الفتاة بعد ذلك، ولم يعرف أحد شيئاً عمّا حَدَثَ. ما زالوا جميعاً يعملون في الحقول".

قال دون فينشينسو بلهجة آمرة:

"نَادِ زوجتكم!" كانت الفلّاحة مضطربة، وحاولت أن تتمالك أعصابها أمام شخصية بهذه الأهمّيّة والسطوة والرهبة. وكان واضحاً أنها كفّت لتوّها عن البكاء.

أمرها دون فينشينسو:

"أخبروني بما حَدَثَ"، ثمَّ أدار رأسه نحو الزوج وأردف "لويجي، أشكركما على حسن التصرّف، وسأتذكّر صنيعكما دائماً. الآن سيد لويجي، اذهبْ وأخبرْ ابني أن يغتسل، واذهبْ بفَرَسِهِ والفَرَسِ الأخرى لتشربا الماء، لأننا سنرحل. سنعود إلى البلدة فوراً".

وعندها بقي وحيداً مع الفلّاحة، وطلب منها أن تروي له من جديد ما رأت، وبأدقّ التفاصيل. مَن هي الفتاة؟ وكيف حالها؟ دون خجل، وبتفاصيل الواقعة كلّها. ولم يكن ذلك الأمر سهلاً بالنسبة إلى المرأة.

كانت تتحدّث باكية، راجية مؤازرة القدّيسين والزوج الذي كان يمكنه التحدّث بكل شيء أفضل منها، وهي السيّدة الريفية التي لم ترَ أبداً مثل هذه الأشياء. فهم دون فينشينسو فوراً أن الأمر يتعلّق بعنف جسدي حقيقي.

كانت تعرف منولارا كما كانت تعرف ابنه.

سألها: "هل تعرفونها جيّداً؟

استطاعت الفلّاحة أن تهزم خجلها، وأكّدت له وهي تقسم بالقدّيسين وبقبر أبيها وبحياة أبنائها، أن الفتاة كانت عذراء، وأن تصرّفها كان يؤكّد ذلك: فبعد أن استطاعا نزع ابنه من فوقها، نجحت الفلّاحة في إدخالها إلى غرفة نومها، حيث ارتمت فوق الأرض. كانت تئنّ فقط، وقد لطّخت الدماء ثيابها وبين فخذَيْها، وقد رفضت حتّى رشفة الماء. الفتاة بريئة.

"أنا أعرف منولارا أكثر من الأخريات، فهي تعمل هنا منذ سنين. هم في غاية الفقر، لا تأكل حتّى نصيبها من الطعام كي تحمله إلى البيت، يتضوّرون جوعاً. نحن جميعا نحبّها، وكلّ حين نترك لها بيضتَيْن، بعض الخضروات، أو قطعة من الجبن، مخبَّئين في مخزن القشّ، لتحملهم إلى البيت، فهي تخجل من قبول هذه العطايا أمام الآخرين، بل وترفضها. لذلك نترك لها الأشياء في تجويف حائط مخزن القشّ، حيث تخبّئ طعامها وتحفظ الأشياء، وهي تعرف ذلك.

وبالفعل، هذا الصباح أخبرَها زوجي في أثناء جمعها للوز، أن هناك أشياء لها في مخزن القشّ. كانت في غاية السعادة .. فهي عزيزة النَّفْس، ولا تطلب شيئاً من أحد أبداً.

لا أدري لماذا عادت إلى المخزن في ساعة الغداء، ربمّا لتملأ الجَرّة بالمياه الباردة، فقد رأيتُ إناء المياه في أحد الأركان. ولا أدري كيف ظَهَرَ ابنكم. كانت المسكينة مرعوبة، ولم تكن تريد اتّهام ابن زعيم المافيا بتصرّف جبان وغير معتاد من رجل المافيا".

سأل دون فينشينسو:

"في رأيكم، هل كانت الفتاة تريده؟"

عاودت المرأة البكاء بهدوء، ولم تردّ.

كرّر دون فينشينسو السؤال بنبرة متغطرسة دون أن يرفع صوته: "تحدّثوا، هل كانت تريده أم لا؟

"سيادتكم ربّ عائلة، أب لأبناء، وأنا أيضاً لديّ أبناء. وأقسم لكَ بقبر أمّي أن صرخات الصَّبيَّة والحالة التي وجدناها عليها وحالتها الآن، لا تترك أيّ شكٍّ في أنها لم تكن تريد. ثمَّ إن لله وحده يعرف الحقيقة".

أمرها دون فينشينسو: "افتحوا الباب، ودعوني أراها". لم ترِدِ الفلّاحة إطاعة أمره، وقالت له إن الفتاة مغشي عليها تقريباً، وإنها بالتأكيد ستموت من فورها إن رأتْهُ. لن تحتمل ذلك، ولا يمكن سؤالها وهي على هذه الحالة.

فَقَدَ دون فينشينسو هدوءه ورفع صوته:

"استمعوا إلى ما أقوله. أعلم كيف أتصرّف في هذه الحالة، أريد فقط رؤيتها، ولن أتحدّث معها".

نهض دون فينشينسو، وفتح الباب:

كانت الغرفة بين العتمة والضوء، وكانت نافذة الغرفة الوحيدة، والتي تقع في منتصف الحائط تقريباً أسفل دعامات السقف، مواربة الدرفتَيْن. غَزَتْ حَنْجَرَتَهُ راوئحُ الفقر والرطوبة، والرَّوث والقشّ، وتراصّت فوق الأرض صناديق وسلال، وأغطية مكدّسة، وأدوات.

كان السرير يتكوّن، في حقيقة الأمر، من مرتبة ملقاة على أرضية الحجرة ومغطّاة بخرقة رمادية، وكان صليب صغير يحدّد رأس السرير.

لم يَرَهَا بادئ الأمر. كانت قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة هي مَقعَد وُضع في أحد الأركان. وهناك استلقت منولارا. كانت تبدو وكأنها كومة أخرى من الخِرَق البالية، ملقاة فوق الأرض مثل طفل وُلد لتوّه. كان ظَهرها مَحنِياً، مستديراً تقريباً، وساقاها مثنيَّتَيْن. كان رأسها المحني فوق صدرها يلمس ركبتَيْها، وكانت تئنّ وتنتفض مثل كلب جريح، ولم تشعر بوجوده. كانت بقع الدماء حمراء واضحة في خلفية التنّورة، وقد تعرّت إحدى ساقَيْها، وبدت فوق لحمها الفاتح آثار خيوط الدماء حتّى قدمَيْها.

أغلق دون فينشينسو الباب. شكر الفلّاحة وذهب إلى الإصطبل، حيث كان ابنه واقفاً في انتظاره، وقد تلطّخ قميصه وسرواله أيضاً ببقع دم .

قال له:

"تعال"، وامتطيا الحصانَيْن بصمت وركضا. كأن شيئاً لم يحدُث.

مرّا من بعيد بقاطفات اللوز، ملقيان بالتحية المعتادة باللهجة الصقلية: "تحيّاتنا".

وفَعَلَا الشيء نفسه مع جامعي الحبوب. استغرقت رحلة العودة حوالي ثلاث ساعات، لم ينظر دون فينشينسو خلالها إلى ابنه. كان يمتطي الحصان أمامه، فاتحاً له الطريق بين الأشجار، حريصاً على تجنّب الدروب التي يسلكها الناس عادة. كانت الزوجة والبنات الصغيرات تنتظرنهما، وكانت البنات سعيدات. كان الحزن يُدمي قلب دون فينشينسو من التفكير في المصيبة التي حلّت بعائلته. شرح لهنّ أن جوفاني قد سَقَطَ وجَرَحَ، لكن جرحه ليس خطيراً، وأرسلهنّ جميعاً إلى الصيدلية لشراء الأدوية.

وعندما أصبح وحده مع الابن في الإصطبل، سأله: "هل اغتصبتَها؟"

أجاب الابن:

"نعم، لا أدري كيف حَدَثَ ذلك".

عندئذ، صبّ دون فينشينسو جام غضبه على ابنه الذي يحبّه لدرجة العبادة، وأوسعه ضرباً ولكماً وركلاً في بطنه وخصيتَيْه، وهو يبكي، ويلعن نهاية أسرته ونسله. ظلّ جوفاني الصغير بعد ذلك ملازِماً الفراش لعدّة أيّام.

وفي أثناء ذلك، رتّب دون فينشينسو طريقة لإبعاده عن البلدة. قيل إنه سيذهب ليعيش في الشمال عند أحد أبناء عمومته، ليستكمل الدراسة، فهو على قَدْر كبير من الذكاء. طاقة مهدورة في صقلية، ويستحقّ فرصة تعليم أفضل في إيطاليا. علم أفراد المافيا بما حَدَثَ، وأيّدوا قرار دون فينشينسو الحكيم.

تصرَّف جوفاني الصغير كرجل حقيقي: اعترف بخطئه، ووعد أمَّه التي انهارت عند رجلَيْه بأن يشرّف العائلة، وأن يجعلها تفتخر به ذات يوم .

وفي اجتماع لرجال المافيا، أقرّ جوفاني أنكونا الصغير بتواضع وكرامة غير عاديَّيْن بالنسبة إلى صبي في السادسة عشرة، بما اقترفه من خطأ. فهو لم يرتكب فقط إثماً لا يُغتفَر طبقاً للميثاق الأخلاقي للمافيا، ولكنه سمح لشهوته بالسيطرة عليه (سواء أرضى شهوته مع أنثى برضاها، مع رجل أو بهيمة، لا يهمّ. فرجل المافيا يجب أن لا يفقد أبداً السيطرة على نفسه)، ثمَّ إن اغتصابه لعذراء، والأدهى من ذلك أنها طفلة، يثير الشكّ حول قدرته على التقدير، وينتهك قاعدة أن نساء الآخرين لا يُمسَسْنَ. وحتّى وإن أخرسوا الفتاة الصغيرة والشهود، فخطرُ أن يتحدّث أحد عن ذلك في المستقبل يظلّ قائماً، وهذا الاحتمال البعيد حرّم عليه أن يكون جديراً بخلافة أبيه وأجداده في تلك الأراضي.

وعدَهم جوفاني الصغير تائباً، بأن يستغلّ الفرص التي سيُتيحها له العالم الحديث لخدمة مصالح المافيا، كفرد من عائلة أنكونا، وكما فعل أفراد عائلته من قبل.

في الواقع، وعلى الرغم من المهانة الشديدة والألم الذي شعر به لتَرْكه العائلة، إلّا أن جوفاني أنكونا كان يعلم بقدراته، وكان يرغب في الدراسة، وكانت فكرة الدراسة والعمل في مجال الأعمال تجذبه، بالإضافة إلى أنه كان يعي نفوره من الحياة القاسية والقانون القاسي الذي يحكم حياة المافيا في الريف.

كان جوفاني أنكونا نادراً ما يعود إلى صقلية. عاش وتزوّج في لومبارديا. كان ابناً مفقوداً بالنسبة إلى دون فينشينسو وزوجته.

اضطرّ دون فينشينسو إلى رواية الواقعة إلى المحامي جاني الفاليبي، المسؤول على إدارة إقطاعية أمراء برولي. وقد خفّف الأمر كما لو كان خطأ

وقع فيه صبيّان مُستعِرا الشهوة، وأفهمَهُ أنه يفضّل أن تجد منولارا عملاً آخر في البلدة. وهكذا، لم تجد السيّدة ليلا الفاليبي أيّ معارضة من الزوج عندما أخبرتْهُ برغبتها في إلحاق خادمة أخرى بالبيت، ابنة نوروتسا أينتسريللو.

اشترى دون فينشينسو صمت عائلة فيكاري التي تركت الريف وفتحت دكّاناً لبيع الخضروات والفاكهة، وظلّت دائماً تحت حراسته. وكان يستعلم أيضاً عن حياة عائلة أينتسريللو ومنولارا، مستعدّاً دائماً لقتل مَن يشكّ أنه قد تحدّث أو يريد أن يتحدّث عن الأمر.

52. دون فينشينسو يتذكّر لقاءه الوحيد مع منولارا

بعد تلك الحادثة بنحو عشرين عاماً، قبل اشتعال الحرب، أخبرَهُ شخص من مدينة إنا "قصر يانه" أن منولارا ترغب في الحديث معه عندما يريد.

دُهش دون فينشينسو، وتكدّر من ذلك الطلب: ابتزاز أم طلب تعويض بعد مرور هذه السنوات كلّها؟ تفكير لا ينتج إلّا عن عقل مضطرب، بينما يبدو له أنها على العكس تماماً. فقد كان يعلم بأمورها كلّها، وعرف أنها معروفة بالاتّزان والحرص، وقلّة الحديث، فهي لا تعطي ثقتها لأحد. فمها مخيط "امرأة كتوم". لذلك أثار طلبها مقابلته دهشته كثيراً. قررّ دون فينشينسو أن ينتظر لمدّة أسبوعَيْن قبل الردّ عليها، خاصّة وأنها لم تتعجّل ذلك اللقاء.

إلّا إن التفكير في منولارا أصبح، بالنسبة إليه، مثل قَلَنْسُوَة من الصلب تضغط فوق رأسه. كانت تُقلقه أكثر من أيّ شيء آخر. بعد ذلك بأيّام قليلة شعر دون فينشينسو وزوجته بالفخر والرضا عن ابنهما جوفاني، فقد ساعدتْهُ المافيا في الحصول على منصب مهمّ في البنك الذي يدير جزءاً كبيراً من أموال العائلة: فبدأ يشقّ طريقة كي يصبح واحداً من أكبر رجال

البنوك للمافيا في الخارج. جوفاني، الذي بعد أن ابتعد عن صقلية تخرّج في جامعة عريقة في ميلانو، ويتحدّث الفرنسية الآن بطلاقة، فلا يمكن معرفة أصوله الجنوبية أو انتماؤه إلى المافيا، أصبح من المقدّر له تخطّي والده في المكانة عند المافيا. كان يبدو له من سخرية الَقدَر أن يتزامن خبر نجاح الابن مع طلب منولارا، ثمَّ بدأ يشكّ أن بين الأمرَيْن ارتباطاً كريهاً، لا يعرف كُنهه، وبدأ يُقلقه كثيراً. فكّر أيضاً في إمكانية إسكاتها إلى الأبد: ستكون واحدة من أولئك الذين اختفوا دون ترك أيّ أثر ولم يُعثر عليهم أبداً. في شبابه فعل ذلك مع الكثيرين، وكرئيس للمافيا أمر أيضاً بتصفية العشرات. كان أمراً بسيطاً. ومع ذلك قرّر في النهاية أن يسمعها، بدافع الفضول ربمّا. كان يريد أن يتحقّق ممّا حَدَثَ في الماضي بالفعل، والباقي كان سيقرّره بعد ذلك. حدّد لها موعداً في مكتب موثِّق عقود يثق به، فقد كان من الواضح أنها تنوي ابتزازه.

كانت الساعة حوالي الثانية من ظهيرة يوم خميس، كان يذكره تماماً، فكان هناك أشخاص قليلون في الطريق. دخلت منولارا إلى المكتب بعصبية، حيث كان ينتظرها موثِّق العقود ودون فينشينسو. كانت نحيلة، بوجه شاحب بارز العظام، وشَعْر معقوص إلى الخلف على شكل كعكة. كان ثوبها رمادياً بسيطاً محتشماً، وكانت تبدو أكبر من عمرها. نهض موثِّق العقود لاستقبالها، بينما ظلّ دون فينشينسو جالساً مطأطأ الرأس وقد وضع يداً فوق إحدى ساقَيْه والأخرى أسندها فوق المكتب. جلست منولارا فوق المَقعَد المقابل لدون فينشينسو، ثمَّ استهلّت حديثها: "أشكركم على هذا الموعد".

اضطرّ دون فينشينسو إلى رفع عينَيْه. نظر إليها ملياً، كعادته، دون أن يُشعِر محدّثه بنظراته.

بادلت منولارا نظرته بلا خجل، وقالت ببساطة:

"دون فينشينسو، لم أستمتع بعد ذلك بغناء، صدّقني. يؤسفني ذلك كثيراً".

تدخّل موثِّق العقود في ذلك الحديث غير المنطقي، وأوضح كاتّفاقه السابق مع دون فينشينسو أنه حاضر في هذا الاجتماع، إن احتاج الأمر إلى بلورة الحديث أو كتابة اتّفاق. وعند ذلك أدرك أنه ليس منولارا فقط، وإنما دون فينشينسو أيضاً، كانا ينظران إليه كما لو أن تدخّله غير مناسب وأحمق: لقد قطع لقاء حميمياً ومهمّاً.

قالت له مينولارا بصوت منخفض وحاسم: "سيّدي، موثِّق العقود، لستُ بحاجة للمال. من الأفضل أن تنصرف. يستطيع دون فينشينسو استدعاءكَ إن اقتضت الحاجة". خفض دون فينشينسو رأسه موافِقاً على ذلك.

بقيا وحدهما وقد جلس كلٌّ منهما قبالة الآخر، أمام المكتب الفخم المصنوع من الخشب الخالص، وفي الناحية المقابلة كان يظهر مَقعَد موثِّق العقود فارغاً في كامل أبَّهته، بالمسند الطويل والواسع، يحيط به إطار من الخشب المنحوت. كان يبدو مَقعَداً مخصّصاً للشخص الغائب، ابنه جوفاني الصغير، والذي لم يذكر اسمه أبداً، إلّا أن حضوره كان ملموساً تقريباً في هواء المكتب الثقيل اللزج، كما لو كان شبحاً. تنهّد دون فينشينسو بصعوبة، حرّك يدَيْه، ووضعهما كما كانتا من قبل، رفع رأسه الأحمر، الأصلع تماماً، وباغتَها بالسؤال:

"ماذا فعل معكِ؟"

أجابت منولارا وهي تنظر إلى عينَيْه مباشرة:

"لم أقل لأحد. هل تريد سماع القصّة الآن؟"

خفض دون فينشينسو رأسه: كان أمراً.

تحدّثت بطلاقة، وبصوت رتيب خالٍ من الانفعالات، وكانت تسترجع بالضبط وبذهن حادّ يَقِظ، الصدمة التي عانت منها وهي في الثالثة عشرة، بنظرة فارغة كما لو كانت تحكي أشياء حَدَثَت لشخص آخر:

"سيادتكَ تعلم مَن أنا، وتعلم أيضاً أنني كنتُ أعمل لأعولَ المرحومة أمّي وأختي. كانت الحياة في الحقول والهواء الطلق تعجبني، وكنتُ أعمل بسعادة. كان الفلّاحون في إقطاعية كانيللي يُشفقون علينا، ويتركون لنا عطايا من الجبن والطعام مخبّأة خلف حجر في فتحة أسفل نافذة مخزن القشّ الصغير. كنتُ آخذه بعد ذلك إلى البيت. وفي ذلك اليوم، أخبرني دون لويجي فيكاري أن هناك بيضتَيْن لي، وربّما يكون قد سمع ذلك. كان يوماً حارّاً، والكثير من الأشجار لم تُجمَع ثمارها بعد. كان جامعو الحبوب يعملون ببطء وكسل، فيتركون الكثير من اللوز الناضج فوق الأشجار، وكنتُ أتسلّق الأشجار وأجمعه كلّه. كان تسلّق الأشجار يعجبني، كنتُ لا أزال طفلة.

ربّما لاحظني في أثناء العمل، لا أدري، أعرف فقط أنه عندما توقّفنا عن العمل لراحة الغداء، شعرتُ بجوع شديد، وأكلتُ قطعة الجبن كلّها والزيتون الذي أعطوه لنا. في العادة كنتُ آكل القليل منه، وأحتفظ بالبقية لأحملها إلى البيت، فقد كانت أختي ذات شهية قليلة، وكانت تلك الأصناف تفتح شهيّتها. كان يدور حولنا ونحن نعمل، كما تفعل سيادتكَ. كنتُ أحكي لقاطفات اللوز الأخريات أنه لم يكن ينبغي لي أن أكل الجبن بالفلفل كلّه، فقد كان لذيذاً جدّاً. سمع ما قلتُهُ واقترب منّي. أخبرني أن لديه نصف قطعة من ذلك الجبن، ويمكنه أن يعطيَني قطعة كبيرة منها، وأنني سأجدها في مخزن القشّ إن ذهبتُ مبكّراً، لأنه لن يمكث بالمكان لمدّة طويلة. وكنتَ، سيادتكَ، دون فينشينسو، قد انصرفتَ بالفعل. لذلك صدّقنا ما قاله؛ أنا وقاطفة لوز أخرى.

حملنا القوارير الفارغة لملئها بالمياه الباردة. رفعناها فوق رأسَيْنا، وسرنا

بها كما كان حَريّ بالفتيات، وبعد ذلك، لم أحملها مرّة أخرى. لم أعد الآن أحملها فوق رأسي، ولا حتّى مستلقية". صمتت. نظرتْ إلى جهته مباشرة، ثمَّ عادت نظرتها مشوّشة، وغرقت حدقتها في إحباط عميق.

عادت منولارا تتحدّث بالنبرة نفسها: "ذهبتُ للمرّة الأخيرة لملء القوارير بالمياه من البئر. وما إن دخلتُ حتّى هاجمَني مثل حيوان مثار جنسياً. لم أتمكّن من الدفاع عن نفسي، مزّق ثوبي ولحمي. كان أقوى منّي، كتم فمي، عضضتُهُ مرّتَيْن فقط لطلب النجدة، لَكَمَني في فمي وصدري، وسبّب لي ألماً، أشعر به إلى الآن، اخترق جسدي حتّى أحشائي، كنتُ أشعر بأنني سأموت.

لحسن الحظّ، وصل دون لويجي فيكاري وزوجته. وصلا، ولكنْ، قبل مساعدتي، انشغلا بمساعدته، فهو ابنُكم، أمّا أنا، فيتيمة، فقيرة، لحقها العار.

مكثتُ على هذه الحالة في بيت الخالة ماريا فيكاري. كنتُ أودّ أن تبتلعَني الأرض من شدّة الإحساس بالعار، كنتُ أشعر بالألم داخل جسدي وخارجه. غسّلَتْني الخالة ماريا قليلاً، وأعطتْني بيضاً وخضروات وخبزاً كثيراً. عدتُ إلى المنزل وحيدة دون تحية الآخرين، كانت كلّ خطوة بالنسبة إليّ ألماً يعتصرني من شدّة المعاناة التي كنتُ أشعر بها.

كان قد بلغ أمّي أنني تورّطتُ مع أحدهم، وأن الذَّنْب ذَنْبي، وكانت تنوي قَتْلي ضرباً، لو لم تكن بهذا الوهن. ولكنها عندما رأتْني فهمتْ أن الأمر ليس كذلك، ولم تسألني عنه. كانت تحترمكَ كثيراً، دون فينشينسو. كانت تقول إنكَ كنتَ تستطيع طرد أبي عندما كان يعمل أجيراً، ولم يكن لديه القوّة للعزق، لأنه كانه يُحتَضَر، ولكنكَ لم تفعل. وربمّا بسبب ذلك، صدّقتُ طيبة الابن عندما قدّم لي الجبن.

كانت النيران تتأجّج داخلي كلّما تصوّرتُ أن سيادتكَ قد تسيء الظنّ

بي مثل الآخرين، وتعتقد أنني المسؤولة عمّا حَدَثَ لي، لأن الحقيقة ليست كذلك. حتّى الآن، نحن الاثنان فقط - أنا وهو - نعلم حقيقة ما حَدَثَ.

بقيتُ في المنزل لعدّة أيّام. لم أكن أستطيع التفكير، ولم يكن هناك مستقبل لنا. نفد الطعام وأمّي وأختي كانتا مريضتَيْن جدّاً. ألحقَتْني أمّي بالخدمة في بيت الفاليبي، وإن لم تكن تريد ذلك أبداً، لأنها كانت تقول إنه لا يمكن الوثوق بالسادة الذكور، وكانت محقّة. فأنا الآن أسيرة في ذلك البيت، وسأموت دون أن يكون لي أبناء أو عائلة.

لقد حملتُ من المحامي أوراتسيو الفاليبي، ولكنه لا ينبغي أن يعرف ذلك. سيادتكَ الوحيد الذي يعلم ذلك الآن، بعد الطبيب ميندكو والسيّدة ليللا. قمتُ بإجراء عملية إجهاض، واستأصلتُ معها كلّ شيء، كان ذلك ضرورياً. وفي أثناء وجودي في المستشفى، عرفتُ أنه يوجد طريقة لاختبار الدماء وتحليل البصمات، وبذلك يمكن تحديد أصحابها. وقد قمتُ بإجراء التحليل للمنديل الذي استخدمَهُ لتنظيف نفسه، ليس من الدماء فقط، ولكنْ، أيضاً من آثار عاره وبصمات أصابعه التي طُبِعَت فوق المنديل. وقد احتفظتُ به، وهكذا يمكن معرفة صاحبهم، أنا أعرف، ولستُ بحاجة إلى أدلّة. ولكنْ، إن لم تصدّقني سأعطيه لكَ مع نتائج التحاليل التي قمتُ بإجرائها. لستُ هنا لابتزاز أحد أو لطلب نقود من سيادتكم أو منه. أنا هنا لأُخبركَ أن الحقيقة واضحة، ولأهدي لكَ الأدلّة الوحيدة التي أملكها، والتي لا أريد أن أراها بعد ذلك أبداً".

فتحتِ الحقيبةَ، وأخرجتْ مظروفاً وضعتْهُ فوق المكتب: "أسألكم ثلاثة صنائع فقط، يمكنكم أيضاً رفضها، وثقوا تماماً أنني لن أستطيع أو أرغب في إيذائكم أو إيذائه. لقد أشفقتِ السيّدةُ ليللا الفاليبي عليّ وأهدتْني خمسين قطعة ذهبية، كي أسامح ابنها على ما فعله معي. ربّما كان مبلغاً مبالغاً فيه أيضاً، فأنا لم أكن عذراء، وهو لم يغتصبني أبداً كما فعل الآخر.

بقيتُ في بيتهم، فلو كنتُ قد تركتُهم لأصبحتُ عاهرة لخنازير آخرين مثله، ولم تكن أختي لتجد الدواء، ولكانت ماتت".

توقّفتْ ثمَّ أكملتْ: "لا أشعر بالخجل، لأنني نجحتُ في علاج أختي وتزويجها عذراء برجل جادّ. لديها ابنان، وتعيش سعيدة كما أرادت أمّي، رحمها الله". توقّفتْ برهة، وثبّتَتْ عينَيْها مباشرة في عينَي دون فينشينسو.

سألها بصوت أجشّ:

"ماذا يمكنني أن أفعل لكِ؟"

"الصنيع الأوّل فوري: أحتاج مساعدتكم لاستثمار تلك القِطَع. أنا أقرأ قليلاً، وأفهم كثيراً. لا أريد أن يعرف أحد شيئاً عن تلك الهِبَة، فضلاً عن أنني أملك بعض المدّخرات القليلة.

سيادتكَ صاحب نفوذ، وأعرف أيضاً أن العائلة تقوم باستثمارات في الخارج. أعتقد أنه من الحكمة استثمار تلك النقود جيّداً، وسرّاً، وهو، على أيّ حال، ما تفعلونه أيضاً. لا أدري كيف، ولكني أريد لهذه النقود أن تزداد، لأنني أخشى شيئاً واحد: أن أعود للفقر من جديد.

الثاني في المستقبل: إذا احتجتُ للحماية أو طلب المساعدة، أن تساعدوني بسطوتكم كلّها.

الثالث خاصّ بالاحترام الذي أستحقّه: إذا حَدَثَ أن تُوفِّيتُ قبل سيادتكَ، أشعر داخلي أنني عانيتُ كثيراً، لأحظى بعمر طويل، ونحن عائلة أينتسريللو نموت في سنّ مبكّرة. أريد وعداً أن تحضر جنازتي، لأنه هكذا يسدّد رجل المافيا دينه تجاه قاطفة لوز فقيرة، سلبها لحمُكَ ودمُكَ شَرَفَهَا".

نَظَرَ إليها دون فينشينسو بثبات دون أن يتحرّك.

انحنى إلى الأمام، أمسك بيدَيْها، وقبض عليهما بين يدَيْه، وخفض عينَيْه.

فعلتْ منولارا الشيء نفسه، ثمَّ قال: "كلمة شَرَف". نهضا، ثمَّ أخذ دون فينشينسو المظروف، وانصرف. لم يرَ دون فينشينسو منولارا بعد ذلك، واحتفظ بكلمته. استثمر لها الأموال في سويسرا، وأتاح لها المعاملة الخاصّة نفسها بأفراد المافيا، وكان أحد الموظّفين الكبار يقابلها في صقلية عندما يأتي للاتّصال بالعملاء في أثناء إجازاته الأثرية، وكان يَستخدم معها قنوات الاتّصال اللائقة نفسها. أعاد دون فينشينسو الاختبارات حول المنديل، وتأكّد من النتائج، وأخبر الابن. لم تكن مناقشة مؤلمة. قال له إنه يدين بحظّه كلّه لمنولار، لأنه لولا ما حَدَثَ معها، لما أبعده عنه وعن البلدة. الآن وقد أصبح ثرياً، وفي مأمن، عليه أن يسدّد الدين الأخلاقي نحوها: إضافة فورية لمبلغ ضخم إلى العُملات الذهبية ومراقبة حسابها. وهي، على أيّ حال، لم تكن لتدرك شيئاً. أمّا جوفاني الذي كان لا يزال يخشى أبيه، وكي يُثبت له أن تائب عمّا فعل وأنه رجل ينتمي إلى المافيا، قام بواجبه. وكان ذلك نواة ثروة منولارا، التي لم تكن تعلم شيئاً عن تزايُدها ونموّ استثماراتها.

كان تحقيق الطلب الثاني عسيراً. كان يدور حول أراضي حقول بوليري، التي كانت عائلة الفاليبي قد اشترتْها بثمن زهيد من الأمير، والتي كانت تدرّ عائداً بسيطاً، ولكنها ملاصقة تقريباً لروكاكولمبا السفلى. أرسلت إليه منولار مَن يخبره أنها كانت تعرف بالحديث عن إنشاء مدرسة جديدة في روكاكولمبا الدنيا، كما تعرف عن التوسّع في المدينة، وإن إدخال أراضي بوليري ضمن الأراضي الصالحة للبناء وإقامة المدرسة عليها، سيُسعدها، لأنهم يحتاجون إلى بيع الأراضي الريفية. تحتّم على دون فينسيشو التدخّل والتوسّط كثيراً، ليحقّق ذلك، ولكنه، في النهاية، نجح في تحقيقه: لم تُقَم المدرسة فقط في تلك الأراضي، وإنما أُقيمت أيضاً مباني المساكن الشعبية ومصنع أسمنت، ممّا أثرى عائلة الفاليبي.

الطلب الثالث حقّقه لها يوم الثلاثاء 24 سبتمبر 1963. منولارا تستحقّ كلّ احترام، وسيظلّ حارساً لذِكْراها، والويل لمَن يتحدّث عنها بسوء.

53. ثلاثينية منولارا

لم يُدهش الإعلان الذي نُشر في جريدة "جورنال دي سيشيليا" أهالي روكاكولمبا فقط، وإنما أدهش أيضاً عائلة الفاليبي. كان الإعلان يُذكّر الأصدقاء بتاريخ وساعة القدّاس في كنيسة "لادولوراتا" بمناسبة ذكرى مرور ثلاثين يوماً على رحيل الآنسة ماريا روزاليا أينتسريللو.

أقام الأب أرينا القدّاس بسرعة كعادته. وهذه المرّة لم يُلقِ العِظَة.

"يمكنه أن يقول كلّ ما يخطر على ذهنه، فصالة الكنيسة خالية تقريباً"، حدّث دون باولينو نفسه بذلك، وقد كان واحداً من القليلين الذين حضروا القدّاس. جلست السيّدة أدريانا الفاليبي وكارميلا ليوني بجانب الرئيس فاتا وزوجته، بينما كان موثّق العقود فاتسانو يقف خلفهما بجوار الطبيب منيدكو وشقيقته. كان هناك عدد قليل آخر من الأشخاص، لم يتجاوز العشرة. وفي أثناء العودة، كان دون باولينو يغمغم قائلاً لزوجته: "قلتُ لكِ إن الناس تنسى، ولا أشكو من ذلك. أعتقد أن ذلك طبيعيّ، فكلمة "منولارا" نفسها تكاد تختفي من لغتنا. اختفت قاطفات اللوز من الحقول، يجمعون اللوز الآن عن طريق أجوال المشمّع، وعمّا قليل سيأتي التونسيون أيضاً إلى جبالنا ... وهكذا لن نرى قاطفات اللوز بعد ذلك".

صمّم بيترو فاتا على دعوة الأب أرينا بعد انتهاء القدّاس. كان يودّ مناقشة أمر مهمّ معه ومع جاني الفاليبي، الذي كان سيلحق بهما في الواحدة ظهراً عند وصوله من كاتنيا خصّيصاً لهذا اللقاء.

دُعي بيترو فاتا جاني والقِسّيسَ إلى حجرة مكتبه بعد تناوُل الطعام، وبدأ رسمياً ومحرجاً في الوقت نفسه.

- "جاني، لديّ أخبار سعيدة لعائلة الفاليبي، وأريد أن أتحدّث عنها معكَ وحدكَ أوّلاً مع الأب أرينا، كي تقول لي كيف يمكن إخبار أمّكَ وأختَيْكَ، وكي تُخبرني عن الدَّور الذي ترغب القيام به".

سأله جاني متكدّراً: "وضِّحْ، يا عمّي بيترو، ماذا تقصد بهذا الدَّور؟"

كان قد أيقظَهُ في ذلك الصباح صديق، كان قد قرأ إعلان القدّاس في الجريدة، وهذه المرّة لم تنشره عائلة الفاليبي. تحدّث مع أمه وشقيقتَيْه، وكنّ لا يعلمنَ شيئاً سواء عن الإعلان أو عن القدّاس. شَعَرَ بالخوف، فقد كان لا يدري إن كانت منولارا تدبّر لهما مكيدة أخرى أو مزحة سخيفة. كان متردّداً بين الذهاب إلى روكاكولمبا والبقاء في كاتنيا. تحدّث أيضاً مع الأب أرينا الذي ردّ بأن الاحتفال بمرور ثلاثين يوماً على الوفاة يعتبر من الأمور العادية، وكان قد اتّفق على ذلك مع منولارا نفسها، وقد دُهش لعدم معرفة جاني بذلك الأمر. ثمَّ تبعت ذلك الدعوة إلى الغداء في بيت فاتا، وكان لدى الرئيس أخبار سعيدة ومهمّة، يريد إخباره بها بسرعة.

"أرسل محام شهير ومحترم من زيوريخ - وقد قمتُ بالتحرّي عنه بالشكل اللائق - خطاباً لي، وآخر لرئيس المدينة الأسبوع الماضي. قال إن عميلاً قديماً له محبّاً للفنون قد تُوفيّ، وكان قد خصّص جزءاً كبيراً من ثروته لإنشاء مؤسّسة ثقافية، تحمل اسم أبيكَ".

قال جاني:" أبي؟ لا أصدّق".

ردّ بيترو فاتا:

"كان لي أنا أيضاً، في بادئ الأمر، ردّ الفعل نفسه. ولكنْ، بعد تفكير في الأمر، وجدتُ أن أوراتسيو كان شخصاً غزير الثقافة وجذّاباً. ربمّا تعرّف إليه ذلك المحسن وأُعجب به. هو يرغب الآن في إقامة احتفالية موسيقية للفنّ الأوبرالي في شهر مارس، تكريماً لذكرى أبيكَ، في عاصمة المقاطعة. وقد خصّص أيضاً أموالاً لمنحة دراسية، تُقدَّم لشابّ فقير لدراسة الغناء في الكونسرفتوار في كاتينا".

"وماذا أيضاً؟" سأل جاني متشكّكاً، ساخراً.

"أنا رئيس تلك المؤسّسة، الذي يتولىّ تعيين الأعضاء لِلّجان المختلفة. كنتُ أريد أن أعرف أن كان الأمر يهمّكَ.

الشروط التي وضعها ذلك المحسن قليلة وواضحة.

يطلب أن تُعرَف في أوّل وآخر العرض مقطوعات أختارها، كلّها من تأليف فيردي، وتبدأ بأوبرا عايدة. ويتمنّى أن تقوم أنتَ، أو ممثّل آخر لعائلة الفاليبي، بتسليم الجائزة للفائز في مسابقة الغناء، وأن يُطلق على الاحتفالية اسم "منولارا"، وهي مخصّصة لذكرى المحامي أوراتسيو الفاليبي، رجل الثقافة والمهتمّ بجَمْع واقتناء التحف".

انفجر جاني قائلاً:

"اللعنة".

علّق الأب أرينا على ذلك بابتسامة ساخرة.

"تهانيّ القلبية، يا بروفيسور، كان والدكَ سيُسعده ذلك الردّ".

قال جاني قلقاً: "ماذا سيقول الناس؟ وماذا لو كانت مكيدة، وأغضبت المافيا منّا؟ نحن لم نتبيّن بعد من أين كانت تأتيها النقود. أنا خائف، أعتقد أن لمنو دَخْلاً بذلك، ستقودنا تلك إلى الخراب".

"اهدأ، يا جاني. يجب أن لا تفعل شيئاً. لقد قبلت الوظيفة. كنتُ ببساطة أودّ معرفة إن كنتَ ترغب في الاشتراك. يمكن أن يكون أمراً مفيداً، فهو يتعلّق بشيء منظّم جيّداً ومهمّاً للمقاطعة، وربمّا تعدّاها. يمكن أن تشترك زوجتكَ في اللجنة الفنِّيَّة. ربمّا ليللا أيضاً وربمّا كارميلا. هذا الأمر يُعدّ شرفاً لعائلة الفاليبي. كنتُ أرغب في معرفة رأي أمّكَ".

"لا أدري، فهي تعشق حبيبتها منو. وعلى الرغم من كلّ شيء، أثق أنها ستسعد بذلك".

تبادل بيترو فاتا والقِسّيس نظرة تفاهُم، فهذه كانت أخباراً جيّدة، بالنسبة إليهم. كانا يخشيان الأسوأ.

استعاد جاني هدوءه، وأضاف بغضب:

"لنتحدّث بصراحة. أنا لا أعرف مَن هو هذا المحسن، ولكني أعرف أن هذه الأموال سرقتْها منولارا منّا، وهي ترميها الآن في وجوهنا بهذا الشكل. أشعر بالاشمئزاز. أمّي لن تفهم ذلك أبداً. على أيّ حال، إنه عار على اسم العائلة، إن نحّينا جانباً الحديث عن والدي، الذي كان سيذوب خجلاً أمام فكرة وضع اسمه بجانب اسم تلك الخادمة. ولم يكن ليرغب في ذلك بالتأكيد، وإلّا فما منعه من أن يفعله؟" نظر حوله، كان بيترو فاتا والأب أرينا هادئَيْن. لم تتغيّر تعابير وجهَيْهما. كان ذلك مثالاً واضحاً على تلك المقدرة على إخفاء الأفكار والمشاعر، والتي يشربها الصقليون مع لبن أمّهاتهم.

قال جاني ببرود.

"افعلْ ما يحلو لكَ، يا عمّي بيترو. لم أكن أتوقّع منكَ ذلك، كنتُ أظنّكَ صديقاً حميماً وأخاً لأبي".

"ولا زلتُ كذلك". كانت هناك نبرة توتّر في صوت بيترو فاتا.

رفع جاني صوته:

"سيقول الناس إنه كانت هناك علاقة بين أبي ومنو، وربّما قصّة حبّ. هل تفهم؟ هذا ما كانت تريده. لم تُفلح في ذلك في أثناء حياتها، وتريد الآن الانتقام منّا. يجب أن نشرح للناس أن علاقتهما كانت شيئاً آخر".

أجاب بيترو فاتا بثبات:

"أعَلم أن أبيكَ كان يحبّها".

كان جاني مذهولاً.

أضاف مستهزئاً:

"لا أصدّقكَ، يا عمّي. المنصب جعل أفكاركَ تضطرب. ستقول لي الآن إنها كانت تحبّ أمّي، تحبّنا نحن الأبناء، وتريد مصلحتنا فقط. وإنه كان يجدر بنا إطاعة أوامرها" .

تدخّل الأب أرينا: "اهدأ، يا بروفيسور. لا أستطيع أن أخون أسرار الاعتراف، ولكني أوكّد لكَ أنه لن تكون هناك نتائج سيّئة من المافيا أو غيرها، شرط ألّا تتحدّثوا بسوء عن منولارا في العَلَن. لن تصلكم أيّ رسائل أو خطابات منها. نحن نتحدّث عن احتفالية موسيقية فقط. إنها شيء جميل، وسيشرّف اسم عائلتكم".

أضاف بيترو فاتا: "لا تخشَ سخرية الناس، يا جاني. على العكس، فإن ذلك يُتوّج تصرّفكم السابق، فقد نشرتُم النعي مرّتَيْن. سأعطي تفسيراً لاختيار عنوان الاحتفالية على هذا النحو، وهو كما يطلب صاحب المبادرة، بأن شخصية من الخَدَم أصبحت مسؤولة عن إدارة الأملاك، خدمت العائلة بأمانة، وهذا أيضاً من كلماتكم عنها. سأضيف بأنه بفضلكم استطاعت الدراسة، وأصبحت أيضاً مساعدة لأوراتسيو في أبحاثه الفنِّيَّة والموسيقية. فضلاً عن أنها بفضل عملها في إدارة أعمالكم، أتاحت لأورارتسيو الوقت الذي خصّصه للفنّ والموسيقى. ولستُ أبالغ، فذلك يطابق الحقيقة المجرّدة". كان بيترو فاتا يتحدّث جيّداً. هدأ جاني، وإن كان لا يزال يفكّر في خسارتهم الكبيرة عندما قاموا بتحطيم المزهريات الإغريقية!

ترك الأب أرينا منزل فاتا في الظهيرة، وذهب مباشرة إلى منزل الطبيب منديكو، قبل أن يستقلّ الحافلة ليعود إلى الريف. كان الطبيب يقرأ الجريدة، جالساً مع أخته في الصالون.

قال الأب أرينا رافضاً دعوتهما للجلوس لتناوُل القهوة: "يجب أن أعطيكَ إجابة وجيزة، أيُّها الطبيب. لقد سألتَني الشهر الماضي سؤالاً صعباً، لم أستطع إجابته. الآن أعرف الإجابة: نعم".

ردُّ الفعل المبالغ فيه وغير المتوقّع من الأخ أمام كلمات القِسّيس، أكّد للسيّدة بريما بالدليل القاطع، أن أخاها أصبح فعلاً غريب الأطوار، وربمّا كان على أعتاب خرف الشيخوخة. وبالفعل فإن الطبيب ميندكو الذي كان قد نهض من مَقعَده لاستقبال القِسّيس، وكان لا يزال واقفاً أمامه، عندما سمع هذا الكلام، أمسك بذراعه، وأجبره على خفض قامته، أحاط به بذراعَيْه القصيرتَيْن، وطبع قبلتَيْن فوق وجنتَيْه. لم يترك القِسّيس، وبقي متعلّقاً به في عناق طويل. في الوقت نفسه، لم يحاول الأَب أرينا الإفلات، وبدا أنه يقبل ذلك التصرّف كما لو كان شيئاً طبيعياً. وأخيراً، انفصل العجوزان وهما ينظران إلى السيّدة دي بريما، وكأنهما مراهقان متلبّسان بفعل غير لائق.

استأذن الأب أرينا محرجاً ومتلعثماً. اصطحبه الطبيب إلى الباب، وقال بصوت منخفض:

"لقد أحسنتْ منولارا. حقيقة أن الحبّ لا يعترف بالسِّنِّ!"

احتضن الأب أرينا مرّة أخرى قبل أن يلحق بشقيقته في الصالون.

سألتْهُ السيّدة دي بريما:

"ميمو، ما الذي كان يعنيه الأب أرينا بتلك الإجابة؟" كانت مستعدّة لإغراق شقيقها بالأسئلة.

قال الطبيب:

"كونشيتا، هناك بعض الأمور ذات طبيعة شخصية، ولا ينبغي أن تهتمّي بها. كفّي الآن من فضلِكِ". وعاد للقراءة.

ذهبت السيّدة دي بريما إلى حجرتها وهي تشعر بالإهانة، تاركة الطبيب ميندكو لقراءة الجريدة، وكان يشعر بسعادة لم يشعر بها منذ زمن.

54. دون باولينو أنونسياتا يتذكّر ما رآه في الحقول في أثناء الحرب من خلال نظّارة المحامي الفاليبي المعظّمة ذات يوم عاصف.

في تلك الظهيرة، استقبل دون باولينو شقيقة زوجته دونا إنزا وزوجها دون فيتو ميليتيللو في زيارة غير متوقَّعة، وقد تركا بوّابة قصر تشفيليا بأمر من البارونة، ولهدف محدّد: التأكّد من علْم دون باولينو بالخبر المذهل عن منولارا، وأن اسمها سيُكرّم في المسرح بحضور مُغنٍّي أوبرا من داخل الجزيرة وخارجها. لم يكن دون باولينو يعلم شيئاً، ولكن دونا ميما لم تشأ أن تخذل أختها وزوجها، وحكت لهما مجموعة من أنصاف الحقائق الكفيلة بإرضاء البارونة تشفيليا. كان دون باولينو قد جلس فوق المَقعَد بالمقلوب، وقد أسند ذقنه فوق ظَهْر المَقعَد. تذكّر ما حَدَثَ ذات يوم في أراضي بوليري، وكانت حادثة نادراً ما تخطر بذاكرته.

لم تتعرّض مُدُن صقلية الداخلية للقصف خلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب. لذلك لم تكن الحياة صعبة في روكاكولومبا التي كانت تأكل دائماً ممّا تنتج. كان الأمر مختلفاً لدى الأثرياء المعتادين على الأشياء المستوردة من الخارج، ومَن كان يملك سيّارة منهم لم يكن ليجد البنزين متوفّراً بسهولة، وكانوا يشترونه من السوق السوداء بأسعار مرتفعة. في تلك الفترة شعر أوراتسيو الفاليبي بالسأم. لم تكن الكُتُب الفرنسية تصل إليه، ولم يعد الكثير من الفنّانين والممثّلين يظهرون في المدينة. فضّل أمراء برولي البقاء في قصورهم أو إقطاعيّاتهم الريفية القريبة من عواصم الإقليم. وفاجأ أوراتسيو الجميع بقرار البقاء في الريف وفي الأراضي الزراعية التي لم يكن يهتمّ بها، وكانت بالنسبة إليه - حتّى تلك اللحظة - مجرّد مصدر للدَّخْل.

وكان أوراتسيو في أوقات الظهيرة من أيّام الربيع الأخيرة، وكذلك في الخريف، يأمر دون باولينو بقيادة السيّارة ماركة "إبريليا" واصطحاب الأولاد ومنولارا إلى أراضي بوليري لجمع الخضار والأعشاب البرّيّة التي كانت تنمو في بستان الزيتون، وثمار أشجار المشملة (البَشْمَلَة) والمِشْمِش في حدائق الفاكهة. كانت منو تجد راحتها في الريف، وتفتن الأطفالَ بحكاياتها. وكانت تقودهم للبحث عن حشرات غريبة ونباتات غير معروفة أو جمع الزهور لإهدائها إلى الأمّ. وكانوا يخترعون مخابئ في جذوع أشجار زيتون وفي تجاويف الصخور، ويلعبون "الاستغماية". كان أوراتسيو في أثناء ذلك يقرأ أو يمشي خلفهم ليحرّك ساقَيْه، وكان دون باولينو يراقبهم ويتبعهم خطوة خطوة. فلا أحد يدري، قد يظهر اللصوص. بينما كانت منو تجمع الخضار للعائلة ولأقاربها الفقراء في البلدة، كان باولينو يتسلّى بمجالسة الأطفال الذين كان يتسرّب إليهم الملل بعد نصف ساعة.

وبعد ذلك يلحق بهم أوراتسيو. كان يعلم أن المشي يُتعبه، فيأمره باصطحاب ليللا وجاني وكارميلا إلى مبنى الحراسة لتناوُل وجبة خفيفة، ويطيع دون باولينو ذلك الأمر بسعادة. فقد كان يُعجبه البقاء مع الأطفال في مبنى الحراسة الواقع فوق التلّ أمام بستان الزيتون، وهو مبنى متهدّم، وإن كان لا يزال صالحاً للسَّكَن في أدواره السفلي والترّاس، حيث المكان الأمثل للجلوس وفتح سلّة الطعام التي أعدّتْها منو.

في ذلك اليوم كان المحامي قد ترك النظّارة المعظّمة مع كارميلا. تركها سهواً، كما اعتقد دون باولينو الذي سرّه كثيراً هذا السهو، فقد كانت الطبيعة تُثير فضوله، ولطالما أعجبتْه رؤية العالم من خلال نظّارة المحامي المعظّمة، الوحيدة التي يعرفها وأمسك بها الآن بين يدَيْه. في أثناء تسلّقهم التلّ، غطّت سحابة كبيرة الشمس، وبدأت الرياح تهبّ قوية وعاصفة، ممّا دفع بسُحُب أخرى لتغطّي السماء فوق بستان الزيتون وفوق مبنى الحراسة أيضاً. حمل دون باولينو كارميلا، وصعد بالأطفال سريعاً، ليحتموا من المطر.

كانت كارميلا مأخوذة بطابور النمل الهابط من الحائط نحو الخبز المتناثر، وقد وضعت النظّارة المعظّمة في سلّة الطعام. كان جاني وليللا يثرثران بهدوء. استغلّ دون باولينو ذلك وأخذ النظّارة واقترب من النافذة. حرّك بؤرة العدسة واكتشف عالماً جديداً من النباتات والأحجار والأشجار والسُّحُب، كلّها قريبة عليّ قيد أنملة. هبّت الرياح قوية تهزّ أشجار الزيتون بغضب، لم يشعر بها الأطفال الذين انشغلوا بإزعاج حشود النمل. كانوا يدمّرون مسارته، ويحفرون فُوّهَة قريته بشوك الطعام، ثمَّ يجذبونه إلى أطباق الزنك الفارغة، فيقلبونها عليه، ويجري النمل حائراً في الاتّجاهات كلّها، وفي النهاية يدفنونه تحت الأرض. دون باولينو وقد واتتْهُ الشجاعة للمرّة الأولى في حياته، تحدّى الريح، وخرج إلى الترّاس. شاهد عبر العدسات الأغصان المثنية والبحر وقد تلوّن باللون الأخضر الفضّي. بدت إحدى أشجار الزيتون وكأنها على وشك السقوط أمام هبوب الرياح العاتية، كانت شجرة فوق التلّ المقابل للترّاس، وكانت من الشجر الضخم الذي يتّسع جذعه المجوّف لإخفاء ثلاثة رجال ضخام، وتتدلّى من قمّتها الكثيفة أفنان تلامس الأرض.

لمح دون باولينو شخصاً، ظنّ أنه ربمّا كان فقيراً جاء يبحث عن بعض الخضار البرّيّة وبعض الفاكهة. أحكم النظّارة وضبط بؤرتها. كان الرجل عاري الكتفَيْن داخل الجذع، وقد التفّت ذراعا امرأة حول عنقه. أفلت من ذراعَيْها وسقط فوقها وقد حجبت ستائر من الشَّعْر الطويل المجعّد عُريها. كان الرجل يلتقم نهدَيْها الواحد تلو الآخر، ويلعقهما ويلتهمهما، ثمَّ نهض ورفع المرأة. أحكمت ساقَيْها حول خصره، وتعلّقت مرّة أخرى برقبته، وقبّلها قبلة طويلة مفعمة بالشهوة، أطول من التي تظهر في السينما، ثمَّ تركها ترجع إلى الخلف وقد تقوّس ظَهْرها ولامست ذراعاها الأرض، وعاد يقبّل بطنها وثدييْها وعنقها، ثمَّ ضاجعها. كان دون باولينو يرتعش، وقد شعر بوخز وبَلَل في جسده. ترك النظّارة المعظّمة، ثمَّ ألصق عينَيْه بها مرّة

أخرى، وقد جفّ حلقه، ونسي الأطفال الذين كان يرعاهم. دبّ الشباب في أوصاله، وشعر بمتعة كمتعة الرجل والمرأة. وفي هذه الأثناء كان أوراتسيو الفاليبي يريح منولارا فوق سرير من أوراق الشجر داخل التجويف، ويتمدّد بجانبها. لم يتخيّل دون باولينو أبداً أن ممارسة الحبّ بهذه الطريقة ممكنة. وفي طريق العودة كان يقود العربة وقد جلس المحامي بجانبه مرتدياً ثيابه كاملة، يحمل كارميلا بين ذراعَيْه، وفي المَقعَد الخلفي جلست منولارا بين جاني وليللا وشَعْرها معقود كعادته.

الختام

انتقل جاسبري ريسيكو للإقامة في باليرمو بعد حصوله على ترقية بسيطة، بينما انتقل ماسيمو ليوني وكارميلا الفاليبي إلى قصر الفاليبي للعيش مع السيّدة الفاليبي، وظلّا معها حتّى موتها في عام 1967.

انفصلت كارميلا عن زوجها بعد ذلك بفترة وجيزة عقب مشاجرة عنيفة. قرّرت كارميلا بعد ذلك فتح محلّ للملابس في روكاكولومبا، وحقّق المشروع نجاحاً كبيراً. كانت تعيش في شُقَّة في قصر الفاليبي، وتقضي أُمسيّاتها في المنزل جالسة إلى المنضدة الصغيرة، تجمع قِطَع لعبة "البازل" التي استهوتْها منذ محاولتها جَمْع قِطَع المزهريات التي حطّمتْها مع أخوَيْها في 30 سبتمبر 1963. في الواقع نجحت في ذلك كثيراً، لدرجة أن الأشقّاء الثلاثه قرّروا تسليم الدكتور بالميري في المتحف الأثري القِطَع المحطّمة من مجموعات الأب (التي تمّ ترميمها وعرضها الآن في المتحف)، وذلك بعد إحساسهم بالذَّنْب، ولتهدئة روح منولارا التي أصبحت تشغل حيّزاً وأبعاداً خارقة وشيطانية في عقولهم.

كانت كارميلا تمارس لعبة البازل المسيطرة على أُمسيّاتها كلّ ليلة، باستثناء أربع ليال في العام: عند بداية كلّ فصل من فصول السنة، حين يحضر إلى صقلية مندوب وسيم لبيت أزياء للسيّدات في نابولي لتلقّي طلبات العميلات. عندئذ ترتمي كارميلا في أحضان المندوب في حبّ موسمي، قوي وهادئ. وعندما يتركها ليطوف بالأقاليم الأخرى، تسقط كارميلا في خمول للحواسّ، تساعدها عليه لعب البازل، حتّى يحلّ موعد الزيارة اللاحقة.

أقام ماسيمو ليوني في بيت شقيقته، واستمرّ في حياة العربدة. عندما بلغ الخمسين، حملت منه فتاة من كاتنيا. هدّده أخوتها، وبدا أنهم سينفّذون تهديدهم . شجّعه صهره على ترك البلدة للهرب من مطارديه، وبعد ذلك لم يعد يُسمَع عنه في روكاكولومبا.

أصبحت ليللا من المتردّدات المحترمات على الصالونات الراقية في روما. كانت تستقبل الناس في بيتها بأناقة، حيث تحتلّ مكان الصدارة. في صالونها مزهريّتان من الخزف اليوناني، وقد نالتا إعجاب المتردّدين جميعهم من المثقّفين في العاصمة، كمثل رائع للفنّ اليوناني. بالإضافة إلى أن ليللا أصبحت عضواً بلجنة تحكيم مسابقة "منولارا" السنوية، التي، بالإضافة إلى الاحتفاليات الموسيقية، كانت محلّ تقدير الجزيرة كلّها وإعجابها.

عاش جاني حياة هادئة وراضية، مع زوجته وابنه أوراتسيو في كاتنيا، وارتقى في سُلَّم الجامعة. لم تُساوِرْهُ الشكوك أبداً بأن أوراتسيو ليس ابنه، وإنما ابن صديق حميم للعائلة وزميل لزوجته. بقي قصر الفاليبي كما هو، وإن كان قد اعتراه بعض القِدَم. كان جاني وزوجته يسكنون الطابق العلوي عند قدومهم إلى روكاكولومبا للإجازات أو للاحتفاليات الموسيقية. وكانوا، في الغالب، يدعون بعض أصدقائهم. وقد حملت أمّ أوراتسيو الصغير به فوق الأريكة المقابلة للمدفأة في حجرة مكتب المحامي الفاليبي.

نسيت الناس ماريا أينتسريللو، الملقّبة بمنولارا، سريعاً، ولكنها تتذكّر بفخر المواطن البارز المحامي أوراتسيو الفاليبي، المثقّف الكبير وجامع التحف التي تشرّف ذكراهُ البلدة.

شكر

أهديتُ الرواية إلى شركة الطيران البريطانية. أنا مدينه لتأخّر طائرة باليرمو - لندن يوم 2 سبتمبر 2000، بلحظة الإلهام التي دفعتْني لكتابة هذه الرواية. لذلك، وربمّا أيضاً لذلك الخطّ "الهوائي" الذي يربطني ببلدي، تظلّ شركة الطيران البريطانية في الإهداء.

أودّ أن أشكر شخصَيْن لمساعدتهما لي في كتابة هذه الرواية: جوفانا سالفيا، القارئة الأولى، ومسؤولة النشر المتحمّسة التي لم تبخلْ باقتراحاتها السديدة الصائبة، وقد أصبحت الآن صديقة أيضاً. ثمَّ مُراجِع النسخة في دار نشر فلترينللي ألبرتو روللو، لمساعدته الدائبة الصبورة القيّمة، والتي لا تقلّ عن المستوى الرفيع لعمله المهني. كان العمل معه بالنسبة إليّ متعة حقيقية، فضلاً عن تعلّمي المستمرّ منه.

لم يمنحني ألبرتو روللو "دورة تخصّص" في الكتابة فقط، فقد تعدّت منحتُهُ ذلك، لتكشف لي العديد من الأبعاد لمعاني الكلمات باللهجة الصقلية والإنجليزية؛ مرادفات أدهشني عدم معرفتي بها.

منولارا بعد ستّة عشر عاماً

أدّى النجاح الذي حقّقتْهُ رواية منولارا إلى زيادة رحلاتي بطيران الخطوط الجوّية البريطانية بنسبة أربعين بالمائة على الأقلّ. لم يتكرّر تأخّر الرحلة كما حَدَثَ في يوم 2 سبتمبر 2000 لذلك بحثتُ عن مصادر أخرى للإلهام.

أشكر كارلو فيلترينللي والعاملين بدار نشر فيلترينللي كلّهم، والتي

أتعاون معها منذ ذلك التاريخ بالحماس والثقة أنفسهما. يسعدني تجديد شكري وامتناني لألبرتو روللو وجوفانا سالفيا اللذَيْن عملتُ معهما باستمرار. أشكرهما على الصداقة التي نمَتْ بيننا، والتي تُعدّ بالنسبة إليّ بأهمّيّة التعاون المهني نفسه.

سبتمبر 2018

telegram @yasmeenbook

المترجمة: نجلاء والي

حاصلة على دكتوراه الآداب في اللغة الإيطالية بدرجة الشرف الأولى من كلية الألسن – جامعة عين شمس في مصر، وماجستير في الأدب العربي والدراسات الإسلامية من جامعة الدراسات الشرقية في نابولي في إيطاليا. تعمل حالياً مدرسة للغة العربية وتقنيات الترجمة من اللغة العربية إلى الإيطالية بجامعة تورينو.

صدر لها العديد من الترجمات بين اللغتين العربية والإيطالية منها: حكايات كالفينو لإيتالو كالفينو (المجموعة الكاملة للحكايات الشعبية الإيطالية وقد صدرت في أربع مجلدات) 2007، وابتسامة البحار المجهول لفينشينسو كونصلو 2009، وحياة ماريانا أوكريا لداتشيا مارايينى 2012، وزهور نهر تيزا لدانتي ماريناتشي 2017.

نالت جائزة الإنجاز في ترجمة الأدب الإيطالي إلى اللغة العربية، والجائزة الوطنية الإيطالية للترجمة من وزارة التراث والأنشطة الثقافية والسياحية الإيطالية 2017، وجائزة البحر المتوسط للثقافة في الدورة السادسة 2016 من مؤسسة البحر المتوسط الثقافية.

telegram @
yasmeenbook